سندباد
فى
عصر الحروب الصليبية

إعداد

د . محمد مؤنس عوض

كلية الآداب - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

٢٠٠٢



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

ĒIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج م ع - تليفون - فاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher: ÈIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

الإهــــداء

إلى شهـداء مذبحة القدس (١٥ ــ ٢٥ يوليو١٠٩٩م)، وشهداء الانتفاضة الفلسطينية الباسلة ؛ حتى لا تضيع ذكرى شـهـداء الأمس، واليـوم فى غـيـاهب النسـيـان.

السندباد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

يتناول هذا الكتاب؛ تاريخ الحروب الصليبية أو الصدام بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى خاصة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين من خلال امتزاج الأدب والتاريخ، وهو بالتالى يبعد عن الحدود الأكاديمية التى طالما كبل بها مؤلفه نفسه. والآن آن الأوان من أجل الانطلاق ، والفكاك من ذلك الأسر.

ويلاحظ أن الهدف من وراء كتابة الصفحات التالية · مخاطبة القارئ المثقف غير المتخصص الذى يسعى ما وسعه السعى نحو معرفة ملامح عالم الحروب الصليبية الزاخر بالصراع بين مختلف القوى السياسية، والدينية ، والاقتصادية ، خلال ذلك العصر . ولم أجد أفضل من شخصية السندباد من أجل أن يقوم بتلك المهمة ، من خلال أسلوب مبسط يسعى إلى تقديم رؤية بانورامية عامة دون الخوض فى التفصيلات التى من شأنها أن تبعث الملل فى نفس غير المتخصص.

وأود أن ألفت نظر القارئ إلى أن قصة السندباد تعد القصة السحرية الكبرى فى أدبنا العربى كما يقرر الراحل الأستاذ الدكتور / حسين فوزى ، وفى ألف ليلة وليلة : نجد قصة عبد الله البرى والبحرى ، وقد لفت نظرى تلك الشخصية الثرية المسماة «السندباد» فتخيلت شخصى المتواضع سندباداً أجوب مناطق بلاد الشام فى القرنين ١٢، ١٣ م / ٦، ٧ هـ أرضاً وبحراً : من أجل تقديم صورة ذلك العصر التاريخى على نحو يسير مبسط من خروج الصليبيين من فرنسا وباقى دول الغرب الأوربى إلى وصولهم إلى بلاد الشام ؛ ثم طردهم منها من بعد ذلك.

ختاماً · أترك القارئ يطالع الصفحات التالية ، وهى حصاد الهشيم المتواضع لعصر تاريخى زاخر الأحداث يقف السندباد الصغير أمامه فى حيرة بالغة ، وهذا جهد المقل، ودائماً أردد قوله تعالى {وفوق كل ذى علم عليم}.

د . محمد مؤنس عوض

مساكن شيراتون

مصر الجديدة ٢٠٠١م

-١-

شَدَّ السندباد رحاله صوب الغرب الأوربى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى؛ من أجل استقصاء أوضاعه، ومعرفة التطورات الداخلية التى ستنعكس على قارات العالم القديم بأسره فيما عرف بالحروب الصليبية التى لن تكون قاصرة على نطاق القارة الأوربية فحسب ، وبالتالى فهى وإن كانت صنيعة القارة الأوربية إلا أنها بالفعل صارت ظاهرة تاريخية عابرة للقارات على نحو يكشف حجم شمولية تأثيرها.

وواقع الأمر ؛ أن الغرب الأوربى عاش فى ظل النظام الإقطاعى Feudal System، حيث وجد ذلك المجتمع المحدد طبقيًا ، فهناك الفرسان أو الذين يحاربون وهم أعلى الهرم الطبقى الإقطاعى ، ثم رجال الكنيسة أو أولئك الذين يتعبدون ، وفى أسفل الهرم المذكور عاش الأقنان أو رقيق الأرض ، وهم الذين شكلوا الغالبية العددية فى ظل ذلك النظام الاقتصادى، والاجتماعى.

كان الفرسان : هم أصحاب الحظوة ، والمكانة السياسية ، والاجتماعية وتناثرت أملاك السادة الإقطاعيين فى فرنسا ، وألمانيا ، وإنجلترا وغيرها من البقاع الأوربية ، ووجدت هناك القلاع التى استقر فيها السادة الإقطاعيون وقد بنيت أولاً من الأخشاب ثم تطورت وصارت تبنى من الحجارة ، واستخدمت تلك القلاع من أجل إدارة الإقطاع ، وكذلك عاش فيها ذلك السيد وزوجته وأبناؤه. ولاحظ السندباد كيف أن الصراعات الحربية كانت تنشب بين الحين والآخر بين السادة الإقطاعيين : من أجل السيطرة على الأرض ومن عليها من دواب وأقنان، وحاولت البابوية ـ التى مثلت أعلى سلطة روحية فى ذلك العصر ـ وقف تلك النزاعات دون جدوى ومن ثم قامت بما يعرف بهدنة الرب : هدفها أن تكون فترات سلام لا تخرج فيها السيوف من أغمادها؛ غير أن ذلك المسعى ذهب أدراج الرياح ، وباءت جهودها فى هذا الشأن بالخسران المبين، وهكذا صارت الحروب بين السادة الإقطاعيين تمثل خطرًا داهمًا. يتهدد الغرب الأوربى.

لم يكن ذلك النظام يحتل فيه الفرسان المكانة العليا فحسب : بل آن رجال الكنيسة كان لهم شأنهم من التقدير والاحترام فى عصر سادت فيه الظاهرة الدينية ، وتعاظمت من خلال عاطفية خاصة لدى البسطاء السذج، وهكذا : وجدنا هناك الأساقفة ورؤساء الأساقفة والقساوسة ، والرهبان ، وجميعهم مثلوا جزءًا من المؤسسة الدينية ذات التأثير الكاسح فى ذلك العصر . وقد تزايدت ثروات تلك المؤسسة من خلال الهبات ، والعطايا ، والمنح التى قدمت لها من جانب الأثرياء الذين ارتبطت مصالحهم مع مصالح كبار رجال الكنيسة.

ولاحظ السندباد ؛ وهو يتجول فى بقاع الغرب الأوربى مدى تعلق الناس بأضرحة القديسين Saints، وجعلوها بمثابة موضع لزياراتهم بين الحين والآخر ، وقد تناثرت هنا وهناك ، وسادت وشاعت روايات عن معجزات آولئك القديسين التى حفظها الناس كابرًا عن كابر وعن ظهر قلب ، وبتعاقب الأعوام : وجد لكل دولة ما القديس الحامى الخاص بها الذى تلتف من حوله أفئدة المعاصرين التماسًا للعون، والدعم ، والمساعدة ، وفى ظل ذلك التوجه سادت الرؤى المنامية التى صدقها القوم، وساروا وراءها ، وتملكت الدهشة عقل السندباد ، غير أنه أدرك إدراكًا كاملاً أن لكل عصر من عصور التاريخ تصوراته التى يشكلها من خلال موروث شعبى ينمو بنمو أبنائه.

واكتشف السندباد : أن الغرب الأوربى حينذاك سادته فكرة الحج ، وزيارة الأماكن التى ارتبطت بذكريات المسيحية فى عهدها الباكر بفلسطين، وإذا كانت تلك الفكرة انتعشت منذ القرن الرابع الميلادى على يدى هيلانة Helena آم قسطنطين Constantine الكبير التى صارت فيما بعد القديسة هيلانة St. Helena، إلا آن القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى عد قرنًا محوريًا فى بروز فكرة الحج، ويلاحظ أن الحجاج الذين ذهبوا من الغرب الأوربى إلى هناك عادوا وقد رووا ما شاهدوه وتحرقت قلوب المعاصرين شوقًا لزيارة تلك المواقع المباركة التى شهدت ميلاد المسيحية كدين ، ثم آن هناك من سجل خواطره وما شاهده، وظلت تلك المؤلفات تتردد وتلهب المشاعر ، والأفئدة لزيارة تلك المواقع ، وبصفة عامة: صار الحج إلى فلسطين فى ذلك القرن ـ آكثر من ذى قبل ـ بمثابة الحلم الجماعى ، وحّد الغرب الأوربى بصورة غير مسبوقة .

وعندما تساءل السندباد عن السبب الذى وقف وراء ذلك جاءته الإجابة الوافية الشافية فى صورة آن دير كلونى Cluny الذى تأسس فى القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى

بفرنسا: عمل على شحذ النفوس ، ودعم فكرة الحج بكل الوسائل والصور، وصار البابوات الذين تخرجوا منه أحرص الناس على ذلك.

لم يكن للسندباد أن يتجنب الغالبية الساحقة من أبناء ذلك الغرب الأوربى فوجدها متمثلة فى عناصر الأقنان Slaves أو رفيق الأرض، ولاحظ أن البؤس كان رفيقهم ، والشقاء صاحبهم، والمعاناة هى الرحم الذين تكونوا فيه آجنة ، وعاشوا فيه بعد خروجهم إلى عالم الحياة التعسة ، عاشوا فى آكواخ لا تقيهم البرد، والمطر ، وانتشر فى صفوفهم الجهل، والفقر، والمرض ، وعاش القن قِنًا ، ومات قِنًا، وزادت نسبة الوفيات فى آبنائه زيادة كبيرة ، وهكذا؛ لم يكن هناك بصيص من الأمل لذلك التعيس الشقى الذى إذا وُجِدَ فى ضيعة بالقرب من باريس ـ على سبيل المثال ـ وبعدت عنها عدة كيلومترات ، لم يكن له آن يرى آضواء تلك المدينة ، وإذا فكر فى الفرار كان القتل نصيبه من سيده عقابًا : له لأنه شق عصا الطاعة التى فرضت عليه حتى الممات !!! .

تعجب السندباد من تلك الحياة التى عاشها الأقنان ، ووصل لمسامعه أن القن إذا ما فكر فى الزواج ، اغتصب السيد الإقطاعى عروسه ، ثم قدمها له كى يتزوجها ... يا للمأساة، إلى هذا الحد !!! وإلى هذه الدرجة !!! كيف يعامل أولئك التعساء الذين يزرعون الحقول ويقدمون الطعام لباقى عناصر ذلك المجتمع الذى لم يعرف بهم كبشر ، وعاملهم كدواب أو أضل سبيلاً ، وكل ذلك على مرأى ومسمع من الكنيسة التى كانت تمنيهم بالآخرة ، بعد أن عجزت عن إنصافهم ، وإعادة حقوقهم التى اغتصبها السادة الإقطاعيون.

آدرك السندباد أن ذلك المجتمع يغلى بالصراع الداخلى الطبقى ، فالفرسان يتصارعون، والأقنان يُطحنون، والبابوية تحاول وقف الصراع بين الأولين دون جدوى . وكافة تلك الأوضاع ستؤدى فى نهاية المطاف إلى حدوث انفجار الحروب الصليبية التى سيكتوى بآتونها الجميع دونما استثناء . وقد دعم ذلك ، وسانده ، آن زيادة سكانية واضحة حدثت فى الغرب الأوربى فى ذلك القرن على نحو جعل الأرض تضيق بسكانها ، ولا مراء فى آن ذلك كله كان له دوره البارز فى الصدام بين الغرب والشرق فى آخرياته.

لقد سُئل السندباد : كيف تتحدث عن حرب صليبية على الرغم من أن المسيحية ديانة مسالمة ، وما هو تعليل ذلك الأمر ؟

وكانت الإجابة الشافية أن المسيحية نشأت بالفعل كذلك ، لكن فيما بعد تم تحريبها أى جعلها ديانة محاربة ، وذلك بفضل دور كبار آباء الكنيسة وعلى رأسهم القديس أوغسطين St. Augustin (القرن ٦م) الذى تناول بالحديث أمر الحرب العادلة Just War ، وفيما بعد تطور الأمر بحيث صارت الحرب شريعة دينية لدى بابوات روما ، وأخذ نجم الفارس يتألق ذلك الدافع عن مسيحيته ضد كافة الأديان ، والتيارات المناوئة، والمعارضة والتى تعتبرها البابوية كافرة أو مهرطقة أو خارجة عن دائرة الإيمان الصحيح ـ من وجهة نظرها بطبيعة الحال ـ وتم إبراز تلك الفكرة من خلال الحرب التى شنها الأسبان ضد المسلمين فى الأندلس ، وهى التى تعتبر ـ وبحق ـ التجربة الأولى للحروب الصليبية التى جرت على أرض بلاد الشام، ومصر، وتونس فيما بعد.

وهكذا : صارت «الحرب المقدسة» Holy War بمثابة فكرة أساسية وتعاونت معًا فكرة «الحج» لتكون لنا المدخل الحقيقى الذى منه اشتعل الصدام بين الغرب الأوربى الكاثوليكى ، والشرق الإسلامى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى .

من زاوية أخرى ؛ نلاحظ خلال القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى ، أن الغرب الأوربى وصل إلى درجة كبيرة من التنظيم السياسى على نحو كان له انعكاسه على نشأة فكرة التوسع الخارجى، ففى فرنسا ـ على سبيل المثال ـ وجدت أسرة آل كابيه Capet وهى أسرة قوية أسسها عام٩٨٧م/ ٣٧٧ هـ هيو كابيه Hugh Capet، وحكم فرنسا حينذاك الملك فيليب الأول Philip I (١٠٦٠ ـ ١١٠٨م / ٤٥٢ ـ ٥١٤ هـ) ، أما ألمانيا : فحكمها الإمبراطور هنرى الرابع Henry IV (١٠٥٦ ـ ١١٠٥م/ ٤٤٨ ـ ٥١١هـ) الذى دخل فى صراع مرير مع البابا جريجورى السابع Gregory VII (هلد براند) على نحو أدى إلى إذلال كانوسا Canossa بإقليم توسكانيا Tuscany بإيطاليا عام ١٠٧٧م/ ٤٦٨ هـ، أما انجلترا فنعرف أنه فى عام ١٠٦٦م / ٤٥٨هـ حدثت معركة هاستنتجز Hastings والتى انتصر فيها وليم دوق نورمنديا William of Normandy منه يا على السكسون ، ولقب بوليم الفاتح William The Conqueror، وأدت تلك المعركة الفاصلة إلى أن اعتبرها البعض نقطة تحول فى تاريخ الغرب الأوربى وحولت إنجلترا من حيز ثانوى هناك إلى أن تكون قوة فاعلة فى سبيل نمو الصليبيات ـ وهو أمر سنلاحظه خاصة خلال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى ـ ومن المقرر أن تلك المعركة ـ على نحو خاص ـ وصفت بأنها غزو حضارى من جانب فرنسا لإنجلترا ، وأدت إلى إنهاء عزلة الأخيرة عن القارة الأوربية ، أما إذا توجهنا

صوب إيطاليا سنجد أن المدن الإيطالية التجارية فى صورة جنوة ، وبيزا ، والبندقية أكملت مؤسساتها السياسية والاقتصادية وتطلعت إلى التوسع الخارجى ، أما السويد والنرويج والدنمارك فقد وجد بها ملوك أقوياء منهم من شارك فيما بعد فى المشروع الصليبى كما لاحظنا بالنسبة لملك النرويج سيجورد الذى سيشارك ـ بدوره فى صليبية خاصة به خلال المرحلة من ١١٠٧ ـ ١١١١م/ ٥٠١ ـ ٥٠٥ هـ وبالنسبة لشبه الجزيرة الأيبيرية ، نجد أن حركة مقاومة الوجود الإسلامى فيها تزايدت بصورة كبيرة.

مجمل القول وخلاصته : أن الغرب الأوربى أكمل مؤسساته السياسية ، وتطلع صوب خارج حدوده ، وكان البحر المتوسط هو ميدان تنافس المطامع الأوربية الاستعمارية ، وكانت الراحلة التى يمتطيها الجميع لتحقيق أهدافهم التى لا تحد هى «الحروب الصليبية».

أدرك السندباد : أن أحداث التاريخ تقع من خلال التحام القائد ، والمجموع ، وهنا : نجد أن القيادة الدينية فى صورة البابوية تأخذ بزمام المبادرة : وتقود الغرب الأوربى إلى مشروع الحروب الصليبية ، غير أن تناول دور البابوية يلزم معه تناول الأحداث التى وقعت خارج القارة الأوربية خاصة فى آسيا ، والصدام بين السلاجقة ، والإمبراطورية البيزنطية .

ففى القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى : ظهرت قوة إسلامية سنية فى صورة الأتراك السلاجقة الذين اتسموا بالحماس الدينى ، والقوة العسكرية ، وتمكنوا من فرض سيادتهم على الخلافة العباسية فى بغداد ، والتخلص من سيطرة البويهيين الشيعة ، ثم فيما بعد تمكنوا فى عهد سلطانهم ألب أرسلان من هزيمة الإمبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينوس Romanus Diogenus فى معركة مانزكرت Manzikert عام ١٠٧١ / ٤٦٤ هـ والتى هزمت فيها الإمبراطورية البيزنطية هزيمة مروعة ومن ثم تم أسر الثأر إمبراطورها . وتم حرمان تلك الإمبراطورية من مصادر تمويلها بالجند المرتزقة؛ وهم عناصر أساسية للجيش البيزنطى . ومنذ ذلك الحين بدأت بيزنطة تطلب من الغرب العون والمساعدة الحربية من أجل مواجهة الخطر السلجوقى الداهم.

ولا نغفل هنا؛ أن السلاجقة السنة اصطدموا بالفاطميين الشيعة فى بلاد الشام، وتمكنوا من بسط سيادتهم على بقاع عديدة هناك ، وخلال تلك الصراعات : لم يعد الحج الأوربى إلى الأماكن المقدسة فى فلسطين بنفس الدرجة من الأنسياب التى كانت من قبل ، وراجت فى الغرب الأوربى شائعات عن اضطهاد مزعوم من جانب الأتراك السلاجقة على نحو آدى إلى وجود نفسية جماعية تريد الثأثر ، والحرب من آجل تخليص الأماكن المذكورة عن السيادة الإسلامية ، وعودتها إلى السيادة المسيحية .

ومما يجدر ذكره ؛ أن كافة تلك الأحداث كان من الممكن أن تسير مسيرة مغايرة ؛ غير أن الأمور تطورت من خلال أحد البابوات فى صورة البابا أوربان الثانى Urbanus II الذى ولد عام ١٠٣٥م / ٤٢٧ هـ بفرنسا وبالتحديد فى شانيون سيرمارن واسمه اودو ودرس على يدى قديس يدعى برفو، وتعرف أنه تولى المنصب البابوى خلال المرحلة من ١٠٨٨ إلى ١٠٩٩م/ ٤٨١ ـ ٤٩٣هـ وتمتع ذلك البابا على نحو خاص بإرادة قوية ، وعقل منظم ، ورؤية إستراتيجية ترى أبعد من حدود فرنسا وأوربا إلى الشرق ذاته ، وكانت طموحاته لاتحد من أجل إعلاء شأن كنيسة روما الكاثوليكية ومد نفوذها لتحتوى كنيسة القسطنطينية المنافسة لها . ورأى البابا ضرورة توحيد عالم المسيحية تحت قيادته من خلال مشروع حربى ضد المسلمين فى الشرق، ومن خلال فكرة تلبية دعوة الإمبراطورية البيزنطية ومساعدتها ضد الضغط السلجوقى ، وفى نفس الحين أدرك بثاقب بصره أن مثل ذلك المشروع من شأنه جعل كبار الملوك فى الغرب الأوربى يخطبون ود البابا خوفًا من أن يفرض عليهم ما عرف «بالحرمان الكنسى» Excommunication الذى كان بمثابة الانتحار السياسى لكيانهم الحاكم حينذاك.

لم يغب عن ذهن السندباد ؛ أن ذلك البابا أدرك أوضاع المسلمين فى منطقة الشرق الأدنى لاسيما فى بلاد الشام ، والعراق ، ومصر ، وأن هناك خلافتين متناحرتين فى صورة الخلافة العباسية السنية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة وأنهما تنافستا وصارت بلاد الشام بمثابة منطقة وسطى ، ومحط التنافس والتناحر بين القوتين الكبيرتين فى العراق ومصر، فإذا أضفنا إلى ذلك تفتت دولة السلاجقة بعد رحيل آخر السلاطين الأقوياء ملكشاه عام ١٠٩٢م / ٤٨٥ هـ ؛ أدركنا كيف أن المنطقة كانت تعانى من الخلل السياسى ، والتشرذم والتناحر وأنها تمهد السبيل ـ من حيث لا تدرى ـ لأقدام الغزاة القادمين من الغرب الأوربى فى صورة الصليبيين ، ويلاحظ أن عدداً من القادة الصليبيين الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى من قدم إلى مصر وبلاد الشام وشاهد وعاين مسرح العمليات؛ بصورة توضح لنا أن نوعًا من « دراسة الجدوى » تم إعدادها ، وأن ذلك البابا الحاد الذكاء كان يدرك أوضاع أعدائه الذين مزقهم الخلاف شر ممزق ، وحطمهم الصراع فذهبت ريحهم .

لقد كانت بلاد الشام تعانى من التفكك ، والصراع ، وفى ظل ذلك كله فقدت قدرتها على إيجاد التوازن السياسى الذى يوحدها ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنها احتوت على خليط عقائدى شديد التنوع ، فهناك السنة ، والشيعة ، والدروز ، والنصيرية ، والموارنة إلى آخر تلك القائمة من أهل العقائد ، والملل ، والنحل ، والكارثة الكامنة أو القنبلة الموقوفة التى كانت تنتظر

الأنفجار أن أصحاب كل عقيدة ومذهب لم يكن يعترف بالآخر' بل كان يكفره ، ويرفضه البتة، وهكذا؛ كان التناحر المذهبى ، فإذا اضفنا إلى ذلك ' آن هناك آقوامًا عديدة ومتنوعة شهدتها بلاد الشام على المستوى العرقى آدركنا كيف أن تلك المنطقة كانت مهيأة أكثر من غيرها لتكون مطمعًا ، وهدفًا للغزاة الذين قدموا إليها من الغرب الأوربى ، وخطورة الأمر ؛ أن ذلك التناحر ، وتلك الأنقسامات تفجرت بصورة أعنف ، وأقوى ، وأوضح مع مقدم القوة التى استثمرت كافة تلك التناقضات السياسية ، والعقائدية ، والعرقية ، ولاحظ السندباد ؛ أن الصليبيين عندما استقرت آقدامهم فى المنطقة استفادوا الاستفادة عينها من ذلك الخليط العجيب الذى احتوته بلاد الشام : من آجل تحقيق مصالحهم الاستعمارية العليا .

تعجب السندباد تعجبًا شديدًا ، وعقدت الدهشة لسانه نظرًا لذلك التناقض البين الذى عليه نطاقين جغرافيين هما غربى البحر المتوسط وشرقه. ففى غربى البحر المتوسط هناك نشاط حركة المقاومة المسيحية للوجود الإسلامى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، وتم استرداد طليطلة عام ١٠٨٥م / ٤٧٩ هـ التى زارها البابا أوربان الثانى بعد آن تخلصت من السيادة الإسلامية ، ومن بعد ذلك : تم إسقاط حكم المسلمين فى صقلية ، وجنوب إيطاليا عام ١٠٩٠ م / ٤٨٣ هـ ، ولا ريب أن الغرب الأوربى كان يعيش صحوة من نوع جديد ، أساسها الفهم الخاطئ للإسلام والتعصب المقيت ، وعدم القدرة على التحاور مع آهل الأديان الأخرى سواء على صعيد اليهودية أو الإسلام، وستعود فرنسا ذلك التوجه ، وبصفة عامة ؛ وجدنا أن غربى البحر المتوسط وجنوبى أوربا المطلة على ذلك البحر فى مرحلة النضج السياسى'، القوة على المستوى الروحى ، والعسكرى ، والرغبة فى تصدير حركة تاريخية نابعة عن نفسها ، وهويتها خارج حدودها ، أما شرقى البحر المتوسط ، فكانت صورته متمزقة ، وهنا كان للتاريخ كلمته ؛ تكامل هنا ، وتناقض ، وانزواء هناك ، فكان الصدام والصراع بين غربى البحر المتوسط ، وشرقه ، فلا عجب إذا ما لاحظنا آننا آمام حركة تاريخية تدور رحاها اعتمادًا على ذلك البحر الذى كان ــ وبحق ــ حلقة الاتصال بين الدول، والأمم، والأقوام المتصارعة غربه وشرقه .

مهما يكن من أمر ؛ اتجه السندباد بناظريه إلى كليرمونت فرون . الواقعة فى جنوب فرنسا من آجل مشاهدة ميلاد الحركة التاريخية المفعمة بالأحداث ، ويرى كيف اشتعلت الحرب العالمية فى العصور الوسطى فى صورة ما عرف «بالحروب الصليبية ».

ـ ٢ ـ

اتجه السندباد إلى هناك : إلى كليرمونت فرون ، التى دخلت التاريخ من خلال الأحداث التى شهدتها ، وحولتها من مدينة عادية إلى نجم ساطع فى سماء المواقع الجغرافية فى الغرب الأوربى فى القرون الوسطى ، فلاحظ أن مجمعا كنسيًا يعقد بها فى عهد البابا أوربان الثانى، وفى اليوم العاشر من عقد ذلك المجمع ، ألقى ذلك البابا المفوه الفصيح البيان خطابًا اتسم بتركيز الأفكار ، والوضوح ، والبلاغة ولم يستغرق القاؤه إلا زمنًا قصيرًا ، فكان ميلاد المشروع العسكرى الكبير ، وقد بدأ البابا يخاطب جنس الفرنجة ، ويذكرهم بأمجادهم من أجل إثارة حماسهم لمشروعه الجديد ، وذكر أن أخبارًا بالغة السوء ، وصلت إلى مسامعه فحواها أن جنسًا ملعونًا هم الكفار ـ ويعنى بهم السلاجقة ـ ذبحوا المسيحيين الشرقيين ، وحولوا كنائسهم إلى اسطبلات لخيولهم ـ وهى فى الواقع أكاذيب مضللة باعتراف المؤرخين الأوربيين المحدثين أنفسهم ـ وتلك الدماء التى سالت فى الشرق تنادى مسيحيى الغرب · من أجل إنقاذهم ، ونجدتهم وواصل البابا الداهية خطابه من خلال العزف على الوتر الذى طالما ضمن النجاح الساحق لمن عزف عليه، فى صورة القدس Jerusalem ، المدينة التى شهدت ذكريات المسيحية الأولى ، أم المدائن ، قلب العالم ، الجنة الأرضية، وهى تنادى كافة المسيحيين من أجل تحريرها من قبضة أولئك الكفار ، وأضاف بعض العبارات من الكتاب المقدس : من أجل أن يعطى لخطابه مسحة دينية ويدعمه بكافة الصور، وبكل الأشكال الأدبية ، والبلاغية اللازمة، كذلك قدم البابا الحوافز التى لا يمكن رفضها: فمن يذهب إلى الشرق يجد أرض كنعان التى تفيض لبنًا وعسلاً ، ومن يستشهد تغفر آثامه ـ فى عصر ما أكثر الآثام فيه ـ وأوضح لسامعيه أن الأرض فى الغرب الأوربى ضاقت بسكانها ، وأن عليهم الانطلاق صوب الشرق بحثًا عن مناهل الرزق وموارد الحياة هناك.

أدرك السندباد كيف أن البابا أوربان الثانى الداهية ركز حديثه بصورة دقيقة ، وجعل لمشروعه المرتقب هدفًا واحدًا فى صورة تحرير القدس زهرة المدائن ، ومحاربة المسلمين ولم يورد شيئًا عن التنصير ، رغبة كنيسة روما الكاثوليكية فى تنصير مسلمى الشرق ، وجعلهم

مسيحيين يتبعونها؛ وبالتالي تحقق الانتصارات تلو الأنتصارات على كنيسة القسطنطينية المنافسة التقليدية لها ، كذلك لم يورد أدنى عبارة خاصة بالرغبة الجامحة التي تملكته في توحيد الكنائس، وإخضاع كنيسة القسطنطينية الأرتوذكسية لسيطرة كنيسة روما الكاثوليكية، ولا مراء في أن الجالس على مقعد القديس بطرس في روما ، كان من الدهاء بحيث أخفى الأهداف المتعددة الأخرى حتى يضمن لمشروعه النجاح ، ومن أجل خداع الجميع واقناعهم بأن الأمر في جوهره قضية دينية لا سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، فدل بذلك على مدى الدهاء الذي تمتعت به المؤسسة الدينية في الغرب الأوربي حينذاك ، وقدرتها على رسم ملامح مشروع جديد تحاول البابوية من خلاله قيادة أوربا لضرب الإسلام في عقر داره ، وفي مناطقه التقليدية التي استقر فيها منذ القرن السابع الميلادي / الأول الهجري .

وفي أعقاب إلقاء البابا لخطابه، صاح الحاضرون صيحة واحدة تقول «تلك إرادة الرب» Deus le Vult وكانت تلك صيحة المسيحية حينذاك في حربها ضد الإسلام ، وأثبتت الأيام؛ أن «الله » أو «الرب » الذي رأت الكنيسة أنه أراد ذلك لم يرده فعلاً ، بل أراده المتعصبون من أبناء المسيحية التي جعلوها ديانة محاربة ، وجعلوا لها تاريخًا دمويًا هي في الأصل لم تدع إليه ، ومن الآن فصاعدا ، بدأ التاريخ المتعصب وبدأت المذابح وإراقة الدماء أو التصفية الجسدية لعشرات الألاف من أولئك الذين لم يدينوا بالمسيحية سواءً من اليهود أو المسلمين .

عرف السندباد أن خطاب البابا أوربان الثاني أحدث ضجة كبرى في الغرب الأوربي وتناقلته الألسن ـ في عصر لم توجد فيه وسائل إعلام مرئية ـ ، بل انتقل ذلك البابا إلى مناطق عديدة من أجل الدعوة للمشروع المرتقب ، وأرسل الرسائل إلى هنا وهناك ؛ من أجل تحقيق ذلك الهدف المنشود ، والمسعى المأمول ، ومن الجلي البين : أن الرجل أصاب هدفه من خلال جو التعصب العام ضد كل ما هو غير مسيحي وكان إفرازًا حقيقيًا لعصره ، ولم يكن إلا الممثل أو المعبر البارع الذي عبر عن مفاهيم عصره التاريخي بغض النظر عن تقييمنا الأخلاقي لذلك الدور.

على آية حال ؛ شعر السندباد أن ذلك الخطاب أشعل نيران الحماس التي لم تنطفئ في نفوس أهل الغرب الأوربي ، ولم يحدث في تاريخ القرون الوسطى في أوربا أن وجد خطاب أحدث مثل ذلك الأثر الفعَّال ، على نحو ضمن لتلك الكلمات التي ألقيت في ذلك اليوم المشهود المكانة العليا في تاريخ أوربا العصور الوسطى ، بل وعلاقاتها الدولية بآسيا وأفريقيا .

واقع الأمر ؛ أن المشروع المرتقب الذى فجر شرارته ذلك البابا الداهية ، كان وقوده خلال تلك المرحلة المبكرة العامة ، الأقنان الذين اتصفوا بالتدين العاطفى المندفع الذى وصل إلى درجة الهوس، وهكذا ؛ قامت حملة الفلاحين أو الحملة الشعبية خاصة أن هناك شخصية بارزة أثرت فى جموعهم التأثير الأكبر فى صورة بطرس الناسك Peter the Hermit الذى اتصف ببراعة الخطابة والقدرة القادرة على إثارة حماس سامعيه من البسطاء السذج. وكان مظهره يشجع البسطاء على تصديقه من خلال ملابسه الرثة ؛ وامتطائه ظهر حمار أعرج، وقد وصف لهم ـ إدعاءً وكذبًا ـ معاناة المسيحيين الشرقيين وصور الاضطهاد المزعوم الذى تحدث عنه ببراعة فأثار عاطفة سامعيه ورغبتهم المستعرة فى الذهاب إلى الشرق للفتك بمن وصفوهم بالكفار ، وتخليص الأماكن المسيحية المقدسة من أيديهم ، ولا نغفل كذلك ظهور شخصية بارزة فى صورة والتر المفلس ، وتجمعت حشود من آلاف الفلاحين ووصلت بالفعل إلى القسطنطينية عام ١٠٩٦م/ ٤٩٠ هـ ؛ بعد نحو ثمانية أشهر من دعوة البابا أوربان الثانى فى كليرمونت؛ مما يعكس الاستجابة الشعبية للخطاب المذكور ، وقد هاجم بطرس الناسك وأتباعه قرية سملين الهنغارية، وقتلوا الآلاف على نحو أثبت للسندباد أن من وصفوا أنفسهم بأنهم جند المسيح Militia Christi : كانوا جندًا لشهواتهم ، ورغباتهم فى السلب والنهب ، وهكذا كشفت الصليبية عن وجهها السافر منذ البواكير الأولى لميلادها كحركة تاريخية تفتك فى آتونها بالآلاف المؤلفة من بنى البشر الذين اكتووا بها ، وقدمت بذلك دليلاً وضاحًا على التناقض البين بين المثال والواقع .

شاهد السندباد الآلاف من أعضاء الحملة الشعبية ومنهم اللصوص ، والدهماء ، والهربين من أحكام جنائية وغيرهم ، وقد وصلوا إلى القسطنطينية ؛ حيث كان بحكم الإمبراطورية البيزنطية الإمبراطور الكسيوس كومنين Alexius Comnenus (١٠٨١-١١١٨م / ٤٧٥-٥١٢هـ) الذى كان يتوقع من الغرب الأوربى تزويده بفرق من الجند المرتزقة الذين احترفوا القتال لا تلك الآلاف المؤلفة من الفلاحين السذج فكان أشبه شىء بالراعى الذى وضع يديه إلى السماء مبتهلاً من أجل قطرات قليلة من المطر فإذا بسيل جارف يحل بأراضيه !!! مثلما أشار إدوارد جيبون. وأمام قيامهم بالسلب والنهب فى المناطق المجاورة للعاصمة الإمبراطورية، لم يكن هناك مفر أمام الإمبراطور ـ الذى حذرهم من قبل من مغبة الصدام مع السلاجقة دون الإعداد الجيد لذلك ـ من أن يسمح لهم بعبور البسفور إلى آسيا الصغرى. Asia Minor - جسر الجغرافيا والتاريخ بين قارتى آسيا وأوربا- وفى قونية حدثت المواجهة بين الطرفين ، وفيها تم الفتك بالآلاف من عناصر حملة الفلاحين ؛ على نحو هَيَّأَ لتك الحملة

الخسـران المبـين ، وكـان أولئك الآلاف هـم الضـحـايا الأول لذلك المشـروع الذى أعلنه البـابا وسيؤدى إلى الفتك بمئات الآلاف تحقيقًا لأهداف الجالس على كرسى القديس بطرس St. Pe-ter فى روما.

تسـاءل السندباد فى دهشـة مـدهشـة عن ذلك المصـيـر التـعيس لتلك الأعداد الغفيـرة من الرجال ، والنساء، والأطفال ، وكيف أن الهوس الدينى قد يورد أتباعه موارد الهلاك ، وردد فى أعماق نفسه كم من الكوارث ترتكب باسمك أيتـها الروح الصليبية المتعصبة التى تهدم ولا تبنى!!!

مـهمـا يكن من أمـر : أدى إخفاق حملة الفلاحين إلى قيام حملة منظمة فى صـورة حملة الأمراء التى شارك فيها عدد من كبار قيادات الغرب الأوربى مثل جودفرى دى بويون Geod-Frey de Bouillon ، وأخيه بلدوين Baldwin ، وقادا جيش الفلاندرز، واللورين ، وشمال غرب فـرنسـا ، ثم هناك بوهيـمند Bohemond النورمـانى ابن روبرت جـويسكارد Robert Guischard الزعيم النورمانى الذائع الصيت ، ثم هناك ابن اخته تانكرد Tancred ولا نغفل ريموند كـونت تولوز Raymond of Toulouse . كذلك نذكر المندوب البابوى ادهيـمار Ad-himar ثم روبرت النورمـاندى Robert of Normandy ، وبصـفة عـامة : عكس ذلك التكوين الثقل العسكرى ، والسيـاسى لحملة الأمراء المنظمة ، كذلك عكس أهمية الدور الفرنسى فى إشعال نيران الصليبيات منذ اللحظات الأولى لميلادها : لقد كـان البـابا أوربان فـرنسيًا ، وكليرمـونت فرون على أرض فرنسا ، وها هى حملة الأمراء يشارك فيـها كبار أبناء فرنسا ، ومع ذلك ؛ أدرك السندباد منذ تلك الآونة كـيف أن تكوين تلك الحملة احـتوى عوامل ضـعفـها حيث تنافس أولئك الأمراء فيمـا بينهم على السيادة والنفوذ ، ولا ريب فى أى نيران الصليبية أشعلت التنافس فى نفوسهم .

كـان «الإنجـاز» الأول لحـملة الأمـراء إنجـازًا دمـويًا بمعنى الكلمـة : فـقـد تمت مـهـاجـمـة التجـمعـات اليـهودية فى حـوض الراين بألمانيا وهـم الذين عاشـوا منفصلين عن سكان الغرب الأوربى وفضلوا السكنى فى «الجيتـو » أو الأحيـاء اليـهودية ، وكرهـهم الناس نظرًا لمعـامـلاتهم الربوية ، وهكذا ؛ تم الفتك بالمئـات من اليـهود، وبرزت أسمـاء قيادية أوربية كان لهـا نصيب الأسد فى تلك المذابح ، مثل فولكمـار، وجوتشـولك، وأمـيخو . وعقدت الدهشـة لسـان السندباد وأدرك أن تاريخًا دمويًا تكتبه أوربا يعصف ويفتك بكل مـا هو غير مسيحى ، وفطن أن السماء

ملبدة ، وأن نذر الأحداث لا تحمل معها إلا أخبار الجماجم، و«الجيتو» ، والتاريخ الأسود للتعصب البغيض، والمقيت . وفيما بعد ؛ وصلت حملة الأمراء إلى القسطنطينية ، وإتجهت إلى عبور البسفور ، والتعامل مع الأتراك السلاجقة الذين ذهبت ريحهم بعد وفاة ملكشاه عام ١٠٩٢م / ٤٨٥هـ وهكذا ؛ حدث الصدام بين الصليبيين والسلاجقة فى معركة ضورليوم وفيها هزم السلاجقة وانتصر الغزاة عليهم ، ولا شك فى أن تلك المعركة التى جرت وقائعها عام ١٠٩٧م/ ٤٩١هـ أثبتت أنها طليعة الانتصارات الصليبية خلال تلك المرحلة ، وأتت لتمثل الرد الغرب أوربى على كارثة مانزكرت السالفة الذكر عام ١٠٧١م/ ٤٦٤هـ ؛ خاصة أن بين المعركتين نحو ربع قرن فقط من الزمان .

لم تصب الدهشة السندباد لهزيمة السلاجقة فى ضورليوم : لأن دولة تفككت بين قادة عديدين ، وأصابها الضعف ، ولم يدرك أبناؤها ضرورة الوحدة فى مواجهة الأخطار المحدقة بهم ، ثم تناحر بين السنة والشيعة ، وخناجر الحشاشين الشيعة تفتك بكبار القيادات السنية. كل ذلك الضعف الداخلى كان من الطبيعى والمنطقى تمامًا أن يبرز ويسفر بشكل كامل خلال الصدام الحربى فى ضورليوم ليتحول إلى كارثة بالنسبة للسلاجقة ، وانتصار باهر بالنسبة للغزاة الجدد وأعنى بهم الصليبيين.

اتجه الغزاة إلى مدينة أنطاكية : وهى جوهرة شمال الشام ، ومفتاح تلك المنطقة الإستراتيجية ، حاضرة نهر العاصى المزدهرة ، وحاصروها طويلاً ، وحدثت مجاعة مروعة فى صفوفهم آكلوا خلالها الحيوانات وأوراق الأشجار ، وانتشر المرض بينهم . وخلال مرحلة من مراحل الحصار ، حدث أن رجلاً يدعى بطرس بارثلوميو Peter Parthlemy رأى فى منامه موضع الحربة المقدسة، التى يقال أن السيد المسيح عذب بها ، وروى للصليبيين ما شاهده ، وحفر فى الموضع الذى ذكر أن فيه توجد تلك الحربة المزعومة ، وقد أدى العثور عليها إلى إثارة حماس الغزاة للإستيلاء على المدينة من حاكمها السلجوقى ياغى سيان ، وفى نهاية المطاف تمكنوا من الاستيلاء على أنطاكية بالخديعة من خلال خيانة رجل أرمينى يدعى فيروز كان مكلفًا بحراسة أحد أبراج المدينة ، وبالفعل دخلوها ، وأحدثوا بها مذبحة مروعة ، وتأكد لنا أننا أمام قافلة للدماء تسفكه الروح الصليبية بتلذذ غريب على أرض وسط أوربا وكذلك غرب اسيا .

لم يفت السندباد أن يذكر لقرائه أن الصليبيين أثناء حصار أنطاكية من قبل إسقاطها قدمت إليهم سفارة دبلوماسية فاطمية تعرض عليهم عرضًا مثيراً فى صورة اقتسام بلاد

الشـام على اعتبـار أن النصف الشـمـالى لهم ، والجنوبى بما فيـه بيت المقدس للفـاطمـيـين ، وأحسن الصليبيون استقبال تلك السفارة ، ولم يكشفوا حقيقة نواياهم وأنهم ما قدموا إلى المنطقة من أجل قتـال السـلاجـقـة ، دون الفـاطمـيـين، بل أنهم أرادوا تكوين أشـبـه شىء « بإمبراطورية» مسيحية فى الشرق على حساب السلاجقة ؛ والفاطميين معًا . وأثبت الفواطم بتلك السفارة أنهم عجزوا ـ خلال تلك المرحلة المبكرة ـ عن فهم طبيعة العدو الدخيل الغازى للمنطقة الذى يريد بناء كيانه على حساب كافة القوى السياسية فى المنطقة .

شاهد السندباد الغزاة بعد الانتصار فى أنطاكية يتجهون إلى مناطق أخرى ويستولون عليها بعد أن يعملوا فى أهلها السيف محدثين مذبحة تلو أخرى، كما فى معرة النعمان، وهادنتهم بعض المناطق اتقاءً لشرهم كما فى شيزر ، وقد سلكوا الطريق السهلى الداخلى فى بلاد الشام ، وتجنبوا الساحل خوفًا من التدخل الفاطمى، كذلك كان هناك الدعم المسيحى المحلى فى صورة الموارنة فى لبنان، الذين قدموا للغزاة كل معاونة فى صورة المرشدين ، والأدلاء، والمؤن، والإمدادات.

فى ختام المطاف : كان لبيت المقدس مع الصليبيين موعد موعود ووعيد مشهود ؛ إذ وصل إليها الغزاة، وكانت قد خضعت لسيطرة الفواطم عام ١٠٩٨ م / ٤٩٢ هـ بعد انتزاعها من السلاجقة وحكمها عندئذ قائد يدعى افتخار الدولة ، وقد عمل على تحصينها وقام الغزاة بمحاصرتها ، واستمر حصارها شهرًا أظهر خلاله الطرفان ألونًا من المقاومة العنيفة ، وأخيرًا: سقطت مدينة السلام فى أيدى أعداء السلام فى وقت الظهر من يوم الجمعة يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ ، فكان يومًا مشهودًا كشر فيه التعصب عن أنيابه ، وكتبت فيه الدماء تاريخًا لا ينسى ، وكانت وقائعه من التأثير بحيث تناقلتها الألسن جيلاً بعد آخر ، إذ قاموا بالفتك بعشرات الآلاف من المسلمين ، رجالاً ، ونساءً ، وأطفالاً ، وبقروا بطون النساء بحثًا عن القطع الذهبية التى تصوروا أنهن ابتعلنها قبل الفتك بهن !. وسمع السندباد عبارة لأحد شهود العيان حيث أورد أن جماجم القتلى لو جمعت لأقامت أسوارًا تفوق أرتفاع أسوار بيت المقدس. كذلك فإن الخيول كانت تخوض فى برك من الدماء حتى ركبها نظرًا لغزارتها!!!

استمرت المذبحة البشعة عشرة أيام من ١٥ إلى ٢٥ يوليو : وكان لدى الغزاة قدرة عجيبة على تدمير كل شىء جميل فيها ، وأحالوها إلى مدينة أشباح ملوثة بالدماء وتناثرت جثث القتلى هنا، وهناك .

ولم يملك السندباد نفسه ، فأجهش بالبكاء على مصير مدينة السلام التى صـرت مدينة الدماء!!! بفعل من توهموا يومًا أنهم جند المسيح وهو منهم برئ !!! وشعر أن اليبوسيين وهم العرب الذين أسسوها فى الألف الثانية قبل الميلاد يشاركونه البكاء ، وكذلك الخليفة عمر بن الخطاب الذى قدم إليها بعد تحريرها من الاستعمار البيزنطى، وقد شعر السندباد أن ذلك العدو الصليبى الغاصب افتتح عهده بالمذابح التى وصلت ذروتها فى بيت المقدس وأن الدم لا ولن ينام. ولم يتمالك نفسه إلا من خلال القول أن غدًا لناظره قريب لعل الله يكتب لمدينة السلام آن تحرر من غاصبيها' فكم قوة غازية قدمت إليها وظلت بيت المقدس شامخة آبية، ولا ريب فى آن التاريخ له معها موعد إذا أنها بوابة من بوابات الخلود قديمًا ، ووسيطًا ، وحديثًا ، ولكن كيف سارت الأمور بالغزاة والضحية ، بالصليبيين والمناطق التى دخلوها محتلين فى بلاد الشام؟ هذا ما ستكشف عنه بعد قليل صفحات هذا الكتاب .

مهما يكن من أمر : لم يكن السندباد ليقصر نظره صوب بيت المقدس فحسب ، بل آنه اتجه إلى الرها الواقعة شمال شرق بلاد الشام ، فيما بينها وبين العراق فوجد بلدوين شقيق جودفرى دى بويون يؤسس فيها إمارة صليبية ، كذلك تكونت إمارة أخرى فى أنطاكية ، وفيما بعد تم تأسيس إمارة ثالثة فى طرابلس بشمال لبنان ، وهكذا ؛ وجد السندباد أن الغزاة زرعوا كياناتهم الدخيلة فى بلاد الشام والجزيرة الفراتية وذلك خلال سنوات قليلة . وبذلك شاركت بيت المقدس ، الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس فى ذات المصير، وصارت كافة تلك المدن بمثابة مراكز لحركة الاستعمار أو الاستخراب الأوربى فى العصور الوسطى ونعنى بها الحروب الصليبية.

آدرك السندباد أن بيت المقدس احتلت المكانة العليا لدى الصليبيين وقد تولى حكمها جودفرى دى بويون مدة عام ١٠٩٩ ــ ١١٠٠م / ٤٩٤ ــ ٤٩٥ هـ ، ثم من بعده بلدوين الأول (١١٠٠ ــ ١١١٨م / ٥٩٥ ــ ٥١٢ هـ) الذى يعد المؤسس الحقيقى لملكة بيت المقدس الصليبية : وهى ــ على نحو مؤكد ــ الأعوام الأخطر فى تاريخ الصليبيين فى بلاد الشام، إذ احتاج المسلمون إلى نحو قرنين من الزمان من آجل القضاء على آثار الإنجازات التى تمت خلال عقدين فقط من تاريخ الغزاة فى المنطقة.

إن ذلك الوضع يدعو إلى التقرير بأن الصليبيين كانوا على إدراك تام «للعبة الزمن» خلال تلك الفترة المبكرة، فحققوا إنجازات بالغة القيمة، والسرعة فى آن واحد ، فى وقت كانت فيه

القيادات السياسية الإسلامية أبعد ما تكون عن إدراك أهمية ذلك العنصر، وكان الغزاة على إدراك بأن تلك «فرصة تاريخية نادرة» عليهم اهتبالها فى ذلك الحين على نحو خاص ، وبالفعل نجحوا فى ذلك وبدون الخوض فى تحليل عوامل نجاحهم فمن المتصور أنهم تمكنوا من تحقيق ذلك بفضل حسن التخطيط والتنظيم وقوة الإرادة بالإضافة إلى انقسام المسلمين الذى توج إمكانيات الغزاة ، وأوصلها إلى بوابة النجاح .

وقد يتبرم البعض من العبارات السابقة ، لكن من الموضوعية التاريخية التقرير بأن الصليبيين عندما قدموا إلى المنطقة فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى امتلكوا صفات مكنتهم من النجاح ـ بغض النظر عن تقيمنا لمشروعهم ودمويته وتعصبه ـ ويكفى أن من المسلمين المعاصرين من أدرك كوامن «القوة» لدى الطرف الآخر المعادى ، من ذلك أن أسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار أقر صراحة بأن لا ميزة للفرنج (أى الصليبيين) سوى الفروسية فكأنهم خلقوا لها ، وأن منزلة الفارس لديهم رفيعة الشأن ، عالية القيمة.

على أية حال : زرع الكيان الصليبى على أرض المنطقة العربية ، أما موقف المسلمين بعد أن نجح الغزاة فى تحقيق أهدافهم ، فلذلك حديث آخر من السندباد عاشق ذلك العصر.

ـ ٣ ـ

نظر السندباد صوب أوضاع المسلمين فى بلاد الشام فى أعقاب نجاح الصليبيين فى تأسيس كياناتهم فى المنطقة ، فوجد أن زلزالاً حل بهم! إذ زرع كيان أجنبى فى المناطق السالفة الذكر يختلف تمامًا عن مناطق المسلمين دينيًا ، ولغويًا ، وسياسيًا ، واجتماعيًا ، واقتصاديًا ، وأدركوا أن الصليبيين قدموا من أجل السيطرة على موارد المنطقة الاقتصادية خاصة على المستوى التجارى ، وحيث أن بلاد الشام والجزيرة مَرَّت فيها بعض أهم خطوط التجارة العالمية بين قارتى آسيا ، وأوروبا فى العصور الوسطى ، لذا كانت لها أهمية خاصة، كذلك أراد الغزاة السيطرة على الأرض والمياه بأى ثمن وطرد سكانها الأصليين منها . بل وعملوا على تثبيت أقدامهم من خلال تشييد القلاع ، والحصون التى من شأنها تدعيم وجودهم الدخيل، واحتلالهم للمنطقة على حساب أبنائها الذين سكنوها منذ آلاف السنين .

أدى الغزو الصليبى إلى الفتك بالآلاف ، وتشريد الكثيرين الذين فروا بأرواحهم رجالاً ونساءً ، وأطفالاً إلى المدن التى لم تنكب بالغزو الصليبى مثل دمشق ، وحلب ، وحماه ، وحمص، والقاهرة، والموصل ، وحكى الفارون ما شاهدوه من جرائم ارتكبها الصليبيون، وردد الناس فى كل مكان ما شاهدوه أو سمعوه ، وأدرك الجميع ' أنهم أمام مأساة كاملة المعالم، فللمرة الأولى يتعرض الإسلام ، وأهله للاحتلال الأجنبى فى مناطق التقليدية التى استقر وعاش فيها عدة قرون . لقد ازدحمت المدن الإسلامية التى كانت بمنأى عن الغزو الصليبى ـ ازدحمت بجموع اللاجئين والفارين ، وصار الحديث عن المذابح التى ارتكبت بمثابة قضية يومية يتبادل الناس تناولها ، ومن المؤكد أن تلك الأخبار والأنباء المأساوية طافت كافة المناطق بسرعة أشبه بالبرق ، ولف الألم ، والحزن بقاع عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه ، وهكذا: كانت الذاكرة الجماعية تتحدى الصليبيات بعدوانيتها .

بحث السندباد عن الشعر العربى ديوان العرب الذى كان دومًا مرآة لأمته أفراحًا وأحزانًا، فوجد شاعرًا عراقيًا يدعى الأبيوردى ينظم قصيدة تقطر دمًا ، وحزنًا ، وألمًا يستنفر فيها الهمم

من آجل مواجهة كارثة احتلال الصليبيين لمناطق المسلمين ، وقرآ منها الأبيات التالية :

فـــأيهــــا بنـى الإســـــلام إن وراءكم

وقـــائع يلحـــقن الذرى بالمناسم

تهــــويمـــــة فـى ظل آمن وغـــبطة

وعـــيش كنوار الخـــمـــيلة ناعم

وكـــيف تنام العـــين ملء جـفـــونهـــا

على هـفـــــوات أيقظت كل نائم

وإخـــوانكم بالشـــام أضـــحى مـــقـــيلهم

ظهـور المذاكى أو بطون القشـاعم

أيرضـى صـناديد الأعـــــاريب بالأذى

وتغـضى على ذل كـمـاة الأعـاجم

وتناقلت الألسن تلك «الاستغاثة» الشعرية فى كافة البقـاع ، وحفزت الهمم بصورة غير مسبوقة ، وجعلت العروق تغلى بدماء الجهاد للثأر لأرواح الشهداء الذين كانت ذكراهم تثير الحماس فى النفوس، من أجل قتال الغزاة وطردهم من المنطقة .

يمم السندباد وجهه صوب مناطق الصليبيين ، فوجد ملكًا من طراز خاص فى صورة بلدوين الأول (١١٠٠ ـ ١١١٨م/ ٤٩٣ـ٥١٢هـ) عمل على تكوين مملكة للصليبيين فى أسرع وقت ممكن ، وسعى إلى آن فرض السيادة الصليبية على الساحل الشامى ، واعتمد فى كل ذلك على الدعم البحرى القادم من المدن الإيطالية لاسيما جنوة وبيزا ، والبندقية التى هدفت من وراء تقديمها الدعم الحربى للصليبيين الحصول على الامتيازات التجارية البالغة الأهمية والحيوية بالنسبة لها ، وهكذا : شارك الإيطاليون فى أكبر مشروع لنهب الشرق عرفته العصور الوسطى فى صورة مشروع الصليبيات ، وغنموا من ورائه المغانم الطائلة.

واتجه ذلك الملك من خلال سياسته لفتح الساحل الشامى إلى دعم اتصاله بالغرب الأوربى، وهو اتصال كان من شأنه تقديم الدعم المادى ، والمعنوى للكيان الصليبى الدخيل الموجود فى

بلاد الشام ، والجزيرة ، وقد عدت مسألة فتح الساحل الشامى ، وإخضاعه لسيطرة الصليبيين بمثابة قضية حياة أو موت بالنسبة لهم ، كذلك عمل على تثبيت أقدام ذلك الكيان من خلال إقامة عدة قلاع مثل قلعة الشوبك جنوبى البحر الميت ، وجزيرة فرعون ؛ عند رأس خليج العقبة، وقلعة اسكدرونة فى مواجهة مدينة صور اللبنانية.

من زاوية أخرى ؛ رأى السندباد ذلك الملك الصليبى يقوم بحملة على مصر ذات طابع استكشافى وذلك عام ١١١٨م / ٥١٢ هـ ومات فى أعقابها ، وقد أكدت تلك الحملة أن مطامع الغزاة لم تكن بيت المقدس كما زعم البابا أوربان الثانى فى خطابه التاريخى السالف الذكر، بل أنهم أرادوا ضم أكبر قدر من بقاع الشرق لسرقته أرضًا وشعوبًا وتاريخًا لصالح بلادهم فى الغرب الأوربى ، وكل ذلك تحت ستار الدين !!!

تساءل السندباد كيف استطاع ذلك الملك الصليبى أن يقيم مملكة مترامية الأطراف على حساب المسلمين ، وأخضع العديد من مدن الساحل ، وأقام القلاع، والحصون على الأرض العربية خلال مرحلة زمنية قصيرة ، وتمثلت الإجابة فى كفاءة الشخصية كفارس محارب ، والدعم البحرى الإيطالى خاصة ، والغرب أوربى عامة ، والمنازعات السياسية بين القيادات الإسلامية التى فضل بعضها مصلحته الشخصية ، ومطامعه السلطوية على مصالح المسلمين العليا.

لكن ماذا عن حياة الصليبين فى الشرق ؟ رأى السندباد كياناتهم فأدرك أنها كيانات أوربية مسيحية ذات طابع فرنسى فى الغالب مع وجود الأحياء التى سكن فيها الجنوية والبنادقة ، وكيانات ألمانية ، وإنجليزية، وقد عاشوا وفق ما كانوا يعيشون من قبل فى بلادهم على الأرض الأوربية ، فكانت سلوكياتهم ، وعاداتهم مختلفة عن سكان بلاد الشام الأصليين لاسيما من المسلمين ، غير أنه بمرور الأعوام بدأ تأثرهم بحياة المسلمين ، ولقد حدثت تطورات حولت الصليبيين إلى أن يتمشرقوا، وتذكر السندباد مقولة المؤرخ الصليبى فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres، إذ قال : « ... وعندما كنت أصلى للرب جال بخاطرى ، وفكرت مليًا فى كيف أن الرب فى أيامنا هذه حول الغرب إلى شرق ، فالذين كانوا بالأمس من الغربيين، صاروا الآن شرقيين، ومن كان من البيزنطيين أو من الفرنج أصبح الآن من الجليل أو من سكان فلسطين ، والذين كانوا من مواطنى وأبناء ريمس أو شارتر صاروا الآن مواطنين من مواطنى صور أو أنطاكية ، لقد نسينا الأوطان التى ولدنا فيها ، وأصبحنا الآن نجهل أوطاننا

أو على الأقل لم نعد نذكرها .. والذين كانوا أجانب أصبحوا الآن وطنيين، والذى كان يقيم فى هذه المناطق بصورة مؤقتة أصبح الآن يقيم بصورة دائمة ، ومن حين لآخر ، يأتى أقاربنا للحاق بنا ، ويتركون كافة أملاكهم فى أوربا ، ولهذا ؛ فإنك ترى أن هذا الذى يجرى يعد بمثابة معجزة كبيرة» . وتمثل هذه العبارة شهادة صليبية بالغة الدلالة على مدى التحول الذى حل بالغزاه بمقدمهم إلى الشرق.

على أية حال : تأثر الصليبيون بالمسلمين فى عدة جوانب حياتية منها أمر الاستحمام، وكذلك فى أنواع الطهى إلى الدرجة التى جعلت بعضهم لا يأكل لحم الخنزير ، ويحضر طباخات مصريات ماهرات من أجل إعداد أنواع الطعام الشهية التى تروق له.

وشاهد السندباد قوافل المسلمين المحملة بكافة أنواع السلع والمنتجات وفى ركابها التجار إلى مناطق الصليبيين ، وذات الأمر بالنسبة لقوافل الأخيرين المتجهة صوب مناطق المسلمين ، وحدث ذلك فى عصر عرف بعصر «الثورة التجارية» Commercial Revolution بالإضافة إلى التوصل إلى البوصلة التى سهلت الاتصال التجارى ، ناهيك عن تزايد التعامل النقدى وتزايد التعامل النقدى بصورة غير مسبوقة ، وحدوث صفقات تجارية بعشرات الآلاف من الدنانير، والبيزنت ، والدوكات ، وكل ذلك من خلال سلع إستراتيجية بالغة القيمة والأهمية ومنها ما كان يعبر القارات مثل الرقيق، والذهب ، والحرير ، والتوابل ، وغنم المسلمون مغانم وفيرة من عوائد المتاجرة مع الصليبيين ، وذات الأمر تكرر لدى الأخيرين الذين استفادوا من جراء المتاجرة مع المسلمين ، ومع التجارة انتقلت الأفكار ، والعقائد ، والعادات ، والتقاليد ، وحيث أن المسلمين كانوا أرقى حضارة من أعدائهم لذلك سهل انتقال تأثيرهم إليهم .

لاحظ السندباد : أن حدة عداء الصليبيين تجاه المسلمين ضعفت مع تعاقب الأعوام ، والعقود ، وقد أدرك ذلك الأديب والفارس الشيزرى أسامة بن منقذ عندما قرر أن أشد الفرنج عداء للمسلمين الحديث عهد بالبلاد ، ناهيك عن مقدم عناصر البولانى ؛ وهم الذين أسماهم العلامة أ.د. سعيد عاشور « بالأفراخ » وقد نتجوا عن تزواج الغزاة الصليبيين من المسيحيين الشرقيين، وهؤلاء بهرهم الشرق بسحره وإيقاع حياته ، ووجدت صلات وثيقة بينهم وبين المسلمين ، وفيما بعد اشتكى مؤرخو الصليبيين بسبب أن عناصر البولانى ليست لديها الرغبة للقتال بصفة عامة ، وأن منهم المخنث وكذلك العابث اللاهى ، بل حملوهم مسئولية انهيار الوجود الصليبى بأسره .

ومع ذلك ؛ لم يكن السندباد ليخدع ويتصور أن الغزو الصليبى حَسَّن من أوضاع المسلمين الذين خضعوا له : إذ حول الفلاحين إلى رقيق ، وظل المسلمون يتذكرون مذابح الصليبيين فى بداية مقدمهم إلى المنطقة ، بل وجدت مقاومة شعبية مسلحة ضدهم لاسيما فى المناطق الجبلية مثل الطريق بين يافا وبيت المقدس حيث كمن المسلمون للصليبيين، وفتكوا بهم، وكذلك فى نابلس فى الضفة الغربية ، لقد أدرك المسلمون أن ما سلبه الصليبيون لن يعود إلا بالقوة ؛ ولذلك قاوموهم وظل الكيان الصليبى لا يملك مشروعية وجوده ولم يعترف به جيرانه حتى آخر لحظة من تاريخه فى المنطقة ، وبمعنى آخر ، نجح الصليبيون فى زرع كياناتهم الدخيلة على حساب المسلمين غير أنهم عجزوا عن أى يضمنوا لها البقاء والاستمرار دون أن يدفعوا الثمن من أرواحهم وممتلكاتهم .

أقام الصليبيون العديد من القلاع والحصون التى تناثرت من أنطاكية فى الشمال حتى أم الرشرش (إيلات) جنوبًا ، ومن الرها شرقًا إلى ساحل البحر المتوسط غربًا ، وشيدت تلك القلاع على نحو بالغ الحصانة ، واحتوت على حاميات قدرت أحيانًا بآلفى رجل مبالغة، وتم تزويدها بالمؤن ، والإمدادات من أجل مواجهة صُوَر الحصار الطويل الأمد . ومن أمثلة تلك القلاع حصن الأكراد ، والمرقب ، بغراس ، دربساك ، حجر شغلن ، الداروم ، شقيف أرنون، تل الصافية، بيت جبرين ، نمرود، غزة ، الكرك ، الشوبك ، هونين ، تبنين ، مرقبه ، وغيرها كثير ، وبصفة عامة ؛ توصف مملكة بيت المقدس الصليبية بأنها مملكة القلاع ، ويلاحظ أن تاريخ الصليبيين فى بلاد الشام على نحو خاص استمر طالما استمرت تلك القلاع قائمة على الأرض العربية ، ومن المهم إدراك كثرة تلك القلاع التى يقال إنها تجاوزت المائة على المساحة الجغرافية الصغيرة التى استقر بها الصليبيون فى بلاد الشام .

وقامت تلك القلاع بأدوار بالغة الأهمية بالنسبة للغزاة : فهى مراكز لشن الهجمات العسكرية على مناطق المسلمين ، وهى كذلك مراكز للدفاع عن المناطق المُحتلة والخاضعة للسيادة السياسية الصليبية ، ثم أن تلك القلاع استخدمت لإدارة الإقطاعات التى تناثرت هنا، وهناك، ومن خلال تلك العمائر الحربية أمكن للصليبيين السيطرة على خطوط التجارة الدولية المارة ببلاد الشام فى مناطقهم وكذلك حماية طرق الحجاج الأوربيين إلى الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين، ويلاحظ أن القلاع الصليبية اتصلت معًا بخطوط دفاعية أدت فى النهاية إلى قيامها بأدوارها المحددة لها من جانب القيادة السياسية وقد تناثرت بين الإمارات الصليبية فى الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس بالإضافة إلى القلب الروحى ، والسياسى للمملكة

فى صـورة بيت المقـدس ، كـذلك أمكن تنظيم الاتصـال بينهـا من خـلال الحـمـام الزاجل ، والإشارات الضوئية .

عرف السندباد ؛ أن تشييد الصليبيين لتلك القلاع كان يهدف ـ فيما يهدف ـ إلى تغيير الواقع الجغرافى لبلاد الشام ، وإشعار المسلمين بمهانة الاحتلال الأجنبى ، وأن قوة عسكرية جديدة غاصبة قدمت ، واحتلت ، وغيرت طبيعة الأرض ـ وهى أساس الصراع على المستويات السياسية والحربية والاقتصادية ـ وهو أمر يمكن إدراكه من خلال نصوص الرحالة المسلمين فى ذلك العصر عندما كانوا يمرون بتلك القلاع التى عكست سطوة المحتل الغاشم فكان الحزن رفيقهم ، والمرارة مرشدتهم ، والكآبة متسيدة نصوص رحلاتهم عندما وصفوا تلك العمائر الحربية الصليبية .

أدرك السندباد خطورة الغزوة الصليبية الشرسة التى تعرضت لها بلاد الشام من حيث دورها فى استعمار المنطقة ، ود السندباد توجيه النظر إلى أن الاستعمار هنا ـ بمعناه الاستخراب أى السلب ، والنهب المنظم ، والذى تحالفت على تنفيذه كافة القوى الأوربية لثروات تلك البلاد ، وذلك على حساب سكان البلاد الأصليين سواء من المسلمين ـ وهم الغالبية ـ ومعهم عناصر المسيحيين المحليين.

فلأول مرة فى تاريخ تلك المنطقة : تتعرض للاحتلال الأجنبى والاستقرار الأوربى على الأرض العربية وسلب لقمة العيش من أفواه أبناء المنطقة ، وكل ذلك من خلال ارتباط الكيان الصليبى يتحالف دفاعى إستراتيجى لا تنفصم عراه مع قوى الغرب الأوربى السياسية التى تنافست معًا من أجل دعمه تحقيقًا لأهداف ومصالح متبادلة ، ومن خلال تلك العلاقة الوطيدة صار كل بمثابة العمق الاستراتيجى للآخر بصورة لم تعهدها بلاد الشام .

وعلى الرغم من استفحال الخطر وتكالبه بصورة غير مسبوقة فى تاريخ المنطقة، إلا أن الكيان الصليبى الذى زرع فى المنطقة عنوة وقهراً ، كان يحمل عوامل إنهيار الداخلية والخارجية، ولذلك فمهما طال عمره لن يكتب له الاستمرار خاصة أن بلاد الشام ـ وكذلك شقيقتها الجغرافية والتاريخية مصر أرض الكنانة ـ امتلكت خاصية الامتصاص والفلترة، واللفظ ، يأتى إليها الغزاة ، ويظلون بها الأعوام والعقود تلو الأخرى ، ثم يطردون ويعودون من حيث أتوا ، وتلك صيرورة التاريخ التى ما حاد عنها يومًا قديمًا ، ووسيطًا ، وحديثًا .

على آية حال : فى الصفحات التالية يفصّل السندباد الحديث عن الجهاد ضد الغزاة وأوجه النجاح التى حققها المسلمون إلى أن تم تطهير أرضهم من آخر جنود الصليبيين.

ـ ٤ ـ

من حسن حظ المسلمين : أنهم اعتنقوا دينًا سماويًا خاتمًا احتوى على نظرية متكاملة للجهاد ، وعندما حل الصليبيون بالمنطقة لم يكن أمام المسلمين إلا التمسك بدينهم من أجل مواجهة خطر أعداهم الذى حل بهم ، خاصة أن من بين أهداف الغزوة الصليبية تحويل المسلمين عن دينهم وجعلهم يعتنقون المسيحية الكاثوليكية حتى يصبحوا من رعايا كنيسة روما التى خططت وهندست أصلاً للمشروع الصليبى ، ومعنى ذلك : أن المسلمين أدركوا أن الغزاة استهدفوا ـ فيما استهدفوا ـ هويتهم الدينية ، وضرب دينهم فى عقر داره ، ولذلك لم يكن من الممكن مواجهة ذلك الخطر إلا بالالتفاف حول الإسلام ونظريته المتكاملة فى الجهاد ، ويلاحظ أن كافة العناصر التركية، والكردية، والعربية انصهرت في بوتقة واحدة فى صورة الجهاد .

ومن الأمور الملفتة للانتباه : أن الموصل ـ حاضرة شمال العراق المزدهرة ـ قامت بدورها التاريخى البارز من أجل مواجهة الصليبيين خاصة من خلال إدراكنا لأهمية الخط الدفاعى الاستراتيجى الذى وصل بين الموصل وحلب ، وتولى أمر ذلك الأتابكة الذين حكموها فى ظل تفكك الدولة السلجوقية ، وفى هذا المجال : لاحظ السندباد أدوارًا بارزة لعدد منهم مثل كربوغا (١٠٩٥ ـ ١١٠٠م / ٤٨٩ ـ ٤٩٥هـ) ، وجكرمش (١١٠٠ ـ ١١٠٦م/ ٤٩٥ ـ ٥٠٠هـ)، وبذل الأول جهده من أجل مقاومة الصليبيين ، والثانى تمكن من قيادة المسلمين لتحقيق انتصار بارز عليهم فى صورة معركة حَرَّان عام ١١٠٤م / ٤٩٨ هـ ، وكان لتلك المعركة أهمية كبيرة من حيث أنها أثبتت للمسلمين إمكانية هزيمة أعدائهم : إذا صدقت العزيمة ، وحسنت النيات، واتحدت كلمتهم ، وبصفة عامة : أدت معركة حَرَّان إلى وقف زحف الغزاة نحو الشرق وإتمام سيطرتهم على إقليم الجزيرة على نحو عكس أهميتها . وثالث أولئك الأتابكه جاولى سقاوة (١١٠٦ ـ ١١٠٨ م / ٥٠٠ ـ ٥٠٢هـ) غير أنه لم يتمكن من تحقيق نتائج عسكرية كبيرة كتلك التى حققها جكرمش من قبل.

... من بعد ذلك ؛ أثبتت أتابكية الموصل أن لديها المزيد من أبطال حركة الجهاد الإسلامى ، وتمثل ذلك فى شرف الدين مودود (١١٠٨ ـ ١١١٣م / ٥٠٢ ـ ٥٠٧ هـ) ولا يستطيع السندباد أن يفى ذلك القائد الفذ حقه من التقدير غير أنه من المقرر إخلاصه لفكرة الجهاد ضد الصليبيين ؛ فكان رمزًا ونموذجًا يحتذى به ، وأهم أعماله اتجاهه إلى حصار الرها غير أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، ويلاحظ أنه قام بثلاث حملات ضد الصليبيين كانت أهمها الحملة التى قام بها عام ١١١٣م / ٥٠٧ هـ ، وفيها نجح فى هزيمة الملك الصليبى بلدوين الأول فى معركة الأقحوانة ، وتعاون مع مودود فيها ظهير الدين طغتكين الذى كان أتابكًا على دمشق . ومع ذلك : تعرض مودود للأغتيال على أيدى الحشاشين أو الإسماعيلية النزارية الذين فتكوا به فى المسجد الأموى بدمشق ، وقد كان صائمًا عندما نالته الطعنات الغادرة وطلب أتباعه منه أن يفطر فرفض قائلاً : « لا ألقى ربى إلا وأنا صائم » [١].

وعلى الرغم من اغتياله ، وعجزه عن إسقاط إمارة صليبية إلا أن دوره التاريخى أثبت لنا أن البيت الإسلامى يعانى من الانقسام الداخلى ، وأن دور الإسماعيلية النزارية المشبوه يعوق تحقيق الأهداف العليا للمسلمين ضد الغزاة الذين أفادوا كثيرًا من الأنقسام المذهبى الذى كان عليه بنو الإسلام . ومن زاوية أخرى ؛ جاءت حملات مودود لتكون بمثابة مقدمه لأدوار تاريخية تالية فى جعبة حركة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر والتى ما عقمت يومًا .

- غير أن أهم نتائج دور شرف الدين مودود التاريخى أنه بعد اغتياله عاش رمزًا لحركة الجهاد الإسلامى فى عصرالصليبيات تذكرته الجماهير ، وعاش فى قلوبها ، وكتب المؤرخون عنه الصفحات تلو الصفحات على نحو يثبت أن خناجر الحشاشين قتلته ليعيش ، وليدخل دائرة الخلود بإذن الله تبارك وتعالى.

تساءل السندباد هل توقفت أتابكية الموصل عن العطاء بعد استشهاد مودود ؟ وكانت الإجابة بالنفى ؛ إذ برز فارس من طراز فريد فى صورة عماد الدين زنكى الذى تمتع بخبرة عسكرية بارزة ودهاء سياسى من طراز خاص ، ووضع نصب عينيه إسقاط إمارة الرها الصليبية التى وقعت بين الموصل حاضرة شمال العراق، وحلب حاضرة شمال الشام. وكان يحكم الرها حينذاك جوسلين الثانى الشاب العابث الذى جعل من الفساد رفيقًا ، والانحلال صديقًا ، وطالما شهدت تل باشر ـ وهى إحدى مدن إمارة الرها – سهراته الماجنة ، ولم يكن جديرًا بتولى أمر الرها ، ولم تكن له نفس صنفات والده القوى جو سلين الأول من قبل ، وقد

اتجه عماد الدين زنكى إلى عقد الهدن مع تلك الإمارة الصليبية من أجل إيهام الصليبيين بعدم رغبته فى محاربتهم ، وكذلك حتى يبنى قواته على الوجه الأكمل. وفى عام ١١٤٤م/٥٣٩هـ. حاصرها فجأة في وقت كان فارسها العابث جوسلين الثانى غائبًا عنها، وتمكن من إسقاطها بعد حصار دام قرابة الشهر ، ودخل عماد الدين زنكى التاريخ من أوسع أبوابه ؛ باعتباره الفارس الذى قاد المسلمين نحو إسقاط أولى الإمارات الصليبية التى زرعها الغزاة فى الشرق.

شعر السندباد أكثر من أى وقت مضى وبعد قرابة نصف قرن من مقدم الغزاة إلى المنطقة، أن الخطوة الأولى فى رحلة الألف ميل بدآت . وأن المسلمين عرفوا كيف يحدثون زلزالاً فى جسد الكيان الصليبى ، فاليوم الرها ، وغدًا ـ بكل تأكيد ـ بيت المقدس . فلقد أحدث إسقاط الرها نتائج عديدة منها أن المسلمين اتضح لهم أنه لا يوجد هناك أمر مستحيل أمام توفيق الله تعالى وإرادة الشعوب إذا ما عشقت الحرية ، وتطلعت إلى طرد الغزاة من ديارها ، كذلك أثبت إسقاطها عجز الصليبيين عن الحفاظ على أملاكهم التى زرعوها فى المنطقة، وصار الوجود الصليبى وجودًا شاميًا صرفًا لايمتد إلى الشرق فى الجزيرة الفراتية وصار الضغط الإسلامى من الآن فصاعدًا صوب الأملاك الصليبية فى بلاد الشام فى صورة إمارتى أنطاكية، وطرابلس، ومملكة بيت المقدس، وبصفة عامة : تيقن السندباد أن إسقاط تلك الإمارة كان وراءه عوامل داخلية وخارجية تعاونت واشتركت فى منظومة واحدة أدت فى النهاية إلى تلك النتيجة الباهرة، لقد سقطت الرها من الداخل بضعفها وضعف جوسلين الثانى وصراعها مع إمارة النطاكية الصليبية قبل أن تسقط من الخارج على أيدى المسلمين بقيادة عماد الدين زنكى.

لم يكد السندباد يفرح بذلك الانتصار المتألق إلا ووجد ذلك الفارس توجه له طعنات غادرة على أيدى أحد أتباعه فى صورة يرنقش الذى دخل التاريخ من أبوابه الخلفية ، وهكذا شارك زنكى مودودا ذات المصير المأساوى ، غير أنه مهلاً ! فإن الطعنات التى وجهت إليهما حولتهما
ة الجهاد التى ستتواصل إلى أن يتم طرد الغزاة تمامًا من المنطقة.

ن بعد رحيل عماد الدين زنكى ابنه الفذ نور الدين محمود ، رآه
داث ويمتلك رؤية إستراتيجية فذة جعلته وبحق مهندس حركة الجهاد
لثانى من القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى . وقد
م اتجه إلى السيطرة على دمشق، وتمكن من تحقيق ذلك الإنجاز

التاريخى الكبير عام ١١٥٤ م / ٥٤٩ هـ. وبذلك اتحدت حلب ودمشق تحت راية سيد واحد يعرف طريقه جيداً لمواجهة التحديات الكبرى التى تعصف بالمنطقة بعد رحيل زنكى. ويلاحظ أن نور الدين تمكن بذلك من إخضاع الموصل، وحلب، ودمشق لسيطرته وصارت تدين بالولاء له ، وهذه المدن الثلاث ـ ثم تضاف إليها القاهرة فيما بعد لعبت دوراً بارزاً فى مواجهة الصليبيين بحكم ثرائها المالى والسكانى.

دخل نور الدين محمود فى صراع مرير مع إمارة أنطاكية الصليبية فى صورة معارك يغرى عام ١١٤٨م / ٥٤٣ هـ ، وانب عام ١١٤٩م/ ٥٤٤ هـ ، وكذلك ١١٦٣م/ ٥٥٩هـ وانتصر فيها. ولم يستطع تحقيق انتصار حاسم فى صورة إسقاط إمارة صليبية غير أنه اتبع أسلوب الإنهاك الاقتصادى والعسكرى وصولاً إلى مرحلة توازن القوى مع أعدائه ، كذلك لا نغفل أن الإمبراطورية البيزنطية وقفت ضد طموحاته فى إمارة أنطاكية ، ولم يشأ إثارة الصراع معها وحرص على حيادها ـ قدر المستطاع ـ ليتفرغ لمواجهة العدو الصليبى.

تنبه السندباد إلى أنه خلال عامى ١١٤٧ ، ١١٤٩م/ ٥٤٢ ، ٥٤٤ هـ ، حدثت حملة صليبية شارك فيها الإمبراطور الألمانى كونراد الثالث Conrad III، والملك الفرنسى لويس السابع Louis VII، وذلك من أجل استعادة إمارة الرها التى اسقطها عماد الدين زكى من قبل عام ١١٤٤م/ ٥٣٩هـ ، غير أنها من خلال تعدد مطامع الصليبيين لم يتجهوا إلى الرها، بل إلى دمشق من أجل إسقاطها فى أيديهم ؛ وهى التى كانت فى حالة هدنة معهم على نحو أثبتت بجلاء صورة الصليبيين وهم لا يحترمون تعهداتهم ، وأن مطامعهم لا تحد، وأن فكرة التحالف معهم ، ومهادنتهم محفوفة بالمخاطر ، وحكمت دمشق حينذاك الأسرة البورية ، وعلى رأسها معين الدين انر ، وقاوم الدماشقة الغزاة مقاومة باسلة ، وترددت أخبار عن اشتراك فقهاء وصوفية فى أمرء جهاد الغزاة فى صورة الشيخين الغندلاوى، والحلحولى ، وقد استشهدا فى العمليات الحربية التى جرت هناك وفيما بعد تم دفنهما وصار قبرهما مزارين يتجه إليهما عامة الناس، ويتبركون بهما، وتحولا إلى ما يشبه الرمز الدينى لدى قطاع شعبى عريض.

ومن زاوية أخرى ؛ ترددت إشارات عن أن الصليبيين خاصة عناصر الرهبان الفرسان مثل الداوية تلقوا رشوة من أجل تغيير موقع معسكر الصليبيين على نحو أضربهم ضرراً كبيراً فيما بعد، وكان من العوامل المهمة التى أدت إلى إفشال تلك الحملة الصليبية.

وهكذا : أخفقت الحملة الصليبية المذكورة إخفاقًا كبيرًا على الرغم من اشتراك الإمبراطور الألمانى ، والملك الفرنسى فيها، ويلاحظ أن الرابح فى كافة تلك الأحداث كان نور الدين محمود الذى لعب دوره فى دعم الدماشقة فى مواجهة الغزاة ، كذلك أدرك - أكثر من ذى قبل - أهمية إخضاع دمشق من أجل تأمين وجوده فى شمال الشام خاصة حلب: من خلال الارتباط القائم بين حلب ودمشق دفاعيًا واقتصاديًا، فالأولى مركز شمال الشام، والثانية مركز وسطه .

ومع إخفاق تلك الصليبية ' تأكد أن التغيير فى المنطقة الذى أحدثه عماد الدين زنكى باستيلائه على الرها ظل قائمًا ، وأن الدعم الغرب أوربى لصليبيى الشام لم يكن ضامنًا لهم من أجل إعادة عقارب الساعة إلى الوراء على الرغم من الثقل السياسى والعسكرى الكبير لتلك الحملة ، وهكذا تأكد لنا أن بلاد الشام - مثلها فى ذلك مثل مصر - مقبرة الغزاة .

لاحظ السندباد ؛ أن نور الدين محمود تمكن من تحقيق إنجاز كبير بالاستيلاء على مدينة دمشق عام ١١٥٤م / ٥٤٩ هـ ، وأنهى بذلك حكم الأسرة البورية ، لقد أدى ذلك إلى خروجه من أسر شمال الشام ، واتجاهه إلى السيطرة على جوهرة وسط الشام دمشق المدينة المحورية فى المنطقة ، والتى كانت يومًا ما عاصمة الخلافة الأموية ذات الثقل الحضارى ، والسكانى ، والاقتصادى البارز ، وبإسقاطها فى قبضته : توحدت حلب ودمشق فى قبضة سيد واحد لأول مرة منذ العصر السلجوقى . وباستيلائه عليها، أخضع منطقة الظهير البرى الممتد من الموصل إلى حلب إلى دمشق فى مواجهة الصليبيين فى الساحل ، والسهل الساحلى فى أنطاكية، وطرابلس ، وشمالى مملكة بيت المقدس الصليبية بحدودها الفلسطينية.

لقد كان إخضاعه لدمشق مقدمة للضغط العسكرى والسياسى على مملكة بيت المقدس الصليبية، كذلك سيكون ذلك الأمر مقدمة للتأثير السياسى والعسكرى على مصر الفاطمية كما كشفت عن ذلك وقائع الأحداث التاريخية التالية ، فلا عجب إذا ما اعتقد المرء أن إخضاعه لتلك المدينة يعد تغييرًا أساسيًا فى مواقع الصراع بين المسلمين والصليبيين حينذاك.

وبصفة عامة ؛ أثبت صراع نور الدين محمود الصليبيين فى بلاد الشام ؛ أن إمكانية إحداث تغيير سياسى كبير هناك صارت شبه مستغلقة. وأنه أمام ضعف مصر الفاطمية : صارت بلاد الشام تعمل منفردة فى مواجهة الغزاة ، وكانت نقطة التحول الكبرى فى توسعاته السياسية وفى صراع القوى المتناحرة فى المنطقة : عندما حدث الصراع الوزارى بين شاور، وضرغام فى عهد الخليفة الفاطمى الضعيف العاضد ، وجاء ذلك فى عصر الوزراء العظام،

والخلفاء الذين ليس لهم إلا الاسم فقط ، أما السلطة الفعلية فلم تغادر الوزراء الذين عرفوا بوزراء التفويض ؛ أى الذين فوض لهم الخلفاء سلطاتهم ، وهكذا؛ اتجه شاور إلى نور الدين محمود ، أما ضرغام ، فاتجه إلى ملك مملكة بيت المقدس الصليبية حينذاك فى صورة الملك عمورى (١١٦٣ ـ ١١٧٤م / ٥٥٧ ـ ٥٦٨ هـ) وحدث التسابق بين نور الدين محمود وعمورى على مصر، وهنا ظهر قائد بارز أثبت أستاذيته فى حرب الصحراء فى صورة أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى، وقدمت عدة حملات من جانب نور الدين إلى مصر تأكد فى ختامها تفوق الدولة النورية فى ذلك الصراع ، وتم الفتك بشاور الذى قلب ظهر المجن لنور الدين بعد أن قدم له معسول الوعود وموفور الأمانى ، وفى ختام ذلك التصارع تولى أسد الدين شيركوه الوزارة للعاضد ، ومكث فيها نحو الشهرين مات من بعدها عام ١١٦٩ م / ٥٥٩هـ ، فتولى من بعده صلاح الدين الأيوبى ، ولا ريب أن الهدف الأصلى من وراء إرسال تلك الحملات النورية صوب مصر : تمثل فى محاولة إسقاط الدولة الفاطمية الشيعية التى ناصبت الخلافة العباسية السنية العداء على نحو أدى بدوره إلى إضعاف المسلمين بصورة مكنت الصليبيين من قبل من زرع كياناتهم السياسية الدخيلة فى المنطقة.

ومن المقرر : أن نور الدين محمود : امتلك موهبة اختيار الرجال الذين من شأنهم تحقيق أهداف دولته العليا لاسيما فى سياستها الخارجية الطموحة ، وهنا يظهر دور صلاح الدين الأيوبى الذى عمل على القيام بثلاثة أدوار ، وهى دوره كرجل نور الدين محمود، ورجل العاضد ، ورجل طموحاته الشخصية التى لم تكن لتحد ، والتى فجرها فى قضية الجهاد فاكتسبت القضية فارسًا لا يبارى ، وحاميًا لا يجارى ، ولا يشق له غبار .

تأمل السندباد باستمتاع كامل ، سلوك ذلك الشاب اليافع الذى أرسله أستاذه نور الدين إلى مصر ، فوجده ـ يملك المقدرة الفذة على تحقيق أهدافه بصورة لا يملك المرء أمامها إلا أن يظهر له كل التقدير ، فإذا أضفنا إلى ذلك ـ من قبل ومن بعد ـ توفيق العناية الإلهية التى حمته فى كل كبيرة وصغيرة : أدركنا أن التاريخ سيقدر ذلك الفارس الفذ الذى لم يملك السندباد إلا أن يقدره التقدير أجمعه لأنه جدير بكل ذلك.

وباقتدار كامل ؛ اتجه صلاح الدين إلى تقليم أظافر الخلافة الفاطمية ، والتخلص من العناصر الموالية للخليفة ، بل واتجه إلى إقامة المدارس السنية : من أجل مواجهة المذهب الشيعى، خاصة أن تلك الخلافة الفاطمية أبقت على المذاهب السنية قائمة الشعار مع وجود

المذهب الشيعى ، وعمل على تقريب القلوب إليه ببذل المال، ولم يبخل فى ذلك الأمر ، واستطاع تقوية مركزه بصورة غير مسبوقة ، وطالبه استاذه نور الدين بإسقاط الدولة الفاطمية ، وهو يتأخر فى الأمر بحجة خوفه من التسرع فى الأمر وانصارها به يترصدون ، وفى الحقيقة أنه كان يسعى لتثبيت أقدامه فى المنطقة، وامتلك المقدرة على لعب الأدوار الثلاثة السالفة الذكر ببراعة ، وبعد طول انتظار ، وشوق يتحرق فى القلب ، طلب منه نور الدين محمود إسقاط دولة الفـواطم ، وأعطاه إنذارًا لا فسـحـه فـيـه . وبالفـعل أقـدم على ذلك فى يوم تاريخى وهو ١٠ سبتمبر ١١٧١ م / الجمعة الأولى من شهر المحرم من عام ٥٦٧ هـ ، وتمت الخطبة للعباسيين خصوم الفواطم الألداء الذين طالما تصارعوا معهم لعقود طوال.

ودائمًا وأبدًا ؛ يرتبط إسقاط دولة الفواطم ، بشاعر وقصيدة : أما الشاعر فهو عمارة اليمنى، وهو من رجالاتهم أحب دولتهم على الرغم من كونه من الشافعية ، ولم يكن شيعيًا ، وأحسن إليه الفواطم فأحبهم بعد أن وفد إليهم من اليمن ، ونظم فيهم قصيدة رثاء خالدة ظل المؤرخون يرددونها جيلاً بعد آخر ، وها هى بعض أبيات منها :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل

وجيدة بعد حسن الحلى بالعطل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل

سقيت مهلاً أما تمشى على مهل

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة

على فجيعتها فى أكـرم الدول

قدمت مصر فأولتنى خلائفها

من المكارم ما أربى على أملى

قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن

كما لها أنها جاءت ولم أسـل

وكنت من وزراء الدست حيث سما

رأس الحصان بهاديه على الكفل

ونلت من عظماء الجيش تكرمــة

وخلة حرست من عارض الخلل

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمــة

لك الملامة إن قصرت فى عذلى

بالله زر ساحة القصرين وابك معى

عليهما لا على صفين والجمــــل

وقل لأهليهما والله ما التحمــــت

فيكم جروحى ولا قرحى بمندمـــل

والله لا زالت عن حبى لهم أبداً

ما أخر الله لى فى مدة الأجـــل

مهما يكن من أمر ؛ نترك عمارة اليمنى فى بحر أحزانه ، وشلالات ودموعه يبكى، وينتحب ونبحث فى قيمة ذلك الحدث التاريخى الفريد . لقد أدرك السندباد ' أن صلاح الدين أحدث ثورة فى المنطقة بإسقاط الدولة الفاطمية . فلم يكن الأمر مجرد إنهاء حكم خلافة استمرت نحو القرنين من عمرها ؛ بل أدى ذلك إلى عودة ـ عملاقة التاريخ والجغرافيا ـ مصر إلى المعسكر السنى ، ولم يعد العباسيون يواجهون ذلك العدو الذى استهلك جانبًا مؤثرًا ، وفعالاً من طاقاتهم فى سبيل مواجهته ، ومن الآن فصاعداً ـ فى حالة اتحاد مصر والشام ـ من الممكن توجيه طاقات أرض الكنانة لجهاد غزاة الشام وطردهم منها ، لقد كانت مصر الفاطمية أشبه بعملاق نائم استفاد الصليبيون من سباته العميق ، ولذلك فإن العملاق الآن يستيقظ على ضفاف النيل ليعيد تنظيم المنطقة وفق مصالح الإسلام ، وأهله لا مصالح الغزاة ، وذلك بفضل توفيق الله عز وجل وثورة صلاح الدين الإيوبى ، ولا ريب فى أن إسقاط الدولة الفاطمية عام ١١٧١ م / ٥٦٧ هـ ، كان مقدمة لانتصار حطين الحاسم عام ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ وتلك حقيقة لا جدال فيها .

لقد عمت الفرحة بغداد عاصمة العباسيين، ويلاحظ أن ابن الجوزى ألف كتابًا عنوانه

«النصر على مصر»، ولا ريب فى أن تاريخ المنطقة دخل منعطفًا جديدًا، وعادت للمسلمين فى منطقة الشرق الأدنى وحدتهم المذهبية وهى فى مقدمة عناصر الوحدة السياسية ، والعمل العسكرى المشترك ضد الغزاة الذين ما زرعوا وجودهم فى المنطقة إلا بفضل غياب تلك الوحدة المذهبية ، بالإضافة إلى العديد من العوامل الأخرى المعاونة.

أدرك السندباد تألق نجم صلاح الدين الأيوبى الذى نجح باقتدار فى تحقيق الهدف الأعلى والأسمى للدولة النورية خلال تلك المرحلة من تاريخها الحافل بالأحداث الكبار. غير أن الأمور لم تسر دائمًا فى ركب الهدوء والسلام؛ إذ أن مؤامرة دولية بالغة الخطورة حيكت ضده شارك فيها الشاعر المجيد عمارة اليمنى ـ السالف الذكر ـ وكذلك أنصار الفواطم وعناصر من الصليبيين عام ١١٧٤م / ٥٧٠هـ ، إلا أنها كشفت ، وتم الفتك بمن شاركوا فيها من أتباع النظام البائد.

كانت الأعوام الواقعة من ١١٧١ إلى ١١٧٤م / ٥٦٧ ـ ٥٧٠ هـ : بمثابة الأعوام القلقة فى حياة ذلك الفارس الكردى الذى صار خبيرًا فى أمور السياسة والحرب، وصار ندًا لأستاذه إن لم يتفوق عليه أحيانًا، وحدثت الوحشة بين الرجلين، فالأقوياء لا يحبون الأقوياء مثلهم، وأدرك نور الدين محمود أن الشاب الذى كان قليل التجربة السياسية ، بعد أن حنكته تجاربه مع دولة الفواطم ، صار أستاذًا مثله، وأرسل إليه صلاح الدين جانبًا من خيرات مصر فاستقلها وشعر أنها أقل مما يتصور ويتوقع.

وفكر نور الدين محمود من خلال روايات ابن الأثير المؤرخ العراقى ربيب البيت الزنكى ـ فى القدوم إلى مصر لإخراج صلاح الدين منها، غير أن المنية عاجلته فتوفى عام ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ بمرض الذبحة الصدرية. ولا ريب فى أنه برحيله ابتعد عن طريق الكردى الموهوب سياسيًا وعسكريًا أحد أكبر خصومه خلال تلك المرحلة البالغة الحساسية من تاريخه وتاريخ المنطقة بأسرها.

أدرك السندباد أن الإعجاب بصلاح الدين الأيوبى لم يمنعه من أن يعجب بنور الدين محمود مهندس حركة الجهاد الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر/ السادس الهجرى ، لقد أدرك مدى عبقريته السياسية التى جعلته يواجه الصليبيين ويهزمهم فى عدة معارك إلى أن وصل معهم إلى مرحلة توازن القوى وهو إنجاز تاريخى لا يستهان به، كذلك تدخله الواعى فى المسألة المصرية على نحو أدى إلى إسقاط دولة الفاطميين بصورة جعلت

الغزاة محاصرين بين جبهة شامية فى الشمال، وجبهة مصرية فى الجنوب، على نحو أحدث تغيراً جوهرياً فى النطاق الجغرافى لحركة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر.

ومن الإنصاف التقرير بأن نور الدين محمود : بذل جهداً بارزاً فى إعادة بناء القاعدة الدينية للمسلمين فى بلاد الشام ومصر من خلال إدراكه للوحدة الجغرافية والتاريخية بينهما فى صورة «الشامصر»، فعمل على تشييد المدارس السنية، وإحياء المذاهب السنية لمواجهة المد الشيعى الإسماعيلى، كذلك قدَّر الفقهاء والصوفية، بل آنه على المستوى الشخصى كان ذا ميول صوفية، وكان يحتفى بهم، ولديه كوخ خشبى صغير يلجأ إليه يتعبد إلى الخالق تبارك وتعالى، وتزهد فى حياته الشخصية فاستحق وصف أسامة بن منقذ الشاعر والفارس الشيزرى الكبير بأنه «سلطان زاهد»، وجاء وليم الصورى ـ مؤرخ الصليبيين الأشهر خلال القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى ليؤكد أنه مراع لتقاليد دينه، بل أن الصليبيين أنفسهم شعروا وأدركوا يقيناً أنه ينتصر عليهم بالجانب الدينى.

لقد أسقط نور الدين محمود خمسين حصناً من حصون الصليبيين ـ وفق تقدير ابن الأثير ـ وكاد يفتك به فى معاركه ضدهم ، وتمنى الشهادة ولم ينلها ، ووصفه المسلمون من بعد رحيله بالشهيد تكريماً وتقديراً .

تعجب السندباد من قطاع من المؤرخين أفرغوا الإنسان من أبعاده الروحية الدينية ، وتوهموا أنه مادة لا يسعى إلا إلى الاشباع المادى الحيوانى، يلهث وراء المال، وتحركه الغريزة، وأغفلوا أن نداء الروح له شأن وأى شأن فى صنع التاريخ: إذ آن نور الدين محمود كان الجانب الدينى له شأنه فى سياساته تجاه الصليبيين ، مع عدم إغفال الجوانب الأخرى فى صورة الدوافع السياسية والاقتصادية ، لأن كل الدوافع تتكامل فى منظومة تاريخية واحدة.

وهكذا : رحل راهب الجهاد ومهندسه، نور الدين محمود، ومن بعهد تولى قيادة قافلة الجهاد تلميذه الذى حنكته التجارب ، فصار آستاذاً للجهاد نجح فيما لم يتمكن منه أستاذه نظراً لاختلاف الظروف الدولية فى عهدى الرجلين، وفى النهاية . لم يشأ السندباد أن يظلم آبطال عصره، بل رأى أن كلاً منهم سار بالقافلة إلى مجال، وتسلم من بعده من يقودها إلى ما هو أبعد إلى أن تحقق الهدف الأسمى فى صورة طرد الغزاة.

مهما يكن من أمر؛ نظر السندباد إلى مسلك صلاح الدين الأيوبى من بعد وفاة نور الدين محمود، فإذا به يدرك تمامًا أنه لا ينبغى عليه البقاء فى مصر قابعًا راضيًا بالاكتفاء بنطاقها الجغرافى تاركًا بلاد الشام تعصف بها مطامع الطامعين من الذين أرادوا لها عودة الأمور إلى ما كانت عليه بعد تفكك الدولة السلجوقية ، ولذلك انطلق نحو دمشق عام ١١٧٤م/٥٧٠هـ؛ حيث وجد بها الصالح إسماعيل وهو ابن قاصر لنور الدين محمود وأراد بعض من السياسيين السيطرة على مقاليد الأمور من خلاله. وهذا التصرف جعل البعض ينظرون إليه على أنه عاق، وجاحد بدليل سيطرته على أملاك سيده.

وواقع الأمر؛ أن عام ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ أثبت لنا بما لا ريب فيه: أن ذلك الفارس الكردى سيكون له دوره الفعّال فى سياسات المنطقة، وأنه ليس نسخة مكررة من الخلفاء الفاطميين الذين ارتضوا بحدودهم المصرية ، والعدو الصليبى جاثم على صدر بلاد الشام ، وانتهى أمرهم باقصائهم نظرًا لضعفهم الشديد، وأول تأثيره الفاعل فى بلاد الشام كان إخضاعه لدمشق حاضرة الشام الكبرى ، ومركز ثقله السياسى ، ويلاحظ هنا أن هذه هى المرة الأولى التى تتحد فيها القاهرة ودمشق تحت سيطرة سيد واحد، والتقى ذلك الفارس مع أعدائه فى معركة قرون حماه عام ١١٧٥م/ ٥٧٠هـ ، وانتصر عليهم انتصارًا ساحقًا وفى أعقابها، أسقط اسم الصالح إسماعيل من الخطبة والسكة ومن المتصور أن انتصاره هناك أثبت له عدم جدوى بقاء ذلك القاصر على رأس السلطة فى دمشق ، مما يدل على أنه احتفظ به كورقة رابحة فى لعبة القوى السياسية فى المنطقة فى ذلك الحين.

تأمل السندباد؛ فوجد أن ذلك القائد الفذ أحاطته العناية الإلهية ـ كما أسلفت الذكر ـ ولا أدل على ذلك : من أن عناصر الحشاشين أتباع راشد الدين سنان (١١٦٣ ـ ١١٩٣م/ ٥٥٩ ـ ٥٩٠هـ) حاولوا اغتياله مرتين فى مصياف ، وإعزاز عام ١١٧٦م/ ٥٧١هـ وكتب الله تعالى له النجاة بأعجوبة على نحو يثبت بما لا يدع مجالاً لريب مرتاب كيف أن العناية الإلهية ادخرته ليوم حطين الخالد عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ.

وأدرك صلاح الدين: أهمية المصاهرات السياسية من أجل دعم نفوذه السياسى، ولا أدل على ذلك من إقدامه على الزواج من عصمت خاتون أرملة نور الدين محمود عام ١١٧٦م/ ٥٧٢هـ ، وبذلك أظهر نفسه بمظهر الوريث الشرعى للبيت النورى بصورة مكنته من تحقيق مشاريعه السياسية الطموحة.

زد على ذلك ؛ إقدامه على زاوية معمارية لها أهميتها ، فى صورة تشييد قلعة الجبل التى شيدها عام ١١٧٦م/ ٥٧٢هـ واكتمل بناؤها فى عهد السلطان الكامل الأيوبى (١٢١٨ ـ ١٢٣٨م/ ٦١٥ ـ ٦٣٥هـ)، ولا تزال تلك القلعة قائمة إلى يومنا تشهد على ازدهار رأس خليج العقبة بإزاها، العمارة الأيوبية حينذاك، ويلاحظ أنه شيد عدداً من القلاع كما فى جزيرة فرعون، وغيرها على نحو يوضح إدراكه لأهمية العمارة الحربية فى تدعيم أركان دولته ضد أعدائه فى الداخل والخارج.

تنبه السندباد : إلى أن السلطان الأيوبى الطموح أدرك أهمية ترابط المدن الأربع الكبرى، القاهرة ، ودمشق ، حلب، الموصل ، وقد دانت الأخيرة بالفعل بالولاء له، وبالتالى صارت منطقة مصر ، والشام ، وشمال العراق فى قبضته باستثناء مناطق الوجود الصليبى فى مملكة بيت المقدس وإمارتى أنطاكية ، وطرابلس ، كذلك اتجه ذلك الفارس البارز إلى تكوين جيش ضخم وصف فيما بعد بأنه أكبر قوة عسكرية ضاربة فى الشرق، ولا ريب فى أن سهول وديان النيل، والعاصى، والفرات قدمت له المخزون البشرى الذى من شأنه دعم قواه العسكرية ناهيك عن سيطرته على خطوط التجارة العالمية المارة بمصر والشام . خاصة تجارة الكارم أو التوابل والرقيق، والحرير وغيرها؛ وهى تجارة عابرة القارات وأفاد من عوائد المكوس المفروضة عليها على نحو دعم ميزانية دولته وصب فى النهاية فى دائرة الجهاد ضد الصليبيين.

ولا نغفل أن ذلك السلطان امتلك شخصية .. كارزمية أى لها جاذبية خاصة وقدرة على التأثير فى الآخرين، لذلك التفت الجماهير حوله، وأحبته بصورة غير مسبوقة حتى من أولئك الذين كانوا على غير ديانته ، من ذلك ؛ ما نعرفه من أن أقباط مصر قدروه تقديراً كبيراً، ورسموا صورته، ويلاحظ أنه خصص لهم ديراً فى بيت المقدس ـ فيما بعد ـ عرف بدير السلطان، وبصفة عامة ؛ كان متسامحاً ولا ادل على ذلك من أن أطباءه منهم من كان من المسيحيين أو اليهود ، ومن الأخيرين نذكر موسى بن ميمون أبرع أطباء عصره الذى كانت له عيادته الطبية فى الفسطاط تعج بالمرضى الذين قصدوه من كافة الأنحاء للعلاج.

زد على ذلك ؛ أنه امتلك قدرة فذة على معرفة فعالية وسائل الإعلام فى صورة الخطابة ، والكتابة التاريخية ، والقصائد الشعرية، فجلب لربوع دولته عدداً من الأدباء والشعراء والمؤرخين الذين برعوا حينذاك مثل العماد الأصفهانى، وابن سناء الملك، وبهاء الدين بن شداد، والقاضى الفاضل، وغيرهم. وكَوَّن من تلك الكوكبة الفريدة من أهل الأدب ، والتاريخ جهازاً إعلامياً ندر وجوده فى ذلك العصر عمل على الدعاية السياسية اللازمة له. على نحو

دعم مكانته ، وقوى دولته ، ويكفى أن نلاحظ مقولته أنه ما انتصر بسيوف المسلمين وإنما بفضل قلم العماد الأصفهانى ، ومع ذلك : فإنه لم يكن صنيعة كتاب عصره ـ كما زعم البعض من المستشرقين ـ فأولئك الكتاب والشعراء أقروا واقعًا ، ولم يجعلوا من القزم عملاقًا ، وبدون إنجازات ذلك السلطان الفذ ما استطاع رجال الأعلام فى عصره إبرازه بتلك الصورة التى نجدها فى الكتب، والقصائد التى وصلت إلينا من العصر الأيوبى، وهناك دليل وضّاح دال على أنه لم يكن صنيعة أولئك المؤيدين ، إذ أن هناك من عارضه معارضة شعواء، مثل المؤرخ العراقى البارز ابن الأثير الذى انتقده عدة مرات وحمله مسئولية بعض أوجه القصور العسكرى فى مواجهة الصليبيين ، كذلك لا نغفل الشاعر الهجّاء ابن عنين الذى هجاه. فنفاه إلى الهند عقابًا له، وفى تصورى ، وتقديرى أن جانبًا كبيرًا من شهرة ابن عنين كشاعر ـ إلى جانب براعته الشعرية ـ جاء من خلال هجائه لرجل مجاهد بارز على شاكلة ذلك السلطان الأيوبى.

مهما يكن من أمر : ففى الوقت الذى كانت الدولة الأيوبية فى عهد مؤسسها البارز صلاح الدين الأيوبى فى قوة ومكانة عليا، كانت مملكة بيت المقدس الصليبية تعانى من الضعف الشديد لاسيما بعد وفاة آخر الملوك الصليبيين الأقوياء فى صورة الملك عمورى عام ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ ، على نحو ترك معه فراغًا سياسيًا يصعب شغله، وعند تقييمنا للموقف السياسى نجد أن المؤرخ الصليبى البارز وليم الصورى William of Tyre يقرر إعجابه وتقديره لصلاح الدين ، ويذكر أنه كان يستطيع أن يضرب الصليبيين فى أى وقت يشاء، وفى أى مكان يريد، وأنه امتلك القدرة على المبادأة ، كذلك ذكر صراحة صفات ذلك السلطان متمثلة فى كونه شجاعًا وكريمًا إلى درجة السخاء، ولا ريب فى أن رئيس أساقفة صور الذى عركته الحياة، وعرف صنوف الرجال ، استشعر الخطر الداهم الذى ينتظر بنى جلدته من وراء ذلك السلطان الذى نذر نفسه للجهاد.

وقد حدث فى عام ١١٨٢م/ ٥٧٨هـ ، أن قام أمير الكرك رينو دى شاتيون المعروف فى المصادر العربية باسم إرناط بحملة حربية على الحجاز: من أجل نبش قبر نبى الإسلام محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وهاجم الحجاز من خلال البحر الأحمر الذى عرف ببحر القلزم، وكانت قواته على بعد مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة، وأمكن للأسطول الأيوبى وعلى رأسه حسام الدين لؤلؤ إحباط تلك المحاولة الغادرة التى كشفت بجلاء مدى غدر الصليبيين، ورغبتهم الأكيدة فى مهاجمة الإسلام فى أقدس مقدساته فى الحجاز. كذلك هدف

ذلك الأمير الصليبى المندفع والمتهور إلى ضرب طريق التجارة الخاص بالتوابل المارة بالبحر الأحمر، وهى تجارة ـ كما أسلفت ـ عابرة للقارات احتاجتها أوربا من أجل حفظ الأسماك؛ استعداداً لمواسم الصيام عند المسيحيين.

وهكذا ؛ فشلت تلك الحملة الصليبية التى أثبتت لنا أن الغزاة ما آرادوا بيت المقدس فقط كما أشار إليها البابا أوربان الثانى فى خطابه عام ١٠٩٥م/ ٤٨٨هـ ، بل أرادوا تكوين إمبراطورية واسعة على حساب أملاك المسلمين وتهدف ـ أول ما تهدف ـ إلى النهب المنظم لثروات الشرق الاقتصادية وكذلك ضرب الإسلام فى عقر داره وتحويل مسلمى المنطقة إلى مسيحيين كاثوليك يتبعون كنيسة روما كما آسلفت الإشارة من قبل.

وعند تقييمنا لتلك الحملة الفاشلة ندرك أن السلطان الأيوبى استغلها بذكاء فاعل ، من أجل دعم موقفه السياسى وكشف أهداف الصليبيين وأطماعهم السافرة وذلك بالدعاية السياسية له لإظهار دولته بمظهر الحامى لمقدسات الإسلام. وكان ذلك يعنى أن مكاسب ذلك السلطان شارك الصليبيون ـ بحمق ورعونة أحياناً ـ فى صنعها وقام هو باستغلال الظروف التاريخية التى عاصرت سلوكيات بعض قياداتهم لصالحه بطبيعة الحال.

ومن المقرر؛ أن السلطان صلاح الدين الأيوبى اتبع إستراتيجية عليا بالغة الأهمية، والفعالية خلال المرحلة الممتدة من ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ إلى ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ ، فقد اتجه إلى حرب الاستنزاف الأيوبية التى هدفت إلى استهلاك طاقات الصليبيين العسكرية والاقتصادية، وفى ذات الحين الإعداد الجيد، والمنظم ليوم النزال الحاسم. ومن ثم تجنب الوقوع فى صدام عسكرى لا يحسب عواقبه بدقة مع الصليبيين. ولذلك ؛ فطوال تلك الأعوام التى وصفت بأعوام التمهيد والإعداد للنصر، لم نسمع عن معركة واحدة قضى فيها على قواته قضاءً مبرماً، بل اتجه إلى كسب خبرات عسكرية أكبر من خلال الاحتكاك بالغزاة ناهيك عن امتلاكه جهاز مخابرات على أرقى مستوى.

وفى ذات الحين ؛ استغل عنصر الوقت بدهاء شديد، حيث أدرك أن عنصر الوقت فى صالحه بحكم سياسته نحو الوحدة والجهاد، وأنه ليس فى صالح الصليبيين الذين دخلوا فى منازعات تصارعوا فيها مع بعضهم البعض، ونلاحظ هنا آنه أدرك أن التاريخ لعبة الزمن مثلما أدركها من قبل الملك الصليبى المؤسس بلدوين الأول، غير آن صلاح الدين الأيوبى تفوق بالتأكيد على ذلك المؤسس ولذلك ؛ استفاد من كافة تلك الأعوام ليجعل الضعف يفتك بالصليبيين ببطء ، ولكن على نحو مؤكد.

ولا نغفل إدراكه الواعي لأهمية البعد الديني، وقد دعم صلته بالفقهاء ، والصوفية، وخاصة الأخيرين الذين اعتبروا حينذاك قادة شعبيين أحاطهم الناس بكل تقدير، واحترام، واعتقدوا في كراماتهم، ولذلك لم يكن غريبًا أن وجدنا رحالة أندلسيًا موهوبًا مثل ابن جبير؛ يصف الصوفية في بلاد الشام بأنهم الملوك في هذه البلاد : على نحو عكس مكانتهم السامية لدى المجتمع الإسلامي حينذاك.

مهما يكن من أمر ؛ لكل حرب شرارة ، تشعلها لتحسم قضايا سياسية معلقة طالما انتظر أحد الأطراف حدوثها من أجل استرجاع حقوقه المغتصبة. ففي عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ : كانت هناك هدنة معقودة بين السلطان الأيوبي ومملكة الصليبيين غير أن الفارس إرناط ـ الذي دخل التاريخ بفضل حمقة ورعونته ـ قام بسلب ونهب قافلة كبيرة تابعة للمسلمين وعندما طلب السلطان الأيوبي استردادها عجز ملك بيت المقدس عن إقصاء إرناط عن فعلته الحمقاء، ولم يكن هناك مناص من الصدام بين الجانبين، وتطورت الأحداث وأسرعت لاهثة ليوم تاريخي يسير في كل عصر في صورة يوم ٤ يوليو ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ. ففي هذا اليوم تأكد لنا أن فلسطين ـ أرض الأنبياء والتاريخ الخالد ـ كان لها مع التاريخ موعد، ففي شمالها وإلى الغرب من بحيرة طبرية وعند حطين التقى الجيشان الأيوبي والصليبي، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي من الذكاء بحث أنه استحضر إليه الصليبيين الذين قدموا إلى موقع المعركة عطشى، ومجهدين ، وفتك المسلمون بأعدائهم بصورة غير مسبوقة، ولم يحدث أن أخذ المسلمون بثأرهم من أعدائهم منذ مقدمهم إلى المنطقة مثلما حدث في ذلك اليوم.

ويلاحظ أن من كان يرى القتلى يظن أن المسلمين ما أسروا أحدًا، ومن يرى الأسرى يظن أن أحدًا لم يقتل كما أوضح ابن الأثير ، وفي أعقابها استدعى صلاح الدين الأيوبي الأسرى فكان منهم إرناط، والملك جي دي لوزينيان، ومقدمي الاسبتارية والداوية، فقدم الماء لإرواء عطش الملك الصليبي وقام بقتل إرناط انتقامًا منه لمهاجمة الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز. كذلك اتجه إلى الفتك بنحو ثلاثمائة من فرسان الاسبتارية والداوية الذين كانوا أشد العناصر فتكًا بالمسلمين وأكثر الصليبيين تعصبًا، وقد أعطى أوامره لعناصر الصوفية وكبار رجال دولته بالفتك بهم. وهي حادثة على جانب كبير من الدلالة في المواجهة بين الصوفية والرهبان الفرسان الصليبيين في ذلك العصر، على نحو يثبت أن الصوفية حينذاك ما كانوا جميعهم أهل تواكل وغفلة ـ كما تصور البعض ـ بل أهل جهاد وعمل، وتلك هي الصوفية الحقة التي يصنعها أهل العمل الصادق لا الأدعياء أو الدخلاء على الطريق.

لاحظ السندباد كيف غمرت الفرحة العارمة صفوف المسلمين، وفى أعقاب معركة حطين الحاسمة سجد السلطان شاكراً لربه الذى مَنَّ عيه بذلك الانتصار ، وبكى من شدة الفرح، وواقع الأمر أننا كى ندرك حجم الانتصار ؛ نعرف أن الصليبيين كانوا يخشون المعارك الحاسمة، نظراً لقلة عددهم ، وخوفهم من عواقبها، وهنا نجد أن أكبر جيش استطاع الصليبيون حشده منذ وصولهم إلى المنطقة فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى ـ هذا الجيش تم تدميره ، وتم الفتك بزهرة شباب المملكة الصليبية ثم توالت النتائج الباهرة فى صورة الاستيلاء على الساحل الشامى حيث تساقطت المدن الصليبية هناك، كما تتساقط أوراق الخريف، كذلك تهاوت القلاع التى أقامها الغزاة على الأرض العربية واحدة تلو الأخرى بصورة غير مسبوقة ، وأخيراً اكتمل الظفر بفتح بيت المقدس ، حيث دخلها فى ٢ أكتوبر ١١٨٧ م / ٢٧ رجب ٥٨٣هـ دخولاً سلمياً أبيض لم يرق فيه قطرة دماء صليبية واحدة، ودل ذلك على عظيم تسامحه الذى نبع عن أخلاقيات الإسلام ذاته ، على الرغم من أنه كان بمقدوره إحداث مذبحة مروعة فيها رداً على تلك المذبحة التى لا نظير لها فى تاريخ زهرة المدائن التى أقامها الغزاة للمسلمين فى عام ١٠٩٩م/ ٤٩٤هـ. وهكذا: انتصر ذلك السلطان المجاهد على الصليبيين مرتين: إحداهما عند حطين، والثانية عندما دخل بيت المقدس فى سلام تام ، واستحق بالتالى تقدير واحترام معاصريه الصليبيين الذين نسجوا حوله أسطورة ظلت تعيش فى نفوسهم قروناً تلو قرون، وصار نموذجاً للفارس النبيل. كذلك قدره المؤرخون الغربيون فى غالبيتهم، وبحث السندباد فى دوائر المعارف العالمية من اليابان شرقاً إلى الولايات المتحدة غرباً فوجد فيها مادة ثابتة بعنوان صلاح الدين ، فحدث نفسه قائلاً، نعم الرجل أنت أيها الفارس المسلم النبيل!!!.

هكذا: تغيرت الجغرافيا أمام عزائم الرجال الذين امتلكوا القدرة على تغيير التاريخ، ودخل المسلمون إلى مناطق لم تطأها أقدامهم محررة منذ نحو تسعين عاماً، ومن المؤكد أن ذلك السلطان ومن ورائه من المسلمين احدثوا تغييراً جوهرياً فى موازين القوى فى المنطقة، ولم يبق من مملكة بيت المقدس سوى مدينة أنطاكية ، ومدينة طرابلس، وحصن المرقب، وحصن الأكراد، وصور، وهو إنجاز غير مسبوق، وهنا أكد السندباد على حقيقة محورية: وهى أن قادة حركة الجهاد الإسلامى السابقين على صلاح الدين الأيوبى لهم دورهم الذى أفاد فى صنع انتصار حطين نظراً لكون تجربة الجهاد الإسلامى حينذاك تجربة تراكمية استفاد اللاحقون

من السابقين في مضمارها، كذلك فإن ذلك الانتصار ساهم فى صنعة كافة الذين شاركوا فيه من السلطان نفسه حتى أصغر رتبة عسكرية فى جيشه حتى لا يكون السندباد من أولئك الذين ينسبون الانتصارات للقادة ولا يشركون صغار القوم فى صنعها.

نبه أحد المؤرخين الغربيين السندباد إلى أن ضعف الصليبيين كان وراء انتصار صلاح الدين الأيوبى، غير أنه رد عليه بأن المملكة الصليبية بالفعل كانت تعانى من الضعف إلا أن المهم من يستثمر ذلك الضعف «استثمارًا تاريخيًا» ويتمكن من تحقيق المكاسب لصالح أمته، ولم يكن الأمر مسألة «حظ» أو مصادفة» بل إعداد استغرق الأعوام الطوال من أجل الوصول إلى تلك النتيجة المبهرة. وهكذا فإن يومًا واحدًا فى التاريخ ـ مثل يوم حطين ـ احتاج إعدادًا امتد على مدى الأعوام من ١١٧١ إلى ١١٨٧م/ ٥٦٧ ـ ٥٨٣هـ.

ولم ينس السندباد : أن قطاعًا من المؤرخين الغربيين ترصدوا لإنجازات أمته المشرفة فى القرون الوسطى، وحاولوا سلب مكاسبها وحرمانها من كل بارقة أمل، وبقعة ضوء وسط الظلام الدامس حتى تعيش فى دياجير الأحباط، وهكذا حاولوا اغتيال السلطان المجاهد بعد رحيله بقرون مثلما حاول الحشاشون اغتياله فى حياته، غير أن مسعى الفريقين باء بالخسران المبين.

وهكذا ، بلغنا حقيقة محورية لا ينكرها ناكر، ولا يجحدها جاحد، ولا يرتاب فيها مرتاب، وهى أن ذلك السلطان بجهاده وحسن تقديره للأمور ودهائه تمكن المسلمون فى عهده من إسقاط الدولة الفاطمية عام ١١٧١م/ ٥٦٧هـ، ومملكة الصليبين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ والأول عمرت قرابة القرنين ، والثانية قرابة التسعين عامًا ، والحادث الأول يوصف بأنه «ثورة» ، والثانى يوصف بالفعل بأنه «زلزال» . ويلاحظ أن الإنجازين الفارق الزمنى بينهما يقدر بنحو ستة عشر عامًا على نحو يعكس كم كان ذلك السلطان بالفعل ، رجل الإنجازات التاريخية غير المسبوقة، ويثبت ذلك كله إن الإنجازات الأول كان الأساس الذى أدى إلى الإنجاز الثانى.

— ٥ —

أدى ما حل بالصليبيين فى بلاد الشام إثر معركة حطين الحاسمة إلى تحرك فعاليات الحلف الدفاعى الإستراتيجي بين الكيان الصليبى – والذى وصف بالشرق اللاتينى – وبين الغرب الأوربى الذى كانت مصالحه الحيوية فى إستمرار النموذج الصليبى هناك، ولم يكن ليسمح باختلال موازين القوى على نحو يخل بمصالحه الإستراتيجية العليا فى المنطقة سواءً من زاوية إحكام القبضة على مقدرات التجارة العالمية المارة بالمنطقة، وإخضاع المحارم المسيحية المقدسة للسيادة الأوربية بالمشروع التنصيرى شرقى البحر المتوسط إلى غير ذلك من المصالح الأوربية الحيوية الكبرى فى المنطقة حينذاك.

وعلى ذلك ؛ كان لأبد من التحرك فى صورة حملة صليبية جديدة على المنطقة؛ وهى التى شملت الأعوام من ١١٨٩، إلى ١١٩٢م / ٥٨٨– ٥٩١هـ. واشترك فيها الإمبراطور الألمانى فردريك باربروسا Frederich Barbarosso (نو اللحية الحمراء) (١١٥٢–١١٩٠م) (٥٤٧ – ٥٨٦هـ) والملك الفرنسى فيليب أغسطس Philip Augustus (١١٨٠ – ١٢٢٣م/ ٥٧٦ – ٦٢٠هـ) والملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد Richard Heart of Lion (١١٨٩ – ١١٩٩م) (٥٨٥ – ٥٩٦هـ).

أدرك السندباد كم كان التحدى كبيراً الذى واجهته الدولة الأيوبية التى حملت اللواء فى جهاد الصليبيين، فها هى القوى الأوربية تواجه تلك الدولة الفتية ، ولم يكن هناك من يقدم الدعم للسلطان الأيوبى، بل أن العباسيين أنفسهم مثلوا مصدر الشرعية لا أكثر ولا أقل، والموحدين فى الغرب شغلوا بصراعاتهم مع بنى غانية فى جزر البليار، ولم يقدموا الدعم البحرى الذى توقعه السلطان منهم فى مرحلة تالية من مراحل الصراع مع الصليبيين ، وإن ظل الدعم المغربى على المستوى الشعبى قائماً ومتدفقاً.

وعلى الرغم من الآمال الكبار؛ التى علقت على الحملة الألمانية بقيادة فردريك باربروسا ، وهو الفارس العجوز الذى بلغ من الكبر عتياً ، وراودته أحلام الفارس القديم – إلا أن مصيرها

كان الإخفاق ، وغرق ذلك الإمبراطور فى نهر سالف من أنهار كيليكيا Cilicia فى آسيا الصغرى Asia Minor فى ١٠ يوليو ١١٩٠م/ ٥ جمادى الأولى عام ٥٨٦هـ، وتحولت حملته إلى موكب جنائزى ، وبذلك تبددت قوة صليبية ضخمة كان من الممكن ـ فى حالة وصولها إلى المنطقة ـ أن تمثل خطراً داهماً على المسلمين.

أما الحملة الفرنسية بقيادة فيليب أغسطس : فقد وصلت إلى بلاد الشام ، وشاركت فى حصار مدينة عكا جوهرة الساحل على المستوى التجارى بصورة خاصة ، ومن بعد ذلك قدمت الحملة الإنجليزية بقيادة ريتشارد قلب الأسد مع ملاحظة أنه خلال مقدمه إلى المنطقة استولى على جزيرة قبرص Cyprus عام ١١٩١م/ ٥٨٧ هـ ؛ وهى ذات موقع فريد فى مواجهة الساحل الشامى، وكان من الممكن أن تصبح موضع قدم للصليبيين فى المنطقة، ومركز للتموين بالإمدادات اللازمة بالنسبة لكافة الحملات الصليبية القادمة إلى الشرق، ولا نغفل أنها كانت تابعة للدولة البيزنطية ؛ ولذلك يعد الاستيلاء عليها مظهراً من مظاهر تزايد الأطماع الغرب أوربية فى أملاك الدولة البيزنطية.

شاهد السندباد كم كان الصراع على عكا عنيفاً ، وكم بذل السلطان الأيوبى من مجهودات مضنية من أجل الدفاع عنها وإفشال الحصار الصليبى لها. وتساءل فى نفسه هل كانت عكا تستحق كل ذلك الجهد من الصليبيين الذين حاصروها عامين كاملين على نحو جعل البعض يرى أنها كانت أطول معارك الحروب الصليبية قاطبة؟

وكانت الإجابة الحاضرة نصب عينيه: أنها كانت تستحق بالفعل كل ذلك العناء من الصليبيين من أجل إسقاطها فى أيديهم، بل وتستحق ذلك الدفاع المرير من جانب المسلمين لتظل فى قبضتهم ، فهى درّة الساحل وقلب الصليبيين التجارى، ومركز حركة الصادرات والواردات التجارية وبصفة عامة ؛ كان للكيان الصليبى قلبان ـ إذا جاز التعبير ـ قلب دينى فى صورة بيت المقدس ، وقلب تجارى فى صورة عكا وحيث أن القلب الدينى سقط فى أيدى المسلمين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ لذلك كان على الصليبيين الاستماتة والاستبسال من أجل إخضاع عكا بأية صورة من أجل أن تكون مقدمة وقاعدة قوية لاستعادة القلب الدينى حيث أدرك الغزاه بذكاء الصلة الوثيقة بين القلبين .

لاحظ السندباد طول وعنف وشراسة الحصار والجهد الخارق الذى بذله السملمون من أجل مقاومة ذلك الدعم الأوربى للصليبيين فى بلاد الشام، غير أن المدينة سقطت فى النهاية فى

أيدى الصليبيين فى ١٢ يوليو ١١٩١م/ ١٧ جمادى الآخر ٥٨٧ هـ، وأقام الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد مذبحة مروعة لنحو ألفين وخمسمائة من أبطال عكا الذين حوصروا فيها مدة العامين، وعند تل العياضية تركت إنجلترا تاريخًا دمويًا أثبت همجية الملك الإنجليزى الذى برع فى سفك الدماء، ووصف بالاندفاع والرعونة، لقد كان مشهدًا مأساويًا عندما فتك بذلك العدد الضخم من أبطال المسلمين ، غير أن ذكرى بطولتهم ظلت تنير الأفق وتشهد ببشاعة قلب الغدر، لا قلب الأسد. ويود السندباد تقديم تلك الحادثة للواهمين من المشتدقين بحضارة الغرب الأوربى فى علاقاته مع المسلمين .

حقق الغزاة مكاسب كبيرة من جراء استعادة عكا لسيطرتهم، وذلك بحكم موقعها التجارى، ودورها السالف الذكر، بالإضافة إلى أن الهزيمة العسكرية حلت بالسلطان الأيوبى، ولم يملك السندباد نفسه إلا أن يقول لكل جواد كبوة ، وحاول الغزاة الوصول إلى بيت المقدس، وحدثت معركة عنيفة عند أرسوف بين الجانبين هزم فيها ريتشارد الأول السلطان الأيوبى على الرغم من أن الأخير بذل أقصى ما يستطيع لمواجهة الصليبيين وهى من المرات النادرة التى لحقت الهزيمة بذلك الفارس الكردى الكبير ، والتقى السندباد مع ما ألفه القاضى بهاء الدين بن شداد الذى كان قريب الصلة بالسلطان الأيوبى ، ووجد خفقات قلب الأخير فى كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» فإذا به يتحدث عن معركة أرسوف عام ١١٩١م / ٥٨٧هـ، حديث المتألم المتأزم ، وردد ما معناه أنه كان فى قلب السلطان منها مالا يعلمه إلا الله. والناس بين جريح الجسد، وجريح النفس. وبالفعل كانت نتيجة تلك المعركة هزيمة واقعة بالجيش الأيوبى غير أنها لم تكن أرسوف البتة ندًا لحطين؛ بل هى معركة جزئية محدودة لم تحقق على أرض الواقع مكاسب كبيرة أو حقيقته كما حاول الزعم بذلك أحد المؤرخين البريطانيين المحدثين، ويكفى أن السلطان الأيوبى كان لا يزال يحتفظ بقواته، وجيشه متماسكًا فى أعقابها، ثم أنها لم تمكن الغزاة من الوصول إلى بيت المقدس التى ظلت ـ بفضل دفاع المسلمين عنها ـ كنجم متألق فى عنان السماء لا تستطيع أيديهم ـ مهما طالت- أن تصل إليه بعد استرداده بدماء الشهداء عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ.

اتجه صلاح الدين الأيوبى إلى تحويل هزائمه إلى مكاسب وحرم أعداءه من استثمارها، إذ اتجه إلى تدمير عسقلان عروس الشام، حتى لا تقع فى قبضة الغزاة، وعمل على دعم دفاعات بيت المقدس، وحمل على ظهره الحجارة، والرمال، وشاركه الفقهاء ، والصوفية ورجال الدولة

دعمًا لزهرة المدائن التى كانت فى سويداء القلب بالنسبة له، لأنه عرف ويتقن أنها بوابة الخلود : فدافع عنها دفا ع المستميت.

على أية حال؛ شاهد السندباد الملك الإنجليزى ، وهو يحاول الوصول إلى هدف صار كالسراب بعد استماتة المسلمين فى الدفاع عن المدينة المقدسة، وبعد كافة تلك المعارك، وبعد استرداد عكا، وانتصار أرسوف لم يتمكن من استثمار الانتصارين الكبيرين للوصول إلى القلب الدينى للصليبيين، وهكذا ذهبت أعماله أدراج الرياح، وكأنه تائه يبحث عن ضالة لن يدركها أبدًا . ومع كل ذلك؛ ظل تزيف الدماء فى جنده متواصلاً وظل منفردًا فى الساحة خاصة بعد رحيل الملك الفرنسى فيليب أغسطس تاركًا غريمه الإنجليزى فى «مستنقع بلاد الشام» حيث جهاد المسلمين له ولقواته . ويضاف إلى ذلك آن بلاده كانت نائية يصل إليها بعد قطع مساحات شاسعة. وبلغته مؤامرات فيليب أغسطس مع أخيه يوحنا الذى عينه نائبًا عنه فى حكم إنجلترا أثناء غيابه فى الشرق، ومن ثم كان عليه آن يطرق أبواب الدبلوماسية ـ وهى حرب بالمفاوضات على أية حال ـ للتوصل إلى إتفاق يحفظ ماء وجهه.

أما بالنسبة للسلطان الأيوبى ؛ فقد أدرك مدى تكلفة الحرب مع الصليبيين المدعومين من الغرب الأوربى، خاصة أنه كان يواجه ذلك الضغط العسكرى والسياسى العنيف منفردًا ، ويكفى أن مذبحة تل العياضية – السالفة الذكر– أفقدت المسلمين ألفين وخمسمائة من خيرة أبناء الجيش الأيوبى نالوا الشهادة فى يوم واحد ، وأمام توازن القوى العسكرى، لم يكن هناك مفر من طرق باب الدبلوماسية أيضًا للتوصل إلى اتفاق مشرف طالما أن بيت المقدس لن تصل إلى قبضة الغزاة بأية صورة من الصور.

وهكذا ٠ كان للدبلوماسية شأنها، وبعد مفاوضات مضنية دامت عامًا أمكن الوصول إلى ما عرف بصلح الرملة، وهو ذلك الصلح الذى عقد فى ٢ سبتمبر ١١٩٢م/ ٢٢ شعبان ٥٨٧هـ، وفيه تأكدت المهادنة ، والموادعة فى البر، والبحر، والسهل ، الوعر لمدة ثلاث سنوات، وثلاثة اشهر، وثلاثة أيام ، كذلك تم الاتفاق على أن تكون المنطقة من صور إلى يافا فى قبضة الغزاة؛ وهى مواقع حصل عليها الصليبيون بعد صراع حربى مرير مع المسلمين، وكان من المتوقع تمامًا أن ينص الصلح على ذلك الأمر كحقيقة واقعة، كذلك تم التوصل إلى آن اللد تكون، والرملة مناصفة بين الجانبين، ويضاف إلى ذلك: موافقة السلطان المتسامح ـ تكرمًا ومنّه ـ على أن يقوم الصليبيون بالحج إلى المحارم المسيحية المقدسة ليثبت للغزاة أنه لا خطورة البتة

من بقاء تلك الأماكن فى حضن ديار الإسلام الذى احتضن المسيحية عدة قرون دونما تعصب أو مذابح على عكس ما فعل الصليبيون عندما قدموا للمنطقة، وبالتالى يقضى على مبرر مقدمهم المعلن الأصلى لحماية تلك المواقع المقدسة.

شعر السندباد بالتقدير والاحترام تجاه ذلك الصلح المشرف الذى كان ذروة الدبلوماسية الأيوبية الناجحة، ويكفى أن بيت المقدس ظلت تحت السيادة الإسلامية، وهذا الأمر جعل حملة ريتشارد تحقق خسرانًا مبينًا «وعاد بخفى حنين!!!» فإذا ما لاحظنا أن صلح الرملة جاء بعد أعوام طويلة من الصراع الحربى: أدركنا أن صلاح الدين الأيوبى كان بالفعل رجل الحرب والسلام.

أما من هاجموه من المؤرخين الذين تستهويهم العمليات العسكرية الذين أخذوا عليه اتجاهه لمسالمة الصليبيين؛ فقد حملوا الأمور أكثر مما تحتمل وأرادوا مواصلة الحرب حتى آخر جندى مسلم وهذا عين الحمق والغفلة، لقد أدرك أن مواصلة الحرب تمثل انتحار عسكريًا لا محالة، ولذلك فضل المسالمة بقوة عن استمرار الحرب والفناء العسكرى الكامل لدولته بعد ذلك، ومرة أخرى؛ دَلَّ ذلك الرجل على الحكمة والفطنة التى تمتع بها .

مضت الأيام والشهور وفى عام ١١٩٣/ ٥٨٩هـ، مرض السلطان الذى عشق الجهاد، وقدم حياته لأمته، وارتضى العيش فى خيمة فى الصحراء بدلاً من العيش فى قصور كقصور الفواطم البالغة الترف والثراء وفى نفس الحين الهوان. ومرض بالملاريا -على ما هو مرجح- ومن سخرية القدر أن قاهر الصليبيين صرعته ناموسة! مثلما كان الأمر لدى الاسكندر الأكبر قاهر العالم فى الزمن القديم! ووصف ابن شداد للسندباد جنازته فكانت تاريخية بكل معانى الكلمة، وسمع من يتمنى أن يفتديه بالروح وحزن على رحيله المسلم وغير المسلم، على نحو عكس كم كان رصيد محبته كبيرًا فى قلوب معاصريه. ودفن السلطان الأيوبى فى دمشق الفيحاء عروس الشام قديمًا، ووسيطًا ، وحديثًا، وما زال قبره هناك بعد مزارًا سياحيًا عظيم الشأن للمسلمين وغير المسلمين على حد سواء.

ومع ذلك : انبرى أحد الباحثين للسندباد موضحًا أن صلاح الدين الأيوبى له سلبياته العديدة منها، بتبديده لمكتبة الفاطميين البالغة الثراء، كذلك مسئوليته عن فشل حصار صور، ثم الفتك بفيلسوف الاشراق السهروردى الحلبى. ولذا : فإن تاريخه ليس كله مُشَرِّفًا، ودعم

مقولته بأن الباحثين الغربيين أبرزوا تلك الزوايا بينما نجد المؤرخين الشرقيين - ومنهم السندباد نفسه ـ يقعون فى سحر كاريزما الرجل فلا يرون إلا الجانب المشرق دون الجانب المظلم.

وواقع الأمر ؛ أن السندباد لم يوافق إلا على العنصر الأول، فبالفعل كان الأجدر بصلاح الدين أن يجنب تلك المكتبة التى احتوت على مئات الآلاف من الكتب التبديد خاصة أنها احتوت على نسخ أصلية نادرة، ولكن العداء السنى ـ الشيعى الذى احتدم حينذاك وأرخى ظلاله على فكر ذلك السلطان ؛ فنظر إلى تراث الفاطميين نظرة العداء المستحكم.

أما مسئوليته عن فشل حصار صور؛ وهو أنه حدث فيما بعد دخوله بيت المقدس وإطلاقه سراح العديدين من الصليبيين، وقد تجمعوا فى صور المنيعة على المستوى الجغرافى، ومنها أرسلوا الاستغاثات للغرب الأوربى لنجدتهم، وعندما وصلت قوات الأيوبيين إلى صور استعصت عليها، وأبرز الأمر المؤرخ العراقى ابن الأثير ربيب البيت الزنكى الذى كان كارهًا للسلطان الأيوبى، غير أن القضية ليست صور بل نفسية ابن الأثير ورغبته فى إبراز الجوانب المسيئة لذلك السلطان المجاهد الكبير، وكان الصليبيون سيأتون إلى المنطقة حتى فى حالة نجاح الأيوبيين فى الاستيلاء عليها. أما اتجاهه السلمى وإطلاقه لسراح العديدين من الصليبيين فالسبب فيه رغبته فى فتح صفحة جديدة فى العلاقات الإسلامية ـ الصليبية، وليس خطأ الرجل أنه كان مسالمًا بل إن الخطأ الأكبر على الصليبيين الذين أقسم كبارهم أمامه بعدم محاربته ونكثوا بعهودهم فى خسة مخجلة، ومن غير المنطقى أن ننسى إنتصار حطين، وإسقاط القلاع، وفتح الساحل ، ودخول بيت المقدس ونبرز نقطة سوداء صغيرة فى الثوب الأبيض الناصع فى صورة صور.

أما موضوع السهرودى الحلبى؛ فهو فيلسوف متصوف من أصول إيرانية، وتبنى الفكر الشيعى، واعتنق فكرة مفادها أنه وإن كانت النبوة انتهت بمحمد عليه الصلاة والسلام فإن الولاية مستمرة ؛ على نحو أدخله فى عداء مع الفقهاء الذين أفتوا بإعدامه، وحدثت تلك الأحداث خلال حصار الصليبيين لعكا، أى فى ظروف بالغة التعقيد، خاصة أن الظاهر غازى ابن صلاح الدين الأيوبى والذى حكم حلب كان متعاطفًا مع ذلك الفيلسوف، ولم يشأ السلطان أن يحدث انقسامًا فى داخل دولته خاصة أن الفقهاء والصوفية احتلوا مكانة عليا فيها فكان

الأمر الذى نفذ فى ذلك الفيلسوف وقد حاول عدد من الباحثين الغربيين التشهير بذلك السلطان على اعتبار «الحرية الفكرية» على الرغم من أن الغرب الأوربى وسيطًا يحتوى تاريخه على نماذج صارخة فى مجال قمع الحرية الفكرية. وفى محاكم التفتيش Inquisitions خير برهان لا يقبل الشك ولكن هى المعايير المزدوجة التى تجعل آهل الغرب يتباكون على كل شخصية يختلف بشأنها فى عالم الإسلام فى كل عصر ، وفى تصورى المتواضع، أنه أمام الظروف والملابسات التى أحاطت بقضية السهروردى اضطر صلاح الدين الأيوبى إلى ذلك التصرف، وذلك مع تقديرى لإسهامات ذلك الفيلسوف فى مجال الفكر الفلسفى وهو أمر لا ينكر وأسفى الشديد على نهايته المأساويه.

تبقى زاوية أخيرة ضمن الحديث عن ذلك الفارس الكردى الكبير، وتتمثل فى أن منافسيه اختفوا من مسرح الأحداث السياسية فى توقيتات بالغة الحساسية ، والأهمية، ومن أمثلة ذلك: وفاة عمه أسد الدين شيركوه بعد نحو شهرين من توليه الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد، وبوفاته تم إفساح الطريق تمامًا لابن أخيه صلاح الدين لتولى زمام الأمور فى مصر كوزير تفويض مطلق الصلاحيات ، والسلطات، أما المثال الثانى ؛ فيتمثل فى وفاة العاضد الفاطمى كمدًا وحسرة بعد علمه بزوال دولته، والمثال الثالث وفاة نور الدين محمود، وهو يتجهز ـ كما يقال ـ عسكريًا لغزو مصر ، وإبعاد صلاح الدين عنها.

والجدير بالذكر هنا: أن من المؤرخين الصليبيين من حاول اتهام صلاح الدين الأيوبى بأنه وراء الفتك بعمه أسد الدين شيركوه ، وكذلك الخليفة الفاطمى العاضد. غير أن ذلك لا يجد سندًا مدعمًا له من وقائع التاريخ؛ إذ لم يكن الغدر من شيمته حتى مع الصليبيين أنفسهم، حيث نعرف أنه فيما بعد عندما مرض ريتشارد قلب الأسد فى يافا أرسل له صلاح الدين الأيوبى طبيبه الخاص لعلاجه ومعه الفاكهة والثلج . وهو أمر نادر للغاية. فما بالك والأمر خاص بأحد أقربائه وهو عمه شخصيًا. والخليفة الفاطمى العاضد الذى خدمه عدة أعوام ، ومن المعروف أنه بالنسبة للأخير؛ يقال آن صلاح الدين الأيوبى حزن لوفاته حزنًا شديدًا، لتعاونهما المشترك فى سبيل مواجهة الأطماع الصليبية على مصر.

واقع الأمر ؛ لا تعليل لغياب الشخصيات البارزة الثلاثة المذكورة عن مسرح الأحداث السياسية فى توقيتات بالغة الأهمية بالنسبة لذلك الفارس المغوار إلا من خلال إرادة الله عز

وجل الذى أراد إدخار ذلك القائد لأمته : من أجل أن يقوم بجهاد الغزاة وتبديد قوتهم مثلما لاحظنا فى حطين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ وكل ذلك يعنى دلالة واحدة لا سبيل لإنكارها أو التردد فى إعلانها وهى أن الإرادة الإلهية كانت تفسح الطريق لذلك الفارس بإبعاد منافسيه وخصومه . على نحو يؤكد على أن التخطيط البشرى رئيسى فى صنع التاريخ، غير أن الأقدار لها شأنها الأبرز، والأكبر، ففى حالة بقاء الأشخاص الثلاثة المذكورين كعناصر فاعلة فى الأحداث ما حقق ذلك القائد الإنجازات التى شاء له الله تعالى تحقيقها.

تلك أحداث عصر صلاح الدين الأيوبى الذى فرض اسمه على عصر تاريخى بأكمله، ومن بعد رحيله دخل أبناؤه فى انقسام وتناحر إلى أن قبض على زمام الأمور العادل أبو بكر شقيق صلاح الدين، والذى قام بدور دبلوماسى كبير أدى إلى صلح الرملة عام ١١٩٢م/ ٥٨هـ، كذلك شارك فى أمور الحرب خلال عهد أخيه، غير أنه فَضَّل دومًا سياسة الدفاع والمسالمة عن الحرب وويلاتها، وقد خشى أن يقدم إلى المنطقة دعم حربى صليبى من الغرب الأوربى يهدد مصالح الأيوبيين خاصة أن المنطقة أجهدها الصراع مع الصليبيين، ناهيك عن حدوث زلازل مدمرة أثرت على اقتصاديات الدولة الأيوبية[١] ، بل ومجاعات ذَكَّرت الباحثين بالشدة العظمى التى حدثت خلال عهد المستنصر لدين الله الفاطمى من قبل وإن كانت أقل منها خطراً .

بصفة عامة : لاحظ السندباد أن رحيل صلاح الدين الأيوبى أحدث فراغًا سياسيًا لم تستطع أية شخصية شغله حتى نهاية عهد تلك الدولة عام ١٢٥٠م/ ٦٤٨هـ من العادل أبو بكر حتى توران شاه، ولذلك أدرك السندباد أن تاريخ الدولة الأيوبية يتمثل فى مرحلتين: الأولى عصر صلاح الدين وهو عصر القوة والإنجازات ، وعصر خلفائه وفيه ظاهرة السياسة الدفاعية التى تطورت إلى التنازل أحيانًا كما سنرى.

على آية حال: فبعد رحيل صلاح الدين الأيوبى بأعوام قلائل، وتحديداً بعد عشر سنوات، وفى عام ١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ؛ حدث حادث غَيَّر موازين القوى بصورة غير مسبوقة : فقد سقطت القسطنطينية فى قبضة الصليبيين ، وأحدث الأخيرون فى العاصمة الإمبراطورية وقائع لا تحد من المذابح، والسلب، والنهب، بل تم اغتصاب الراهبات فى الأديرة، وتم تحويل ما تم نهبه كى يباع فى أسواق القاهرة ، ودمشق ، وحلب، وهكذا: تحولت العاصمة الإمبراطورية إلى فريسة ذبيحة فى أيدى الصليبيين، وبالتالى أثبتت الحركة الصليبية أنها لم تكن موجهة ضد القوى

الإسلامية فحسب؛ بل ضد كل من يخالف كنيسة روما فى المذهب، والتوجهات، والمصالح السياسية، كذلك تم إخضاع كنيسة القسطنطينية لسيطرة كنيسة روما بصورة كشفت بجلاء وعلى نحو وَضّاح أن من بين أهداف الحركة الصليبية ؛ إخضاع تلك الكنيسة المارقة لسيطرة الكنيسة الكاثوليكية الأم فى روما.

لقد أحدث ذلك الأمر تحولاً خطيراً فى المنطقة؛ إذ تم اقتسام أملاك بيزنطة بين القوى الصليبية وخاصة البندقية التى حصلت على نصيب الأسد من الأسلاب البيزنطية، وأقيم بالقسطنطينية حكم لاتينى، وتم انتخاب بلدوين الفلاندرزى إمبراطوراً، وتم تعيين بطريرك جديد فى صورة توماس مورسينى.

ومن الأمور التى لفتت انتباه السندباد، أن مؤرخًا بيزنطيًا معاصرًا هو نيكيتاس خونياتس، شاهد بعينى رأسه احتلال القسطنطينية، وذبحها، وسلبها ، ونهبها، واغتصابها على أيدى من وصفوا أنفسهم يومًا بأنهم جند المسيح الذين كان البيزنطيون فى الأصل يكنون لهم كل احتقار، فرثى عاصمته الإمبراطورية التى شهدت من قبل مجداً عريضًا ، وثروته طائلة أو سطوة سياسية ما بعدها سطوة، ومما ذكره فى هذا المجال: «أيتها المدينة، يا حديث العالم، ومما ذكره فى هذا المجال: «أيتها المدينة ، ياحديث العالم، يا منار الأرض، يا حامية الكنائس، ويا سيدة الإيمان، يا قلعة العلم، لقد تجرعت كأس غضب الله حتى الثمالة، ولقد حاق بك آتون أكثر بشاعة من ذلك الذى أصاب قديمًا المدن الخمس» ، وأنقل هذه العبارات الأدبية الراقية من ترجمة أستاذى أ. د. اسحق عبيد ، وفى نفس الحين تمنى ذلك المؤرخ أن يكون سقوط العاصمة الإمبراطورية على أيدى المسلمين لا على أيدى اللاتين الغربيين ؛ لأنه كان يدرك مدى تحضرهم مقارنة بالبرابرة الذين هاجموا إمبراطوريته، ولم يتركوها إلا جثة هامدة أجهدها السلب، والنهب، والاغتصاب.

ويلاحظ أن صليبية عام ١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ : تثبت بجلاء كامل أهمية الدافع الاقتصادى فى توجيه الصليبيات ، وتوارت النواحى الدينية أمام استفحال ذلك الدافع البالغ التأثير. ويلاحظ أن هذه ليست المرة الأولى التى يظهر على السطح فيها ذلك الدافع، بل من قبل وجدنا بعض رجال الكنيسة فى مملكة بيت المقدس الصليبية يؤجرون أماكن العبادة المسيحية من أجل أعمال الدعارة لما تدر عليهم من أموال طائلة، كذلك فإن فرسان المعبد أو الداوية عملوا صيارفة

واشتغلوا بالمال، وبذلك يتضح لنا أنه أمام سحر المال، ورنين الدنانير، والدوكات. تساقطت مسوح الرهبان وظهر الدافع الاقتصادى ليكشر عن أنيابه بصورة لا ينكرها ناكر، ولا يجدها جاحد. بصورة أثبتت لنا أن الحركة الصليبية لم تكن حركة أخلاقية مثالية ـ حرصت الحوليات الصليبية المبكرة على إظهارها بهذا المظهر ـ بل أنها ـ فى واقعها التاريخى ـ كانت من باب أولى حركة نفعية مادية تبرر كل أشكال المكاسب المادية دونما أخلاق.

عرف السندباد أن الصليبيين الذين كانوا فى بلاد الشام منهم من تركها إلى القسطنطينية بحثًا عن الثروة الطائلة بعد كارثة ١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ التى حلت بالإمبراطورية البيزنطية.

وقد أوضحت تلك الأحداث : اتساع النطاق الجغرافى للصليبيات بحيث لم يشمل شرق البحر المتوسط سواء بلاد الشام ، وأعالى الفرات، ومصر ، والحجاز ، بل امتد الأمر ليصل إلى القلب البيزنطى الذى لم يسقط منذ القرن الرابع الميلادى، والآن يسقط على أيدى الصليبيين : وهم مسيحيون مثل البيزنطيين وإن اختلفوا من الزاوية المذهبية، وهكذا ؛ شهدت بدايات القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى غياب الإمبراطورية البيزنطية التى طالما استعمرت غيرها من القوى السياسية المعاصرة لها فى عصر قوتها، وإن تمكن البيزنطيون من إستعادة عاصمتهم عام ١٢٦١م/ ٦٦٠هـ على يد ميخائيل باليولوغوس Michael Pal-iologus وعادت إلى الوجود بيزنطة غير أنها كانت ظلاً شاحبًا ولم تعد بذات القوة التى كانت عليها من قبل، ويلاحظ أن كارثة ١٢٠٤م/٦٠٢هـ كانت المقدمة الحقيقية لما حدث عام ١٤٥٣م/ ٨٥٧هـ عندما تمكن المسلمون فى عهد محمد الفاتح من الاستيلاء عليها : فانتهت من الوجود، وصارت القسطنطينية إسلام بول أو استانبول أو الأستانة أو آستانة السعادة.

على أية حال؛ أدرك السندباد أن صليبية عام ١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ جاءت بالخير على الأيوبيين فى مصر، والشام، وهم الذين . كما يقرر البعض ـ عملوا على إبعادهم عن بلادهم إلى حيث اتجهت نحو القسطنطينية، وفى ذات الحين أضعفت الصليبيين. ولاحظ أحد المؤرخين الغربيين فى صورة الفرنسى رينيه جروسيه Réne Grousset صاحب كتاب تاريخ الحروب الصليبية Histoire des Croisades آنها جاءت إيذانًا بفشل المشروع الصليبى باكمله، ولم يبالغ بالفعل فقد وضح له أن تلك الحملة مثلت انتحارًا للصليبيات.

ترك السندباد أمر صليبية عام ١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ، وشد الرجال صوب صليبية عجيبة

عكست طبيعة ذلك العصر بصدق صادق ، بصورة تكاد تكون غير مسبوقة، فآتون الصليبيات الذى فتك بالرجال والنساء أبى إلا أن يكون للأطفال دور فى أحداثها الجسام !!! وتمثل ذلك فى صليبية الأطفال عام ١٢١٢م/ ٦٠٩هـ، وفيها نعرف أن صبيًا من فرنسا يدعى ستيفن من مدينة كلويس رأى فى منامه أن السيد المسيح عليه السلام أتى إليه، ودعاه أن يقوم بصليبية إلى بلاد الشام، وتجمع حوله عشرات الآلاف من الأطفال، وتوهم آن البحر سينشق، لكى يعبر هو ورفاقه إلى بيت المقدس، واتجه الجميع إلى مرسيليا الميناء الجنوبى الفرنسى، ومات الكثيرون من مشقة الطريق، ولما وصلوا إلى البحر لم ينشق لهم كما توهموا ، وانتهى أمرهم بأن نقلوا بالسفن إلى فلسطين، وبيعوا كرقيق فيما بعد، وتكرر ذات الأمر العجيب فى ألمانيا؛ إذ آن صبيًا من هناك يدعى نيقولا ظهر فى كولونيا، وتوهم إمكانية أن يقوم بتحرير بيت المقدس، وتجمع حوله الآلاف من الأطفال واتخذ طريقًا إلى إيطاليا عبر جبال الآلب، وهلك منهم الكثيرون ، وانتهى أمرهم بأن بيعوا ــ مثل الفرنسيين ــ كرقيق فى أسواق النخاسة.

تعجب السندباد أيما تعجب !! وتساءل فى نفسه ، كيف يعقل حدوث كل ذلك ؟ ألم يكن هناك عقلاء ينبهون الناس إلى عبثية ما يفعلون؟ وأن كل تلك الأحداث ما هى إلا الانتحار الجماعى نفسه، وحقيقة الأمر: أن واقع تفكير الناس فى الغرب الأوربى الذى سيطر عليهم نوع من الهوس الدينى ؛ أجاز مثل تلك الأمور الغير المعقولة. لقد اغتالت الصليبيات براءة الطفولة ، وهلك الآلاف من أجل إشباع رغبات لا تحد فى الانتقام من المسلمين، واسترداد بيت المقدس دون جدوى.

إن صليبية الأطفال: صليبية عجيبة كشفت حقيقة مجتمع الغرب الأوربى فى العصور الوسطى وخاصة خلال القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى من هوس دينى وحقد دفين على الإسلام وأهله ، وما أفدح الثمن الذى دفعه ذلك المجتمع، إن الأطفال أنفسهم شاركوا فى ذلك الأمر ، ولم يكن يستطيع أحد مقاومة تلك الرغبة الجامحة، والمستفيد من وراء تلك الصليبية العجيبة هم تجار الرقيق الذين غنموا الغنائم الوفيرة من جراء ذلك الاتجاه الصليبى غير المألوف من قبل.

مما يجدر ذكره هنا: أن القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى ، شهد ــ بصفة عامة ــ اتجاهات عديدة ثرية فى المشروع الصليبى، منها ـ كما ذكرت من قبل ـ غزو القسطنطينية ، ثم حملة الأطفال. ثم حملات صليبية ضد العناصر المعارضة للبابوية فى جنوب فرنسا فيما

عرف بالحملات الالبيجنسية وقد تمت على الأرض الأوربية ذاتها، وفى فرنسا الوطن الأم للمشروع، مما يؤكد على أن «الصليبية» عدت بمثابة القوة التى تحركها البابوية إلى كافة المناطق التى فيها خصومها سواء من المسلمين أو المسيحيين، وفيما بعد ستوجه حملات صليبية نحو بحر البلطيق لمهاجمة معارضى البابوية ممن وصفتهم بالهراطقة وهى صليبيات وصفت «بالشمالية» Northern Crusades . على نحو عكس البعد «العالمى» للمشروع الصليبى: فمن اسبانيا إلى فرنسا إلى بلاد الشام ثم مصر، ومن بعد ذلك إلى الحجاز كذلك اتجه المشروع المذكور صوب الإمبراطورية البيزنطية، ومن بعدها تونس، وبحر البلطيق من بعد ذلك، فالصليبية بالتالى شملت قارات العالم القديم المعروفة حينذاك فى صورة أوربا، وآسيا، وأفريقيا، وذلك من خلال مطامع لاتحد، ورغبة جامحة فى الهيمنة ، وتحقيق كافة صور المكاسب الاقتصادية، والسياسية ، والروحية على حساب المسلمين واليهود، بل وحتى المسيحيين الأرثوذكس أنفسهم ممن لا يقدمون الولاء ، والطاعة لكنيسة روما الكاثوليكية التى أعماها التعصب. ولذا توصف الصليبيات ـ وبحق ـ بأنها فعلة كنسية action d'Eglise كاثوليكية عالمية التوجهات، والأهداف والمطامع بصورة غير مسبوقة فى تاريخ القرون الوسطى.

ـ ٦ ـ

تتبع السندباد خطوات الجشع الصليبي خلال الأعوام الممتدة من ١٢١٨ إلى ١٢٢١ م/ ٦١٥ ـ ٦١٨ هـ ؛ فإذا به يجد الصليبيين يتجهون صوب أرض الكنانة ؛ من أجل الفتك بقاعدة الدولة الأيوبية؛ إذا أن مصر وقفت بكافة إمكانُاتها المادية والبشرية؛ من أجل دعم جبهة الجهاد الإسلامي في بلاد الشام ، بحكم الوحدة الجغرافية ، والتاريخية بينها وبين بلاد الشام ، ومصر فيما عرف «بالشامصر »خاصة أن ريتشارد الأول قلب الأسد وهو يحزم أمتعته عائداً إلى إنجلترا: أوضح لرفاقه أن رأس الأفعى مصر، وأن الطريق إلى بيت المقدس يبدأ من القاهرة.

ومع ذلك؛ من الممكن العودة إلى الجذور التاريخية لاتجاه الصليبيين نحو مصر في القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري ، فنجدها في أخريات القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، عندما فكر الغزاة قبل الهجوم على بيت المقدس في الاتجاه إلى مصر غير أن إمكاناتهم المحدودة حينذاك وقفت حائلاً دون ذلك، كما قرر المؤرخ الصليبى رايموندداجيل وفيما بعد : قام بلدوين الأول بحملته عام ١١١٨م/ ٥١٢هـ، ثم جاءت حملات الملك عموري لتؤكد أهمية مصر في موازين القوى السياسية في المنطقة ، ومن بعد ذلك وقفت مصر ـ كما اسلفت الذكر ـ بكافة إمكاناتها من أجل نصرة شقيقتها بلاد الشام ، وبعد قرن كامل من العلاقة الوطيدة بين الإقليمين المتجاورين تأكد للصليبيين ضرورة مهاجمة مصر. والآن؛ لم يهاجموها من المدخل النموذجي لغزوها في صورة شبه جزيرة سيناء المخلخلة سكانياً حينذاك ، بل من الشمال بمهاجمة دمياط الواقعة على الفرع الشرقي لنهر النيل، وبالفعل تمكنوا من الاستيلاء عليها عام ١٢١٩م/ ٦١٦هـ، وكانت تلك الحملة بقيادة ملك بيت المقدس حنادي برينJohn de Birenne ، والمندوب البابوي بلاجيوس Plagius ، وكان الملك العادل مريضاً ، وعندما وصلت إليه تلك الأخبار السيئة أسلم الروح حزناً وكمداً.

عاث الصليبيون فساداً في دمياط وقتلوا ، ونهبوا ، واغتصبوا وحولوا مسجدها إلى

كنيسة، وعملوا على تنصير نحو ٤٠٠ طفل مصري مسلم، وتحويلهم إلى المسيحية كما قرر جاك دي ڤتري أسقف عكا. كذلك سكَّ الصليبيون عملة فيها من آجل الاستمرار والبقاء فيها أمداً طويلاً.

ويلاحظ ؛ أن الغزاة أضاعوا وقتًا طويلاً في دمياط عام ١٢١٩م/ ٦١٦هـ، وعام ١٢٢٠م/ ٦١٧هـ ، والنصف الأول من عام ١٢٢١م/ ٦١٨هـ، وتأخر توجهـهم نحو القاهرة ، فأعطوا الأيوبيين فرصة من أجل الاستعداد لمواجهتهم ، كذلك استخدم الأيوبيون وقت فيضان نهر النيل الخالد، وأغرقوا الغزاة ، وحاصروهم على نحو أدى إلى إخفاق تلك الحملة ، ومما ساعد على ذلك ، الخلاف الذي نشب بين حنادي برين وبلاجيوس، فقد توهم الأخير أنه قائد عسكري وأدلى بدلوه في هذا الشأن على نحو ضمن لتلك الصليبية الإخفاق المبين!!!

هكذا؛ شاهد السندباد تلك الحملة وهي تجر أذيال الخيبة، والعار، بعد أن أثبتت مصر لغزاتها أنها بالفعل مقبرة الغزاة، ودَلَّ كل ذلك على أن الصليبيين كانوا يواجهون صخرة شامخة لم يكن من الممكن الفتك بها، وأن دورها التاريخي لم يكن ينفصل عن دور بلاد الشام؛ إذ أن كلاً منهما صدى للآخر وإذا حدث ـ لا قدر الله تعالى ـ الافتراق بينهما حدث الوهن في جسد العالم العربي وسيطًا وحديثًا.

وبصفة عامة ؛ أدرك السندباد حقيقة جلية لا لبس فيها، تتمثل فى أن المشروع الصليبى خلال القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى ؛ جعل جل اهتمامه منصبًا نحو مصر بصورة فاقت ما حدث خلال القرن السابق ؛ ونعنى به القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى.

كذلك من الملاحظ ؛ أن الصليبيين لم يستفيدوا خلال تلك الحملة من حصاد تجاربهم التاريخية فى غزو مصر، فها هم لايدخلون إليها من بوابتها الشرقية المثالية شُبه جزيرة سيناء بل من زاوية النيل فى دمياط، على نحو عكس أنه مع مرور الزمن وقع الصليبيون فى ذات الأخطاء التى وقع فيها المسلمون من قبل فى عصر تفرقهم من حيث غياب الوعى بحصاد التجارب التاريخية فى علاقاتهم بالقوى المتصارعة معهم.

ولاريب : فى أن الصراع الإسلامى- الصليبى حينذاك أكد على حقيقة «الشامصر» فالملاحظ أن الضغط الصليبى على مصر جعل بلاد الشام تقدم العون لشقيقتها الجغرافية والتاريخية أرض الكنانة .

لم يفت السندباد أن يلفت انتباه القارئ إلى أن الباحثين فى ذلك العصر ، اعتادوا وصف الحملات الصليبية بأرقام معينة وصولاً إلى الحملة الثامنة ، والأصوب عدم الترقيم لأمر يسير، وهو أن المشروع الصليبى مشروع عسكرى واحد لايجزأ لأن التجزئة قد تحول دون فهمه بصورة عميقة ، خاصة أن هناك صليبيات صغيرة قد لايهتم بها إلا قلة قليلة من الباحثين على الرغم من أنها ساهمت - بصورة أو بأخرى- فى دعم جسد المشروع الأصلى.

من زاوية أخرى؛ جاء فشل حملة حنا دى برين وبلاجيوس ليثبت لنا - وبحق- أن الصليبيين نجحوا من قبل آسيوياً ، وفشلوا أفريقيًا : فها هى مصر الأيوبية تصد عدوانهم ويعودوا إلى قواعدهم الآسيوية فى بلاد الشام، ولاريب فى أن من مظاهر «عقدة تاريخ الصليبيين» فى ذلك العصر عجزهم عن تطوير كيانهم خارج حدود «الشرنقة الآسيوية» إلى مجال أفريقى أرحب، وكان ذلك العجز مقدمة حقيقية لطردهم بعد ذلك حتى من ذلك النطاق الآسيوى الذى كان يعانى أصلاً من مشكلة المساحة الجغرافية الصغيرة .

على أية حال ؛ مضت أعوام قلائل فإذا بالسندباد يجد نفسه أمام اتفاقية عرفت باتفاقية يافا عام ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ ، فيما بين الملك الكامل الأيوبى ، والإمبراطور الألمانى فردريك الثانى Frederich The Second الذى قام بنشاط صليبى وافر وأتى بحملة قوامها ٥٠٠شخص من أجل استخلاص بيت المقدس من قبضة الصليبيين بعد أن دعاه الملك الكامل لمساعدته العسكرية فى مواجهة عناصر من البيت الأيوبى تصارعت معه . وبمقتضى تلك الاتفاقية قدم ذلك السلطان للصليبيين بيت المقدس وبيت لحم ، والناصرة ، وتبنين، وصيدا ، وكل القرى الواقعة على الطريق من عكا إلى بيت المقدس، ومن عكا إلى يافا ، وكذلك أرض تورون وملحقاتها بالإضافة إلى صيدا وقيسارية .

أحدثت تلك الاتفاقية معارضة هائلة فى صفوف المسلمين وهوجم ذلك السلطان هجومًا عنيفًا من كبار الفقهاء فى ذلك العصر مثلما حدث من جانب سبط بن الجوزى، وبكى الناس على ضياع بيت المقدس زهرة المدائن، وبوابة الخلود، والتى عادت بدماء الشهداء . كما لم يوافق عليها الصليبيون بصفة عامة نظراً لأن بيت المقدس عادت على يدى إمبراطور فرضت البابوية عليه الحرمان الكنسى.

والملاحظ ؛ أن البابوية كانت تخشى عودة بيت المقدس على يدى ذلك الإمبراطور المارق الذى فرضت عليه ذلك الحرمان الكنسى ، ولذلك سارعت بمراسلة السلطان الكامل الأيوبى من

أجل أن يرفض تسليم المدينة المقدسة لذلك الإمبراطور ، غير أن الأمور سارت على عكس ما أرادت، واشتهت .

على أية حال ؛ أثبت ذلك لنا كيف أن البابوية جعلت من تلك المدينة لعبة سياسية ، فهى قد تقبل عودتها إلى الصليبيين على أن يكون ذلك على يدى أحد رجالها أو التابعين لها من قادة الغرب الأوربى، وذلك يكشف لنا أن البابوية مارست السياسة من رأسها حتى أخمص قدميها بكل الدهاء ، والمكر، والخبث ، والبرجماتية بعيداً عن هالة التدين والقداسة التى أحاطت بابوات ذلك العصر كما حاولت المصادر المعاصرة تصويرهم أحياناً، وبالفعل يمكن وصف بابوات الصليبيات بأنهم رجال سياسة يرتدون مسوح الرهبان، وقد احترفوا السياسة وأطماعها قبل احترافهم أية أهداف دينية أخرى.

على أية حال؛ لايستطيع باحث مدقق أمين على تاريخ أمته أن يجد مبرراً واحداً حتى واهياً للدفاع عن الكامل الأيوبى لذى تمكن ثعلب الدبلوماسية الألمانية فى صورة فردريك الثانى أن ينتزع منه انتصاراً غير مسبوق، وما حدث ذلك إلا بتفريط الكامل وتهاونه وديكتاتوريته أو توهمه أنه صاحب الحق فى التصرف فى أراضى المسلمين التى لايحق له أن يتعامل معها باعتبارها صنيعة من الضياع .

ومن الممكن تفسير ما حدث على اعتبار فجوة الأجيال الأيوبية ؛ فالجيل الذى حارب من أجل استعادة بيت المقدس ؛ لم يفرط فيها البته، بينما الجيل الذى وجد تلك المدينة المقدسة أمامه دون عناء ؛ فرط فيها بصورة غير مسبوقة .

وعند مقارنة الكامل الأيوبى بالسلطان صلاح الدين نجد البون الشاسع . فمؤسس الدولة الأيوبية جاهد الصليبيين وعلى الرغم من هزائم معركة عكا وأرسوف إلا أنه دافع عن بيت المقدس ولم يفرط فيها أبداً ، أما الكامل، وهو نقطة سوداء فى تاريخ الأيوبيين، فقد قدم المدينة المقدسة للصليبيين بحجة واهية لاتدخل على عقل صبى صغير بلاخبرة – وهى أنه بذلك يبعدهم عن مصر قلب الدولة الأيوبية .

ومن المهم للمؤرخ أن يرصد البعد الشعبى ، وهو بعد على جانب كبير من الأهمية من أجل تقييم أدوار قادة التاريخ، فالملاحظ أن الجماهير لفظت الكامل، واعتبرته خائناً لقضايا أمته، وتلك حقيقة لاينكرها المؤرخ المنصف المتخصص فى تاريخ الصليبيات .

وقـد يرد البـعض أن الكامل كـان له مـا يبـرره من سلوك تجـاه مـعـاهدة يافـا ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ، كذلك كان محبًا للعلماء، ونشر الأمن والأمان فى ربوع دولته ، غير أن المنطق يدعونا إلى القول بعدم الخلط بين السياستين الداخلية والخارجية، قد يكون محبًا للعلم داخليًا غير أنه فشل فشلاً ذريعًا فى تعامله مع الداهية الألمانى فردريك الثانى، الذى استرجع بيت المقدس للصليبيين ولم يكن معه سوى حملة بها ٥٠٠ شخص ، وفى تصورى أنه فى حالة وجود قيادة مسلمة ذات وعى سياسى حقيقى ما كان للإمبراطور الألمانى تحقيق ذلك الانتصار السهل!

ختامًا لهذه الزاوية : رأى السندباد أن بيت المقدس أعطت لصلاح الدين خلود اسمه- بإذن الله تعالى- فى التاريخ، وأسقطت الكامل الذى فرط فيها، ولم يجد من يدعى صواب موقفه من المؤرخين المتخصصين فى تاريخ الصليبيات .

مهما يكن من أمر؛ عكست صليبية فردريك الثانى أمر التنافس الدولى على شرق البحر المتوسط خلال ذلك الحين، وهو أمر يدعونا إلى تسليط الضوء على الدور الألمانى فى الصليبيات حتى عهد ذلك الإمبراطور .

والملاحظ فى هذا الشأن ؛ أن الحركة الصليبية غلب عليها الطابع الفرنسى والإيطالى ثم الإنجليزى بصورة أكبر من الطابع الألمانى ، وإن شارك الألمان- بصورة كبيرة - خلال المرحلة من ١١٤٧-١١٤٩م / ٥٤٢-٥٤٤هـ فى صورة مساهمة الإمبراطور كونراد الثالثConrad III فى أحداث صليبية تلك الأعوام، ثم شارك الإمبراطور فردريك بارباروسا Fredrich Bar-barossa فى أحداث الصليبية التى جرت فيما بعد حطين وإنجازاتها، وخلال حصار عكا ظهر إلى الوجود تنظيم حربى سمى تنظيم التيوتون كان فى حقيقته صنيعة ألمانية ، غير أن الإسهام الألمانى الأكبر تمثل فى دور الإمبراطور فردريك الثانى الذى نجح فى تحقيق ما عجز عن تحقيقه ملوك فرنسا ، وإنجلترا، ويكفيه استعادته لبيت المقدس دون خوض أى صراع عسكرى وبدبلوماسية بالغة الدهاء ، وسط تخاذل وتفريط أيوبى غير مسبوق ،ولذلك عد الدور الألمانى حينذاك دورًا غير مسبوق دعم شأن السياسة الخارجية الألمانية .

وسواءً تحدثنا عن طابع فرنسى أو إيطالى أو إنجليزى أو ألمانى فالأمر المؤكد ؛ أن الحروب الصليبية عدت مجالاً رحبًا للتنافس الدولى بين القوى الأوربية بصورة غير مسبوقة على نحو أكد أن ذلك المشروع كان الهدف من ورائه- إلى جانب الأهداف الأخرى- اختبار ولاء الدول الأوربية تجاه البابوية التى أرادت أن يتنافس الجميع من أجل كسب ودها ، ومخاطبة رضاها

ولذلك تسارع الملوك والأباطرة من أجل تنفيذ المشيئة البابوية ، وإرادة الجالس على مقعد القديس بطرس في روما خوفًا من الحرمان الكنسى الذى مَثَّل الفزع الأكبر ، والخوف الأعظم فى وجه أولئك القادة السياسيين للغرب الأوربى فى ذلك العصر.

والملفت للانتباه هنا؛ أن كافة تلك القوى تنافست على منطقة واحدة ذات ثراء عريض فى عالم التجارة والسياسة فى العصور الوسطى ؛ وخاصة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين فى صورة شرقى البحر المتوسط الذى مثل منطقة قلب العالم، ومركز الجذب لحركة التاريخ الأوربى فى ذلك الحين؛ إذ أن تاريخ القارة الأوربية خلال قرنى الصراع المذكور كان جزءًا محوريًا منه خارج حدودها وبالتحديد شرقى البحر المتوسط .

-٧-

لاحظ السندباد أن من المنعطفات التاريخية ذات الأهمية الكبيرة، ما حدث خلال عام ١٢٤٤م / ٦٤٢هـ، عندما وقعت معركة غزة الثانية التى التقى فيها الخوارزمية - الذين أخضع الغزو المغولى بلادهم فاتجهوا غربًا يقدمون جهدهم الحربى لمن يدفع لهم الأموال الأوفر- وحلفاؤهم فى صورة الجيش الأيوبى فى مصر، فى مواجهة الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، وحلفائه من الصليبيين، وكان النصر حليفًا للفريق الأول، وعدت تلك المعركة بمثابة حطين الثانية ونتج عنها استرداد بيت المقدس فى قبضة المسلمين؛ حيث ظلت كذلك طوال سبعة قرون كاملة حتى دخلها الإنجليز فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٧م / ١٣٣٣-١٣٣٦هـ) ليشجعوا من بعد ذلك قيام دولة يهودية عنصرية على ثرى فلسطين وهو أمر له حديث آخر فى ختام هذا الكتاب .

أدت استعادة المسلمين لبيت المقدس إلى قيام حملة صليبية جديدة وقاد أمرها ملك فرنسا لويس التاسع Louis VII (١٢٢٦-١٢٧٠م / ٦٢٤-٦٦٨هـ) الذى عرف فيما بعد - لدى الأوربيين- بالقديس لويس، وألف عنه جان دى جوانفيل كتابه الشهير عن سيرة حياة القديس لويس، ومع ذلك فإن رؤية ذلك المؤرخ الفرنسى لاتلزمنا ، فلم يكن ذلك الملك الفرنسى فى كافة توسعاته ينطلق من منطلقات دينية بل سياسة واقتصادية ، ولها القدح المعَلّى ؛ إذ أراد دعم النفوذ السياسى لأسرة آل كابيه الحاكمة فى فرنسا ومواصلة مشروعها لنهب ثروات شرق البحر المتوسط الذى كان حينذاك بمثابة الكنز الذى لاينضب ، وإظهار فرنسا- فى ذات الحين- بمظهر القوة السياسية التى لاتزال أمًا للصليبيات، ومتفوقة فى هذا السبيل على منافستها التقليدية إنجلترا، إذ لم يكن لتلك الدولة أن تتخلى فى يسر وسهولة عن مكاسبها السياسية والاقتصادية التى ظلت تسعى لتحقيقها طوال قرابة قرن ونصف من عمر الزمان .

مهما يكن من أمر ؛ اتجه ذلك الملك الداهية الذى اتشح بثياب الرهبان والقديسين إلى غزو مصر كامتداد لصليبيات القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى. غير أن المماليك داوية الإسلام الذين كانوا يخدمون الأيوبيين تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالصليبيين عند فارسكور ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ، وتم أسر ذلك الملك فى دار القاضى ابن لقمان بالمنصورة وما زال ذلك الموقع يعد مزارًا سياحيًا لكل من يريد رؤية مظهر الإذلال الفرنسى على أرض الكنانة فى العصور الوسطى.

ويلاحظ أن فدية مالية كبيرة تم دفعها من أجل إطلاق سراح لويس التاسع الذى توهم أن أرض الكنانة سهلة المنال ، فإذا بها تفترس مشروعه الصليبى الذى باء بالفشل الذى لافشل من بعده، وهكذا ؛ أثبتت الدولة الأيوبية قدرتها الفذة على مواجهة العديد من الحملات الصليبية التى استهدفت المنطقة ، سواء من خلال حملة ١١٨٩- ١١٩٢م / ٥٨٥-٥٨٨هـ ، أو فى صورة حملة ١٢١٨-١٢٢١م / ٦١٥-٦١٨هـ ، وكذلك حملة ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ . وكل ذلك يثبت لنا ضخامة حجم المؤامرات التى تعرضت لها مصر الأيوبية من جانب القوى الصليبية فى الغرب الأوربى سواء من فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا وخرجت - بعون الله تبارك وتعالى- مظفرة .

وبصفة عامة؛ سقطت الدولة الأيوبية عام ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ فى عهد آخر سلاطينها تورانشاه الذى مات حريقً غريقًا بعد الفتك به على أيدى المماليك، ومن الضرورة بمكان إدراك تقييم لدور تلك الدولة فى دائرة الصراع الإسلامى- الصليبى- ومن الملاحظ هنا، أن الدولة الأيوبية عمَّرت من ١١٧١م / ٥٦٧هـ إلى ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ أى نحو ثمانين عامًا، وهى بذلك أقصر من نصف عهد الدولة الفاطمية السابقة عليها، غير أن العبرة فى التاريخ ليست بطول مدة وجود الدول، بل فى حجم كفاءة الفعالية التاريخية، فقد تفوقت على الدولة الفاطمية ويكفى أنها أدت إلى إسقاط مملكة الصليبيين ، وإفشال كافة محاولات الاختراق الأوربى لقوتها وذلك باستثناء اتفاقية ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ، وهى ثغرة فى تاريخها .

زد على ذلك؛ أن من عباءة الدولة الأيوبية خرجت الدولة المملوكية التى قامت بدورها الفعَّال فى مواجهة بقايا الصليبيين فى بلاد الشام إلى أن أمكن طرد الغزاة كلية من المنطقة .

مهما يكن من أمر فلايذكر المماليك دون أن يشير السندباد إلى أمر معركة عين جالوت التى جرت فى ٣ سبتمبر عام ١٢٦٠م / ١٥ رمضان ٦٥٨هـ، إذ التقى المماليك وعلى رأسهم سيف الدين قطز ، وبيبرس مع المغول الذين أسقطوا الخلافة العباسية عام ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ، وعلى أرض فلسطين- التى لها دومًا مع التاريخ موعد إثر موعد - تم قهر الإعصار الذى قدم من الشرق، وتم إيقاف الغزو المغولى خارج حدود مصر، وتعد تلك المعركة وبحق معركة حاسمة فى تاريخ المسلمين فى القرون الوسطى، ويكفى أنها أوقفت المد المغولى عند هذا الحد الآسيوى.

ولايغفل السندباد أن تلك المعركة حمت القلعة الأخيرة من قلاع الحضارة الإسلامية فى صورة القاهرة من التدمير الذى حل ببغداد من قبل، كذلك تم القضاء على التحالف المغولى الصليبى ضد مصر ، ومن بعد ذلك تم التفرغ لمواجهة الصليبيين فى بلاد الشام .

على أية حال ؛ من بعد أن أخفق الملك لويس التاسع فى مصر راودته أحلام الفارس القديم فقرر الاشتراك فى حملة صليبية جديدة عام ١٢٧٠م / ٦٦٨ - ٦٦٩هـ، على الرغم من أقرب المقربين له - فى صورة جان دى جوانفيل- حَذَّره من ذلك ، وعلى الرغم من أنه بلغ من الكبر عتيًا إلا أنه أصر على ذلك الأمر، وهاجم تونس التى كان يحكمها عندئذ الحفصيون فى صورة المستنصر الحفصى (١٢٤٩-١٢٧٧م / ٦٤٧-٦٧٥هـ) ، وآراد ذلك الملك أن ينصر الحاكم الحفصى تمهيدًا لتنصير التونسيين ، كذلك هدف إلى آن يدعم النفوذ الفرنسى السياسى والاقتصادى غربى البحر المتوسط خاصة مع ملاحظة قرب تونس من فرنسا، غير أن كافة تلك الأحلام الفرنسية الحمقاء ذهبت آدراج الرياح ، فلم يتنصر المستنصر، بل قاد شعبه لمقاومة الغزاة ، وانتشر المرض فى صفوف الفرنسيين وملكهم وفتك به الوباء فى ٢٥ آغسطس ١٢٧٠م/ ٦ محرم ٦٦٩هـ . وبذلك اتحدت تونس مع شقيقتها مصر فى صنع هزيمة ذلك الملك الواهم العجوز، فنصف الهزيمة كان فى فارسكور، والنصف الآخر على أرض تونس الشقيقة.

وهكذا: كانت نهاية رجل الاستعمار الفرنسى فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى ، وما كان فى حقيقته قديسًا بل استعماريًا عتيدًا ، ولانغفل هنا آنه يعد الوحيد من بين ملوك فرنسا الذى شارك فى حملتين صليبيتين فى صورة حملتى ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ ، ١٢٧٠م / ٦٦٨ - ٦٦٩هـ، وهو يشابه فى ذلك الإمبراطور الألمانى فردريك باربروسا الذى شارك فى أحداث صليبية ١١٤٧-١١٤٩م / ٥٤٢-٥٤٤هـ ، وصليبية ١١٨٩-١١٩٢م / ٥٨٥-٥٨٨هـ ، ولايفسر ذلك إلا من خلال مجموعة الدوافع السياسية والاقتصادية التى حركته مثلما حركت فردريك باربروسا ذاته .

على أية حال ؛ لم تتوقف الصليبيات عند ذلك الملك الفرنسى، فقد قام الأمير إدوارد - وهو الذى سيتولى حكم إنجلترا تحت اسم الملك إدوارد الأول- بصليبية عام ١٢٧١م / ٦٦٩هـ غير أنه أخفق هو الآخر وتعرض لمحاولة اغتيال على آيدى الإسماعيلية النزارية .

لاحظ السندباد حقيقة محورية لاسبيل لإنكارها، تتمثل فى آن كافة الحملات الصليبية التى أتت بعد الحملة الافتتاحية التى دعا إليها البابا آوربان الثانى فى عام ١٠٩٥م / ٤٨٨هـ ، لم تحقق نجاحًا جذريًا ، وتستوى فى ذلك حملات القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، وكذلك القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى، ووجدت عدة عوامل ساعدت على تلك الظاهرة ، منها اختلاف الأجيال الصليبية بين جيل التأسيس والتشييد القوى، والآجيال

اللاحقة المتمشرقة - كما أسلفت الإشارة من قبل- كذلك هناك فعاليات حركة الجهاد الإسلامى وظهور القادة الكبار الذين قاوموا الصليبيين قدر استطاعتهم، ويضاف إلى ذلك تطورات سياسية على أرض القارة الأوربية جعلت ارتباط الغرب الأوربى ليس بذات الدرجة التى كان عليها خلال مراحل سابقة فى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى على سبيل المثال ، كذلك نذكر تناحر الصليبيين فى بلاد الشام وتصارعهم ؛ على نحو أدى إلى ذهاب ريحهم وبذلك أفاد أعداءهم المسلمين ، ولعل القارئ قد أدرك أن من أسباب ذلك التناحر؛ تزايد الجشع الصليبى والرغبة المتزايدة فى تكوين مكاسب سريعة على حساب المسلمين ، وهنا كانت تظهر عوامل الاختلاف بين المصالح المحركة لأطراف المشروع الصليبى، ناهيك عن أن الصليبيين نقلوا خلافاتهم الأصلية على القارة الأوربية إلى بلاد الشام، وانعكس ذلك بدوره على جدوى الحملات الصليبية التالية على حملة افتتاح المشروع الصليبى ذاته .

على أية حال ؛ سقطت الدولة الأيوبية، وقامت على أنقاضها الدولة المملوكية البحرية، ومن المقرر أن الظاهر بيبرس البندقدارى يعد- وبحق- المؤسس الفعلى لدولة سلاطين المماليك، وقام بأعمال ذكرها له التاريخ منها إعادة الخلافة العباسية بعد سقوطها فى بغداد ؛ من أجل أن تكون حامية للماليك ، وتضفى على حكمهم المشروعية السياسية اللازمة- ثم هناك تقليمه لأظافر عناصر الحشاشين أو الاسماعيلية النزارية حتى وصل به الأمر أن تدخل فى تعيين مقدميهم غير أن أهم أعماله التى جعلته يحتل مكانة بارزة فى تاريخ الصراع الإسلامى- الصليبى ما يتصل باسقاط المسلمين فى عهده لإمارة أنطاكية الصليبية، وهى تلك الإمارة التى تنازع عليها المسلمون ، والبيزنطيون ، والصليبيون طوال ما يزيد على قرن ونصف من الزمان، وقد أدرك السندباد من قبل كيف أن نور الدين محمود حقق عدة انتصارات على الصليبيين، وكانت أبواب أنطاكية مهيأة ليطرقها غير أنه لم يقدم على ذلك خوفًا من التدخل البيزنطى الذى كان يخشى دومًا من أن يخل بموازين القوى السياسية فى المنطقة لغير صالح دولته . كذلك لانغفل الصراع البيزنطى- الصليبى بشأن تلك الإمارة على نحو أوجد ما عرف بالمشكلة الأنطاكية فى السياسة البيزنطية ، وسعى الإمبراطورية البيزنطية الملح من أجل استعادتها من أيدى الصليبيين تنفيذًا لاتفاقية القسطنطينية التى وقعت بين الطرفين عام ١٠٩٧م / ٤٩١هـ، ولم يحترمها الصليبيون .

غير أن الأيام أثبتت أن المشكلة الأنطاكية ؛ لم تحل على أيدى البيزنطيين أو الصليبيين، بل

على يد قوة جديدة فتية- وصفت من جانب المؤرخ الكفيف البصر، قوى البصيرة ابن واصل بأنها داوية الإسلام- فى صورة قوة المماليك فى عهد بيبرس حيث حاصرها عام ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ وأسقطها فغنم المسلمون من وراء ذلك مغانم وفيرة وأدى إسقاطها إلى توجيه ضربة عسكرية وسياسية قوية للكيان الصليبى فى بلاد الشام. ولم يعد هناك وجود قائم من ذلك الكيان الغريب عن المنطقة سوى إمارة طرابلس، وبقايا متناثرة لمملكة بيت المقدس الصليبية، كذلك ارتفع شأن بيبرس باعتباره أحد فرسان الإسلام الكبار فى عصر الصراع الإسلامى- الصليبى، ومن الأمور ذات الدلالة ظهور سيرة شعبية عنه ظلت تتردد لقرون عديدة فى أنحاء الريف المصرى ، بعد أن جعله الخيال الشعبى المصرى فارسًا مجاهداً ضد المغول ثم الصليبيين.

ولانغفل أنه بإسقاط إمارة أنطاكية الصليبية : عاد التجانس الجغرافى والتاريخى لشمال الشام الذى عانى طويلاً من وجود جسد أجنبى غريب عنه طوال ما يزيد على قرن ونصف من الزمان .

زد على ذلك؛ اتضح لنا بجلاء أن المماليك يسيرون على ذات الدرب الذى سار عليه الزنكيون من قبل، ومن بعدهم الأيوبيين، فى صورة تصفية بقايا الوجود الصليبى فى بلاد الشام، ويعنى ذلك أن هناك استراتيجية عليا لدى الأنظمة الإسلامية القائمة لاتتبدل بتغيير الأسرات الحاكمة أو تبدل السلاطين، ودل ذلك- وبحق- على أن حركة الجهاد الإسلامى تواصل طريقها بعد أن بلغت شن الرشد فى نفس الحين الذى دب الضعف فى الجسد الصليبى، الذى آن الأوان كى تلفظه المنطقة بعد أن ظل جاثمًا على صدرها نحو قرنين من الزمان.

وشاهد السندباد جعبة الجهاد الإسلامى تطلق سهمًا فاتكًا من سهامها المباركة فى صورة السلطان المنصور قلاوون الذى تمكن المسلمون فى عهده من إسقاط إمارة طرابلس الصليبية عام ١٢٨٩م / ٦٨٨هـ، وبالتالى كانت آخر الإمارات التى يسقطها المسلمون، أما الأسباب التى جعلتها كذلك، فربما يرجع إلى وجود عناصر الموارنة فى المناطق الجبلية ؛ وهم الذين قدموا كل عون ممكن للصليبيين ولانغفل أن الأخيرين راهنوا على المسيحيين الشرقيين فى المنطقة من أجل دعم مشروعهم على حساب الكيان الإسلامى .

لقد أدى إسقاط تلك الإمارة الصليبية إلى آن صار الصليبيون لايملكون إلا بقايا مملكة

بيت المقدس، ودل ذلك أن ساعات الاستمرار لدى ذلك المستعمر أو المستخرب الأجنبى قليلة إلى حد بعيد.

وإلى جانب الإنجاز الذى حققه المنصور قلاوون ؛ قام ابنه الأشرف خليل بحصار عكا عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ بجيش ضخم، وآلات حصار كبيرة، وفعالة فى صورة المنجنيقات ، ويلاحظ أن عمره حينذاك لم يتجاوز بضع وعشرين عامًا، على نحو يكشف لنا أن مدرسة البطولة الإسلامية فى ذلك العصر؛ لم تعرف عمرًا محددًا لدخول بوابة التاريخ، ومن الممكن لشاب فى العشرينيات من عمره أن يطرق بوابة الخلود بكل ثقة واقتدار بتوفيق الله عز وجل .

شاهد السندباد مظاهر الفساد والانحلال فى مدينة عكا قبيل مقدم المماليك إليها؛ على نحو جعلها مقصد من ساروا وراء شهواتهم، وكان الحى الأحمر بها قد حقق شهرة واسعة فى هذا الشأن الفاسد كما أسلفنا الإشارة من قبل ، ناهيك عن الصراع بين مختلف الأمم والأجناس فيها من أجل المال ولاشئ غيره ، ولذلك من الأصوب القول أن عكا سقطت من الداخل قبل أن تسقط من الخارج ، وما دور المماليك فى هذا الشأن إلا تكملة الانهيار الداخلى الذى أصاب تلك المدينة التى جعلها الصليبيون مركزهم السياسى والاقتصادى الرئيسى لاسيما بعد عودة بيت المقدس للسيادة الإسلامية بعد حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ .

وفى تلك المدينة وجدت عناصر من الرهبان الفرسان الصليبيين مثل الاسبتارية ، والداوية ، والتيوتون، وفرسان القديس لازاروس ، وفرسان تنظيم القديس توماس، ودافع أولئك الفرسان عن الوجود الصليبى دفاعًا مستميتًا ، ومع ذلك تعجب السندباد من بعض المؤرخين الغربيين الذين عملوا على وصف تلك المقاومة بأنها «بطولية» : إذ أن فى ذلك قلبًا للموازين ، فليست هذه أرضهم الأصلية كى يدافعوا عنها دفاعًا يوصف بأن «بطولى»، بل كانت مقاومتهم من خلال استمساكهم بتلك المنطقة التى حصلوا من ورائها على الأموال الطائلة ، ودائمًا وأبدًا نجد «البطولة» ترتبط بأبناء المنطقة أنفسهم الذين يدافعون عن أرضهم ، ولم يغتصبوها .

لقد وصف كل من أبى الفداء ، وبيبرس الدوادارى ؛ ظروف حصار عكا ؛ جوهرة الساحل الشامى لقد كانت «معركة النهاية» معركة فادحة وكان الصراع بشأنها محتدمًا إلى أن تمكن داوية الإسلامية من استرداد المدينة لحضن ديار الإسلام، بعد أعوام طويلة قضتها فى الأسر الصليبى، لقد نذكر السندباد ، كيف دخل الرحالة الأندلسى ابن جبير تلك المدينة وهى تحت

السيادة الصليبية ، وشعر بمرارة لا مرارة بعدها ، وأحس بالألم النفسى الذى لايوصف، وهى تبتعد عن المظاهر الإسلامية ، وتتحول إلى آن تكون مدينة صليبية لها كثافة سكانية كبيرة ، وبها مظاهر فساد استحى أن يذكرها فى رحلته ، وشعر بالندم لقدومه لتلك المناطق ، بل أورد نصيحة للمسلمين بأن يحاذروا من دخول مناطق الغزاة ، واعتبرها ذلة قدم أتت به إلى هناك.

أدرك السندباد ؛ أن إسقاط عكا فى قبضة المماليك لم يكن إسقاط مجرد مدينة فلسطينية ساحلية كانت تحت السيادة الصليبية ، بل أنها مثلت طعنة نجلاء ، وضربة فى الصميم للكيان الصليبى فى بلاد الشام ؛ إذ عمت فرصة النصر كافة أنحاء ديار الإسلام، وانتكست راية الحرب الصليبية التى شنها الغرب الأوربى بفضل جهاد المماليك الذين تأكد للباحثين أنهم بالفعل حماة الإسلام وكماته المدافعين عن أعراضه وحياضه .

ومن بعد عكا تم إسقاط مراكز ثانوية أخرى مثل عثليث وغيرها، وبالفعل تم استردادها هى الأخرى .

وهكذا : عادت وحدة بلاد الشام الجغرافية كاملة غير منقوصة بعد طرد الغزاة من أرضها، كذلك تم تصحيح الخطأ التاريخى القتَّال الذى نتج عن التشرذم والفرقة بين المسلمين أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى، على نحو أثبت للسندباد بصورة وضّاحة ، كيف أن مثل تلك الأخطاء تحتاج إلى عقود طويلة من أجل تصحيحها، وهو ما حدث بالفعل وكم كان الطريق طويلاً ، وكم كان شاقًا حتى على المشقة ذاتها !! تكلف المسلمون فيه عشرات الآلاف من الشهداء وتيتم الأبناء ، وترملت النساء ، وهدمت المنازل ، وأحرقت الحقول لاسيما فى المناطق الحدودية، كل ذلك من جراء مواجهة ذلك الغزو الدموى المدمر الذى تعرضت له المنطقة .

-٨-

وقد سأل البعض السندباد ماذا عن مظاهر الحياة الفكرية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ؟ وهل كانت كافة الأحداث تتسم بالطابع الحربى والسياسى أم أن هناك جوانب أخرى لم تحتويها الأحاديث السابقة؟ .

وواقع الأمر: أن الصليبيين عندما قدموا إلى بلاد الشام فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، كانت تلك البلاد على الرغم من الانقسام السياسى تعيش مرحلة من مراحل النهضة العلمية والصحوة السنية الصحوة السنية التى أحدثها السلاجقة ، والتى استمرت فيما بعد فى عهود الزنكيين، والأيوبيين، والمماليك، ويكفى أن نذكر فى هذا المجال حركة تشييد المدارس التى عدت جامعات المسلمين فى القرون الوسيطة ، وينبغى أن نذكر هنا أن المسلمين عرفوا الجامعات من قبل أوربا ، ونذكر كذلك المساجد الجامعة التى شهدت حركة علمية نشطة مثل المسجد الأموى فى دمشق ، والجامع الأزهر فى مصر - الشقيقة الجغرافية والتاريخية لبلاد الشام- - ولذلك يمكن القول أن عالم الإسلام عرف مثل تلك المؤسسات العلمية التى هى بمثابة جامعات من قبل أن تعرف أوربا جامعاتها مثل جامعة باريس Patis، وبولونيا Polonia، وسالرنو Salerno . وقد دَرَّس فى تلك المؤسسات العلمية كبار العلماء، والفقهاء، وأدت إلى إحداث نهضة علمية، وبعث روحى سنى دعم - فيما بعد- موقف المسلمين فى مواجهة الصليبيين. ولاتفهم حركة الجهاد الإسلامى ضد الغزاة خلال ذلك العصر إلا من خلال حركة البعث العلمى والروحى التى حدثت حينذاك . ويكفى أن نذكر أن تلك المرحلة توصف بأنها عصر المدارس التى خرجت عشرات الفقهاء والعلماء الذين دعموا الحركة الفكرية فى ذلك العصر، ويلاحظ أن التحدى الصليبى للمنطقة أوجد استجابة إسلامية غير مسبوقة تجلى مظهرها الحربى فى حركة الجهاد ، ومظهرها الفكرى فى ظهور مفكرين فى كافة المعارف، والعلوم بأعداد كبيرة - بنوعية متميزة فى التأليف ولاتزال آثارهم لدينا تعكس مدى الرقى الذى وصلت إليه قرائح المفكرين فى ذلك العصر . وبصفة عامة: لم يكن هناك انفصال بين أهل السيف ، وأهل القلم حينذاك ، فكل عمل فى مجاله مع ملاحظة رعاية الأسرات الحاكمة لأولئك الأعلام والإنفاق عليهم بسخاء .

ومن الملفت للانتباه : ظهور كوكبة غير مسبوقة من الأعلام فى كافة العلوم والمعارف فى بلاد الشام حينذاك، ففى مجال الكتابة التاريخية نذكر من مؤرخى ذلك العصر، ابن القلانسى (ت٥٥٥هـ / ١١٦٠م) الذى عمل رئيسًا لديوان الإنشاء بدمشق وألف كتابه الوافر القيمة «ذيل تاريخ دمشق» الذى جعله ذيلاً على كتاب ابن هلال الصابى، كذلك نذكر المؤرخ العراقى البارز ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) الذى ألف «الكامل فى التاريخ»، و«الباهر فى دولة الأتابكة بالموصل» و«اللباب فى تهذيب الأنساب »، و«أسد الغابة فى معرفة الصحابة» . وهو مؤرخ من الأفذاذ الذين أنجبهم العراق فى القرون الوسطى، وتعد مؤلفاته نقله لايستهان بها فى مجال تطور الكتابة التاريخية لدى المسلمين ، ومما يجدر ذكره عنه : ارتباطه الكبير بالأسرة الزنكية على نحو جعله يقدم كتابة تاريخية عنهم تستهدف الحقيقة التاريخية ، وأحيانًا الدعاية السياسية لهم.

ومن زاوية أخرى؛ نجد أن ذلك المؤرخ نقم على صلاح الدين الأيوبى ما بلغه من مكانة سياسية لاتبارى، فأخذ يترصد له أخطاءه ويبرزها ، فهاجمه في مؤلفاته فى أكثر من موضع – كما أسلفت الذكر– ومع ذلك فقيمة هجومه عليه أنه أوضح لنا الرأى الآخر المعارض ، فلم يكن هناك فقط من يدافع عنه ويؤيده دومًا ، بل لدينا من قال «لا» لذلك السلطان عندما كتب مؤلفاته التاريخية التى تناولته، وتلك زاوية إيجابية لاننكرها، مع إدراكنا لتأثير التحزب السياسى على رؤية ذلك المؤرخ للمؤسس الأيوبى البارز، وكذلك مؤرخى ذلك العصر بصفة عامة دونما استثناء إلا فى النادر.

وبصفة عامة؛ تظهر قيمة ما ألفه ابن الأثير خلال المرحلة التى عاصرها أما المرحلة السابقة عليها فقد اعتمد فيها على مصادر تاريخية فى أغلبها وصلت إلينا ومن اليسير مطالعتها .

ولانغفل ابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م) : وهو فقيه ، ومحدث ، ومؤرخ ، وقد ألف كتابه الشهير تاريخ مدينة دمشق، وكان يقع فى ثمانمائة جزء جمعوا فكانوا ثمانين مجلدًا، فهو أكبر تاريخ ألفا عن مدينة من مدن الإسلام، أورد فيه الأعلام من الرجال والنساء الذين ولدوا أو عاشوا أو مروا بدمشق ويتسم بالتفاصيل المسهبة ، ويعد مصدرً تاريخيًا لاغنى عنه لمن يتناول تاريخ عاصمة الشام التاريخية العريقة والمجيدة .

ومما يذكر عن ذلك العلم ؛ أنه قام برحلات عديدة فى أنحاء المشرق الإسلامى طلبًا للعلم، وتلقى العلم على أيدى مئات العلماء والفقهاء ، إلى الحد الذى جعله يؤلف كتابًا عن الشيوخ الذين درس على أيديهم فبلغوا نحو ١٢٨٠ عالم وعالمه ، وهو أمر نادر المثال بكافة المقاييس.

ويلاحظ آن ابن عساكر له مؤلفات أخرى مثل الانذار بوقوع الزلازل ، وكتاب تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى وغيرها من المؤلفات .

ثم هناك بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) الذى عمل قاضيًا للعسكر فى الجيش الأيوبى، وقد ألف سيرة صلاح الدين الأيوبى بعنوان «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وتعد أمتع سيرة تاريخية لأحد قادة المسلمين فى ذلك العصر ، ونجد نبضات قلب السلطان الأيوبى فى ذلك الكتاب، وكذلك أفراحه ، وأحزانه ، انتصاراته وهزائمه بصورة تحوى جانبًا كبيرًا من صدق الشعور ، وسلاسة التعبير : على نحو يندر وجوده فى كتاب ذلك العصر الذين ولعوا بالمجسنات البديعية والزخارف اللفظية.

ومن الملفت للانتباه : أن ابن شداد كان من مدينة الموصل بشمالى العراق، وهو للسلطان الأيوبى من المحببين ، ومن نفس المدينة ؛ كان ابن الأثير الذى كان لنفس السلطان من المتحفظين إن لم يكن من الكارهين كما لاحظنا من قبل.

ولايغفل السندباد بين مؤرخى ذلك العصر، العماد الكاتب الأصفهانى (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) الذى ألف عدة مؤلفات منها «البرق الشامى»، «والفتح القسى فى الفتح القدسى» وخريدة القصر وجريدة العصر وغيرها من المؤلفات، ومما يذكر عن العماد الكاتب الأصفهانى، آنه عمل رئيسًا لديوان الإنشاء الأيوبى وكان قريب الصلة بصلاح الدين الأيوبى، غير أن المحسنات البديعية التى كلف بها ، وملكت عليه فؤاده : جعلت الإفاده من مؤلفاته فى المجال التاريخى تحوى جانبًا من الصعوبة ، ومع ذلك، فإن ذلك لايقلل من قيمة ذلك المؤرخ الذى جمع بين التاريخ والأدب حيث نعرف آنه كان شاعرًا وله العديد من القصائد ومنها ما مدح به السلطان الأيوبى.

ومن المهم أن نذكر هنا؛ آن البعض يخلط بين اثنين من المؤرخين حملا اسم العماد الأصفهانى، الأول الذى تناولته السطور السابقة والثانى هو القاضى عماد الدين الأصفهانى الذى توفى بعد عام ٥٩٧هـ / ١٢٠١م ، وله كتاب عرف باسم «البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان»، ويلاحظ أن الأول كان قريب الصلة بالسلطان الأيوبى ، أما الثانى فلم يكن على نفس ذلك القدر الرفيع ؛ وهو أمر انعكس بجلاء فى كتابته التاريخية ذاتها .

ويضـاف إلى ذلك : هناك القـاضى الفـاضـل (ت ق٦هـ / ١٢م) وله إنشـاءات القـاضى الفاضل، وكذلك نذكر النابلسى (ت ق٦ هـ / ١٢م) وله كتاب«لمع القوانين المضيئة فى دواوين الديار المصرية، كما أنه مؤلف كتاب فريد عن تاريخ الفيوم عنوانه «صنعة الحى القيوم فى تراتيب ديار الفيوم ويعكس الأوضاع الحضارية فى العصر الأيوبى خاصة فى ذلك الإقليم المزدهر من أقاليم مصر حينذاك.

ولانغفل ذكر ابن واصل (ت ٦٩١هـ / ١٢٩١م) المؤرخ الكفيف صاحب البصيرة وله كتابه «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» ، وابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م) الذى رأس ديوان الإنشاء فى عهد الظاهر بيبرس وله كتاب الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، والذى تناول فيه سيرة السلطان الظاهر بيبرس النبدقدارى - ولانغفل هنا: وجود سيرة شعبية للظاهر بيبرس صدرت عن الخيال الشعبى الذى اعتبره فارسًا صنديدًا ، وظلت تتردد فى الريف المصرى لقرون وقرون، وتعد من المصادر التاريخية المهمة عن عصر ذلك السلطان المجاهد- وله كذلك كتاب «تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور» وشافع بن على (ت ق٧ هـ / ١٣ م) مؤلف «حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية»، وكتاب الفضل المأثور ، ثم أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) وهو من الأسرة الأيوبية وله كتاب المختصر فى أخبار البشر، وبيبرس الدوادارى (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) وهو مثل سابقه أبى الفداء كان شاهد عيان لاسقاط عكا فى قبضة المماليك عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ ، وله كتاب زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة، ويمثلان معًا مؤرخين معاصرين وشاهدى عيان لتلك الأحداث البالغة الأهمية .

وفى مجال الجغرافيا ، وأدب الرحلات : كانت بلاد الشام بكل إمكاناتها ، وعوامل الجذب التى توفرت فيها ، وصراع الصليبيين والمسلمين على أرضها مسرحًا للعديد من الأعلام الذين عاشوا فيها ومروا بها، ومن أمثلتهم الشريف الإدريس (ت ق٦ هـ / ١٢م) أشهر الجغرافيين المسلمين فى العصور الوسطى قاطبة ، والخرائطى الموهوب الذى ألف كتابه «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» بناء على طلب من الملك روجر الثانى ملك صقلية Roger II of Sicily : الذى جعل إمكانات دولة النورمان فى صقلية تحت تصرفه ، ثم هناك أيضًا ياقوت الحموى (ت ٦٧٦هـ / ١٢٢٨م) الذى كان أسيرًا من أسرى الروم، وامتلك عقلية فذة لاسيما فى مجال الجغرافيا وألف كتابه الفريد معجم البلدان الذى يوصف- وبحق- بأنه كتاب جغرافيا، وتاريخ

وأدب، وفلكلور لانظير له فى الآداب العالمية فى تلك العصور ، كما قرر المستشرق الروسى كراتشكوفسكى ، ولا يملك المرء عند مطالعة ذلك الكتاب إلا أن يشعر بالتقدير الكامل لذلك الجغرافى الموهوب الذى اتسم بالدقة، والموضوعية ، والقدرة على وصف العدد الوفير من مدن العالم القديم فى ذلك العصر، واحتلت بلاد الشام أهمية خاصة فى كتابه المذكور، كما أن لياقوت كتابًا آخر بعنوان المشترك وضعًا والمفترق صقعًا أورد فيه أسماء المدن والقرى التى تتفق فى حروف كتابتها وتختلف فى موقعها مما عكس قدرته على رصد المواقع الجغرافية المختلفة بدقة كاملة.

ولانغفل فى هذا المجال ؛ أحد الجغرافيين البارزين فى صورة القزوينى (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) وله كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات وكتاب آثار البلاد وأخبار العباد، ويلاحظ أنه اهتم فى مؤلفاته بالجانب العجائبى والأسطورى على نحو قدم لنا جانبًا حيويًا عن معتقدات ذلك العصر، وكذلك نذكر عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) وكتابه الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، وأبو الفداء (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) الذى ألف كتابه «تقويم البلدان»، أما الرحالة ؛ فنذكر منهم السائح الهروى (ت ٦١١هـ / ١٢١٥م) وكتاب الإشارات إلى أماكن الزيارات، وابن جبير (ت حوالى ٦١٦هـ / ١٢١٩م) صاحب الرحلة الشهيرة : الذى يعد أمير الرحالة المسلمين فى عصر الحروب الصليبية ، وتعرض فى رحلته لجوانب من الحياة اليومية والاقتصادية، والدينية ، والاجتماعية فى بلاد الشام بصورة غير مسبوقة وتفيض حيوية ونجد فيها نبض ذلك العصر على نحو لانجده فى المصادر التاريخية الرسمية أو كتب الحوليات ونحو ذلك من مؤلفات . ولانجد مثل تلك الحيوية وبراعة الوصف فى رحلات الأوربيين المعاصرين لتلك المرحلة .

وفى مجال التصوف ؛ نجد أن بلاد الشام كانت ثرية بتلك التجربة الروحية ، وظهرت فيها العديد من الطرق مثل الأكبرية، والبيانية، والحريرية ، والقلندرية ، وغيرها ، وظهر عدد من الأعلام الكبار نذكر منهم السهروردى الحلبى (ت ق٦هـ / ١٢م) والشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى (ت ق٧هـ / ١٣م) وللأول كتاب «حكمة الاشراق» و«الألواح» العمادية » ، و«الغربة الغريبة» أما الثانى فله من المؤلفات مالايحصى نذكر منها على سبيل المثال فقط «الفتوحات المكية»، فصوص الحكم»، «الوصايا» كته مالابد للمريد منه»، «تحفة السفرة فى حضرة الكرام البررة» وغيرها من المؤلفات ويوصف ابن عربى بأنه أكثر الشخصيات الصوفية التى أثارت

جدلاً بين الصوفية والقضاء والبعض اعتبره فى أعلى الدرجات الإيمانية، والبعض الآخر كفَّره، واعتبره مارقًا، وخارجًا عن حدود الإيمان، وبصفة عامة، يوصف ذلك الصوفى البارز بأنه من أكثر الشخصيات الصوفية ثراء بغض النظر عن الاختلاف بشأنه .

وبصفة عامة ؛ ازدهر التصوف فى ذلك العصر يعد أن وجهت للفلسفة لطمة قوية بتأثير دور حجة الإسلام أبى حامد الغزالى (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) الذى ألف كتابه الشهير تهافت الفلاسفة وإن رد عليه فيلسوف الأندلس ابن رشد (ت ق ٦هـ / ١٢م) بكتابة تهافت التهافت ، غير أن تأثير الغزالى فاق تأثير ابن رشد فى العالم الإسلامى أما الأخير فكان تأثيره كبيراً فى أوربا . وامتد ذلك التأثير إلى القديس توماس الاكوينى ودوره فى تاريخ الفكر المسيحى وكذلك تأثر به الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون الذى أثر بدوره فى الفكر اليهودى حينذاك.

وفى مجال الطب ؛ نجد أن بلاد الشام ظهر فيها عدد من الأعلام الكبار نذكر منهم عبد اللطيف البغدادى (ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م) وله قرابة الخمسين كتابًا فى مجالات الطب المتنوعة ، وهناك ابن النقاش (ت ٥٧٤هـ / ١١٧٩م) الذى عمل فى البيمارستان النورى، ولانغفل ذكر ابن المطران (ت ٥٨٧هـ / ١١٩١م) الذى ألف عدة مؤلفات منها نذكر بستان الأطباء وروضة الألباء، وكتاب آداب طب الملوك ، وله أيضًا المقالة الناصرية فى حفظ الأمور الصحية، وعاصر تلك المرحلة رضى الدين الرحبى(ت ٦٣١هـ / ١٢٣٢م) وله عدة مؤلفات منها تهذيب شرح ابن الطيب لكتاب الفصول لابقراط ، واختصار كتاب المسائل لحنين بن رسحاق ، وهناك أيضًا مهذب الدين الدخوار (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) وله عدة مؤلفات نشير إلى عدد منها فى صورة شرح كتاب مقدمة المعرفة لأبقراط، وكتاب اختصار كتاب الحاوى فى الطب للرازى ، ولانغفل الإشارة إلى طبيب بارع آخر عاصر تلك المرحلة، وهو ابن القف (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) ومن مؤلفاته كتاب الشافى فى الطب، والعمدة فى صناعة الجراح ، ونشير كذلك لطبيب بارز آخر هو رشيد الدين بن الصورى (ت ٦٣٩هـ / ١٢٤١م) وله كتاب الأدوية المفردة ، وتعاليق طبية كتبها لابن أبى أصيبعة.

ومن المهم أن نذكر هنا ؛ أن عدداً من الأطباء اليهود برعوا فى عدد من العلوم الطبية فى عصر الحروب الصليبية وينبغى أن نذكر هنا : أن تسامح الإسلام كان العامل الجوهرى وراء مقدم موسى بن ميمون إلى مصر حيث كانت له «عيادته» فى الفسطاط ووصل إلى أعلى الدرجات فى عهد الأيوبيين ، على نحو يثبت أن اليهود فى العصور الوسطى تمتعوا بمكانة

ممتازة ورعاية الأنظمة السياسية الإسلامية بينما اضطهدتهم أوربا واقامت لهم المذابح كما لاحظنا فى الجملتين الأولى والثانية ، ولعل أشهرهم قاطبة موسى بن ميمون (ت ٦٠٢هـ / ١٢٠٤م) - السالف الذكر- الذى كان أحد أطباء صلاح الدين الأيوبى> وتمتع بمكانة سامية لدى ذلك السلطان ، ويلاحظ أنه فيلسوف وحكيم وعالم من علماء العهد القديم وله كتاب شهير عنوانه : «دلالة الحائرين» ، وقد درسه المستشرق إسرائيل ولفنسون فى أطروحة دكتوراه نشرت فى الثلاثينات من القرن العشرين، وكتب مقدمتها عميد الأدب العربى صاحب البصيرة طه حسين.

ولاريب ، فى أن العلوم الطبية ازدهرت فى ذلك العصر ازدهاراً كبيراً، من حيث عدد الأطباء ، ونوعيتهم المتميزة، وكذلك إنشاء العديد ممن البيمارستانات العلاجية والتى كانت أيضاً بمثابة كليات للطب تخرج منها العديدون من عملوا فى ذلك العلم الجليل الشأن العظيم القدر، وقد أكدت وقائع التاريخ أن الصليبيين كانوا أقل معرفة بمراحل فى مجال الطب وفروعه العديدة إذا ما قورنوا بالمسلمين ، ولذلك تعلموا منهم الكثير.

وهكذ ؛ تؤكد الصفحات السابقة لقراء السندباد طبيعة بلاد الشام فى ذلك العصر التى كانت تموج بحركة فكرية ناضجة خلال القرنين الثانى عشر . والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين، بينما كان الصليبيون ليسوا على نفس المستوى الفكرى، ومن المرجح- كما لاحظ يوشع براور Joshua Prawer - أنهم لم يملكوا مؤسسات علمية ذات شأن تستطيع منافسة مؤسسات المسلمين العلمية ، ومع ذلك ؛ لم يعدموا وجود عدد من الأعلام فى مجالات أخرى مثل الكتابة التاريخية ، والرحلات .

فعلى المستوى الخاص بالكتابة التاريخية ظهر لدى الصليبيين عدد من المؤرخين مثل فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres الذى ألف كتاباً بعنوان «تاريخ الحملة إلى بيت المقدس» A History of the Expedition to Jerusalem حيث يهتم بايراد الصراع الحربى بين الصليبيين والمسلمين، ويتعرض لزوايا غير تقليدية مثل أحداث الزلازل ، وإغارات أسراب الجراد، ومعلومات عن علم الحيوان لدى الصليبيين خلال تلك المرحلة المبكرة، وهناك كذلك وليم الصورى William of Tyre مؤلف كتاب تاريخ الأعمال التى جرت فيما وراء البحر، ونشير إلى مؤرخ آخر هو جاك دى ڤترى Jacques de Vitry مؤلف كتاب «تاريخ بيت المقدس» A History of Jersualem غير أن أهم هؤلاء جميعاً هو بلاريب وليم الصورى، ولذلك يجدر بنا إلقاء الضوء عليه على نحو موجز .

وقد ولد وليم الصورى حوالى عام ١١٢٨م / ٥٢٢هـ فى بيت المقدس من أسرة فرنسية الأصل ، وتلقى تعليمه الأولى بها، ثم ذهب إلى الغرب الأوربى حيث تلقى تعليمه هناك على مدى عشرين عامًا خلال المرحلة من ١١٤٢-١١٦٢م / ٥٣٧-٥٥٨هـ ، فى وقت كان الغرب الأوربى يعيش نهضة القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى ثم عاد أدراجه إلى المملكة الصليبية حيث اتصل بالملك عمورى (١١٦٣-١١٧٤م / ٥٥٩-٥٧٠هـ) وطلب منه الأخير أن يؤلف كتاباً يتناول فيه ملوك الصليبيين ويلاحظ أن إمكانيات المملكة الصليبية - لاسيما- الوثائق- وضعت تحت أمره وتصرفه من أجل مباشرة تأليف الكتاب المذكور ، وهو يشبه فى ذلك الإدريسى الذى ألف كتابه نزهة المشتاق وتحت يديه امكانيات دولة النورمان فى صقلية ، مع اختلاف طبيعة الرجلين ومجال التأليف بطبيعة الحال.

لاحظ السندباد أن ذلك المؤرخ الصليبى امتلك قدرات خاصة ، فهناك الموهبة، واتقان عدة لغات أجنبية منها اليونانية واللاتينية والعبرية واللغة العربية، والخلفية العميقة فى مجال التراث الكلاسيكى اليونانى واللاتينى ، والقدرة على التحليل والرجوع إلى أصول الأشياء ، والموضوعية فى أحيان كثيرة على نحو جعله يقدر قادة المسلمين مثل نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبى ، كذلك اتجه إلى نقد الصليبيين فى أكثر من موضع مثلما أخذ على الصليبيين مهاجمتهم أتابكية دمشق خلال أحداث بانياس عام ١١٥٧م / ٥٥٢هـ على الرغم من وجود اتفاقية هدنة بين الجانبين، كذلك لومه الشديد لعناصر فرسان المعبد أو الداوية ، ثم نقده للأجيال الصليبية التى تمشرقت وضعفت لديها دافعية القتال ، ولم يعودوا يملكون ذات الصفات التى كانت لدى جيل التأسيس القوى .

ولايبالغ السندباد إذا تصور أن المؤرخين الصليبيين السابقين لوليم الصورى على أرض بلاد الشام لم يكونوا على نفس المستوى من براعته فى الكتابة التاريخية ، إنه مؤرخ مفاجأة ، يفاجئنا بعمق الرؤية والتفاصيل الضافية فى كل ما يكتب ، ومن الأمور الملفته للانتباه أنه توقع سقوط مملكة الصليبيين قبل حدوث ذلك أى أنه امتلك «رؤية مستقبلية»، أقول ذلك التعبير على الرغم من أن الرجل كان يكتب تاريخه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى أى منذ ثمانية قرون كاملة وعلى الرغم من جوانب التعصب المقيت فى تاريخه ضد المسلمين وهى متوقعة من خلال إدراكنا لطبيعة ذلك العصر .

تبقى كلمة أخيرة فى أمر ذلك المؤرخ الفذ ، إذ آن براعته كمؤرخ جاءت – بالإضافة إلى العوامل العديدة التى سبق وأن ذكرتها– من خلال كونه مؤرخًا مهجنًا، ونتاجًا لتلقيح الحضارات : أى حضارة الغرب الأوربى فى خلال نهضة القرن الثانى العشر الميلادى / السادس الهجرى ؛ وهى أخطر النهضات الأوربية فى العصور الوسطى قاطبة ، وحضارة الإسلام بحكم حياة ذلك المؤرخ على آرض الشام، واتقانه اللغة العربية وهى جسر حقيقى لحضارة الإسلام إلى الحضارات الأخرى

وعلى الصعيد الجغرافى: قدم إلى مناطق الصليبيين العديد من الرحالة من جنسيات متعددة: من آجل الحج إلى المحارم المسيحية واليهودية المقدسة ، ومن أمثلتهم سايولف Sae-wulf، ودانيال الروس، Daniel ، وثيودوريش Theoderich ويوحنا الورزبرجى John of Wurzburg الألمانيين ، وبنيامين التطيلى Benjamin of Tudela، الأسبانى، ويوحنا فوكاس John Phocas اليونانى، وقد ألفوا مؤلفات مهمة تروى رحلاتهم إلى ربوع مناطق الصليبيين وهى تلقى– بلاريب– الأضواء الكاشفة على الأوضاع السياسية والحضارية فى بلاد الشام فى ذلك العصر خاصة فى المناطق الصليبية وعلاقات الصليبيين بالمسلمين فى ذلك العصر.

وعلى الرغم من وجود أولئك المؤرخين ، والرحالة فى ربوع أملاك الصليبيين ؛ إلا أن الكيان الصليبى ظل على مدى قرنين كاملين من عمر الزمان ، كيانًا فى الأصل له طابع حربى وضّاح لاينكر ولايحيد عنه، وظل هاجس الآمن يؤرق الغزاة طوال تاريخهم فى المنطقة، ومن يشد رحاله إلى سوريا ولبنان سيشهد آن الغزاة تركوا بقايا وجودهم على الأرض العربية فى صورة القلاع ، والحصون التى قدمت الدليل الوضّاح على أن كيانًا حربيًا غاصبًا كان هنا بالأمس، وعجز الصليبيون طوال عقود طويلة عن آقناع المسلمين بمشروعية وجودهم فى المنطقة ، وعلى المستوى الحضارى كان إسهامهم محدوداً مقارنة بتاريخهم السياسى والحربى، ولذلك يوصفوا– وبحق– بآنهم دخلوا المنطقة محاربين غازين، وخرجوا منها محاربين مطرودين، وفيما بين الدخول والطرد كانت قصة نهب وسلب الشرق بصفحاتها التى خضبت بالدماء ولم تنسها الذاكرة الجماعية العربية والإسلامية : وبذلك تتشابه مملكة بيت المقدس فى طابعها العسكرى مع كيان وجد فى بلاد اليونان هلاس Hellas فى صورة اسبرطة أو لاكيدايمون.

-٩-

تنبـه السندباد إلى أن صفـحـات كـتـابه لن تكتمل دون أن يكون للبـحـر المتـوسـط Med-iterranean Sea حـديث جـديد به فـي هذه الصـفـحـات ، إذ لايفـهم المشـروع الصليـبى على حقيقته التـاريخية دون إدراك طبيعة ذلك البحر والدور التاريخى الذى لعبه فى تاريخ الشعوب التى طلت عليه خلال مرحلة القرون الوسطى.

ومما تجد الإشارة إليه أن البحر المتوسط تبلغ مساحته ٢,٥ مليون ك.م ، ومتوسط عمق مياهه ١,٥ ك.م ، وطول شواطئه يبلغ ٤٦,٠٠٠ ك.م منها ١٩,٠٠٠ ك.م تحتل شواطئ الجزر المنتشره به كما أن المصريين القدماء اسموه «الأخضر العظيم» أما الفينيقيين فقد اسموه «الأزرق الواسع» ، وبالنسبة لليونانيين نجدهم يطلقون عليه اسم «الأبيض الساطع» كما يقرر الكاتب سامى خشبه ، ثم أن الكاتب الرومانى كايوس يوليوس سولينوس Caius Julius Sol-inus هو أول من أطلق تعبير البحر المتوسط على ذلك البحر الذى يتوسط قارات العالم القديم الثلاث آسيا، وأفريقيا، وأوربا كما يقرر أستاذنا العلامة أ.د. سعيد عاشور.

ويلاحظ أن ذلك البحر لعب دوراً فعالاً فى تاريخ كافة الشعوب التى طلت عليه سواء بلاد الشام ومصر والشمال الأفريقى ثم شبه الجزيرة الأيبيرية ، وفرنسا ، وإيطاليا، واليونان ، وآسيا الصغرى ، وينطبق ذلك الأمر على تلك الجزر التى تناثرت فيه من الشرق إلى المغرب مثل قبرص، ورودس ، وكريت ، وصقلية، وسردينيا ، وجزر البليار الواقعة إلى الشرق من شبه الجزيرة الأيبيرية .

وبصفة عامة ؛ نجد أنه خلال العصور القديمة والوسطى ، حاولت كل القوى السياسية الكبرى التى لعبت أدواراً محورية فى تاريخ البشرية جمعاء أن يكون لها النفوذ والغلبة على سواحل ذلك البحر، حقيقة أن ذلك كان بصورة جلية فى العصور القديمة، والوسطى، أما الآونة المعارضة فإن الثقل الأكبر اتجه إلى مناطق آخرى مثل القسم الغربى من المحيط الأطلنطى Atlantic Ocean وكذلك القسم الغربى من المحيط الباسيفيكى Pacific Ocean ، ومع ذلك؛ حاولت تلك القوى أن يكون لها نفوذ ما على البحر المتوسط نظراً لأهمية الاستراتيجية لقربه من مناطق انتاج البترول فى الخليج العربى. ولوجود الكيان الصهيونى صنيعة الغرب الأوربى والأمريكى .

وهكذا، نجد القوى السياسية الفرعونية، والفينيقية ، واليونانية ، والرومانية ؛ حاولت أن يكون لها نفوذها على شواطئ ذلك البحر ومعه السيادة السياسية والتجارية . وما الحروب الصليبية إلا مرحلة من مراحل توزيع الأدوار السياسية من أجل النفوذ، والسيطرة ، فالغرب الأوربى بقيادة فرنسا يحاول إخضاع ذلك البحر لسيطرته وسيادته السياسية والاقتصادية.

وفى عالم العصور الوسطى ظهرت قوتان تبادلت السيادة السياسية على ذلك البحر الذى قام بدور بارز فى الربط بين الشرق والغرب، الأول قوة المسلمين عندما قاموا بفتوحاتهم خلال القرنين الأول، والثانى الهجريين/ السابع ، والثامن الهجريين؛ وبذلك قضوا على النفوذ البيزنطى، وتمكنوا من السيطرة على شواطئه الشرقية ، والجنوبية والغربية، وقاموا بشن إغاراتهم على العديد من الجزر فيه إلى أن أخضعوها بل وصل بهم الحال أن هدد الأغالبة فى شمال أفريقيا البابا فى روما وأرغموه على دفع الفدية.

وهنا : من الأهمية بمكان التصدى لما ردده المؤرخ البلجيكى هنرى بيرين الذى ألف كتبًا عدة فى مجال التاريخ الاقتصادى أهمها محمد وشارلمان Mohammed and Charle-magne والمدن الأوربية فى العصور الوسطى Medieval Cities والتاريخ الاجتماعى والاقتصادى لأوربا فى العصور الوسطى Social and Economic History of Medieval Europe ، وفى كتابه الأول ردد مقولة أن المسلمين يتحملون مسئولية انهيار الوحدة القديمة لعالم العصور الوسطى، واتهمهم بفرض احتكار تجارى على عدد من السلع بصورة منعت وصولها إلى الغرب الأوربى. ومثل ذلك الافتراء ليس له أساس من الصحة أو سند يدعمه من الواقع التاريخى، ولا أدل على ذلك من معرفتنا بأن الاحتكار التجارى قامت به الإمبراطورية البيزنطية خلال مراحل عدائها مع الغرب الأوربى ، ولم يقم به المسلمون، كذلك فإن الأخيرين لايتحملون مسئولية انهيار الوحدة القديمة لذلك البحر لأنها دمرت من قبل مقدمهم وذلك على آيدى العناصر الجرمانية عندما هاجمت الإمبراطورية الرومانية وقسمتها بين إمبراطورية رومانية شرقية كانت عاصمتها القسطنطينية ، وإمبراطورية رومانية غربية ، ويكفى فى هذا المجال آن نتذكر ما أورده المؤرخ الفرنسى موريس لومبارا Maurice Lombard المتخصص فى التاريخ الاقتصادى فى القرون الوسطى، وله دراسة رائدة عنوانها الإسلام فى مجده الأول L'Islam dans Sa Premiere Grandeur ، وقد آشار إلى أن الفتح الإسلامى لأقطار البحر المتوسط أدى إلى إحداث رواج اقتصادى له شأنه الكبير فى تلك الآونة.

على أية حال ؛ لعب البحر المتوسط دوراً بارزًا فى عصر الحروب الصليبية ، التى مثلت- وبحق- ظاهرة بحر متوسطية فقد انطلقت من غربى ذلك البحر من فرنسا وانطلقت إلى شرقى ذلك البحر فى صورة بلاد الشام ومن بعد ذلك مصر، ثم تونس ، وطوال القرنين اللذين شملتهما تلك الحروب ؛ كان البحر المتوسط والأقطار المطلة عليه مسرحًا لأحداثها ، وفيه انطلقت سفن الجنوية ، والبيازنة ، والبنادقة ؛ من أجل مساعدة الصليبيين على إسقاط مدن الساحل الشامى التى امتدت من سان سيمون St. Simeon أو السويدية فى الشمال إلى غزة فى الجنوب وقاتل الصليبيون فى بلاد الشام بمعاونة المدن التجارية الإيطالية من أجل تحقيق ذلك الهدف الاستراتيجى لمملكة بيت المقدس الصليبية ، ومكمن أهمية تلك المدن أنها كانت بمثابة جسر الاتصال الذى يربط بين الكيان الصليبى فى بلاد الشام ، والوطن الأم فى أوربا ، ومن خلال ذلك الجسر قدم المتطوعون ، والحجاج ، والدعم المالى، والمعنوى للوجود الصليبى فى الشرق.

ومن زاوية أخرى ؛ ازدهرت التجارة عبر البحر المتوسط، حيث سارت فيه وقطعت أمواجه العديد من السفن من جنسيات شتى تحمل منتجات الشرق من حرير ، وتوابل ورقيق، وذهب وغيرها إلى الغرب الأوربى، وتاكد بالفعل أن ذلك البحر لم يكن «عامل فصل» بل عامل وصل بين كافة الشعوب والأقطار التى طلت عليه ، وفى ذلك يقول العلامة أ.د. سعيد عاشور عن البحر المتوسط أنه «قام بدور الوعاء الذى ذابت فيه مختلف الحضارات والشعوب التى قدر لها أن تظهر على شواطئه على مر العصور»، ومنطقى ملاحظة أن التجارة - فى المقام الأول- لعبت دوراً بارزًا فى أمر التواصل الحضارى بين شعوب وأقوام القرون الوسطى من خلال ذلك البحر .

وقد يقول قائل إن هناك بحاراً أخرى وجدت فى عالم العصور الوسطى مثل البحر الأحمر، وبحر قزوين ، وبحر البلطيق وأنها قامت بأدوارها فى التواصل الحضارى بين الشعوب ، غير أنها كانت أدواراً ثانوية إذا ما قورنت «بملك البحار» حينذاك ألا وهو المتوسط ناهيك عن أنها محلية ولم تكن واقعة بين قارات كما فى حالة ذلك البحر.

ومكمن تلك العبارة ومغزاها أنه احتل أهمية كبرى فى ربط طرق التجارة الآسيوية بنظائرها الأوربية كذلك إلى الشرق منه وجدت الأماكن الدينية المقدسة المتصلة بالديانتين اليهودية والمسيحية فى فلسطين وشبه جزيرة سيناء، ولانفعل أن البحر الأحمر، وهو شريان

صغير حيوى قريب من المتوسط – وإن لم يكن متصل بالطبع فى ذلك الآونه– وقعت المحارم الإسلامية المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى الشرق منه ومعنى ذلك أن غربى آسيا المطل والقريب من البحر المتوسط احتل ثقلاً دينيًا، وتجاريًا لاينكر وهو أمر لم يتوافر للبحار الأخرى السالفة الذكر.

ولانغفل ناحية أخرى هنا ؛ وهى أن الحروب الصليبية جاءت لتؤكد حيوية وأهمية ذلك البحر، إذ أظهرت بجلاء مدى التنافس الاستعمارى الأوربى لاستعمار الشرق من خلال اخضاع القسم الشرقى منه.

زد على ذلك تم استخدام ذلك البحر كوسيلة مواصلات حملت خلالها عشرات الآلاف من السفن مئات الآلاف من الحجاج ، والتجار، والمحاربين ؛ من أجل المشاركة فى المشروع الأوربى الكبير لاستعمار الشرق. وعلى أمواجه انتقل النرويجين، والسويديون، والدنماركيون، والإنجليز، والفرنسيون، والإيطاليون ، والبيزنطيون ، والمصريون ، والمغاربة ، والأندلسيون؛ على نحو يثبت فعالية ومركزية دوره فى ذلك العصر، وقد عرف المسلمون وكذلك الصليبيون الأنواء ، والرياح التى تحل بذلك البحر، وأشاروا إليها فى مؤلفاتهم لاسيما كتب الجغرافيا والرحلات . وينبغى ألا نغفل هنا أن العديد من السفن غرقت فيه عندما اشتدت أمواجه ولدينا إشارات فى المصادر لحوادث عن ذلك، كذلك هناك إشارات أخرى عن المشاق التى لقيها أولئك 'حجاج والمحاربين الذين وصلوا إلى بلاد الشام عبر ذلك البحر.

من المهم ملاحظة ؛ أن البحر المتوسط بثرواته الاقتصادية لاسيما التجارية ، والتبادل سلعى بين الشرق والغرب، والأموال الطائلة التى نتجت عن ذلك خاصة لدى التجار الإيطاليين من مدن جنوة ، وبيزا ، والبندقية ، وقعت حائلاً دون تنفيذ تعليمات البابوية التى رغبت فى أن تفرض حصاراً تجاريًا على المسلمين والمتاجرة معهم، إذ تأكد بما لايدع مجالاً لارتياب مرتاب آن المصالح الاقتصادية كان لها القدح المعلى ، وأن الجوانب الدينية توارت بعيداً لتحل محلها النواحى الاقتصادية ذات التأثير الحاسم فى ذلك العصر ، ولانغفل هنا عبارة البنادقة الشهيرة: «نحن تجار أولاً ثم مسيحيين من بعد ذلك» .

ويلوح فى ذهن السندباد ناحية لها شأنها فى فهم سياق أحداث ذلك العصر، وهى تتعق بأى مناطق ذلك البحر كان لها تأثيرها الفعال القسم الشرقى آم القسم الغربى وهل وجد انفصال بين القسمين أم لا. وبداية ؛ من الملاحظ آن القسم الشرقى كان له الثقل الأوفى–

نظراً للعوامل السالفة الذكر- بالمقارنة بالقسم الغربى، ومع ذلك لم يكن هناك انفصال بين القسمين فالقسم الغربى تبعت منه الصليبيات ذاتها التى اتجهت إلى الشرق ، كذلك وجدت هناك المرحلة الأسبانية من الحروب الصليبية والصراع بين القوى الإسلامية فى الغرب الإسلامى مع القوى الصليبية التى أرادت استرداد شبه الجزيرة الأيبيرية من السيادة الإسلامية، وبالتالى لافصل ولا انفصال بين أحداث شرقى البحر المتوسط وأحداث غربه؛ بل أن كلاً منهما كان صدى للآخر، ولانغفل هنا- كما أسلفت الإشارة من قبل- أن التجربة الأولى للصليبيات كانت على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية. وبصفة عامة . تظهر لنا صورة البحر المتوسط على مدى قرنى الحروب الصليبية فى بلاد الشام على أنه بحر يربط بين شعوب معتنقة الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام وإن تنافرت عقائدياً وسياسياً إلا أنها تعايشت معًا من خلال الطبيعة الخاصة لذلك البحر الذى جمع شعوبه بصورة كبيرة غير مسبوقة.

وتبقى زاوية أخيرة فى معرض حديثنا عن ذلك البحر ، فإذا كان أساتذة الجغرافيا السياسية فى القرن العشرين مثل ماهان، وماكندر ، وغيرهما تناولوا بالحديث أمر قلب العالم Heart Land وموقعه ، فإن المؤرخ المتمعن فى أحداث عصر الحروب الصليبية يدرك من فوره أن قلب العالم حينذاك كان فى شرقى البحر المتوسط فى صورة بلاد الشام واحتدم الصراع بين الغرب والشرق من أجل إخضاع تلك المنطقة ذات الأهمية الحيوية البالغة على كافة الأصعدة والمستويات وبعد قرنين كاملين من المعارك ، والقتلى، والجرحى ، والأسرى، والأرامل، والثكالى، تأكد فشل مشروع الغرب الأوربى لإخضاع شرقى ذلك البحر لسيطرته وتأكد الطابع الإسلامى الذى كان له من قبل مقدم الغزاة للمنطقة.

من زاوية أخرى: تنبه السندباد إلى أن الحديث عن البحر المتوسط لن يكتمل دون الحديث عن البحر الواقع إلى الجنوب الشرقى منه فى صورة البحر الأحمر والذى عرفه المسلمون فى ذلك العصر ببحر القلزم: وهو بحر داخلى فصل بين المسلمين حينذاك فى قارة اسيا عن إخوانهم فى قارة أفريقيا .

ويلاحظ أن البحر الأحمر يبلغ طوله ١٢٠٠ميل، أما عرضه فيبلغ أقصاه حوالى ١٩٠ ميلاً ، ويحتوى على ٣٨٠ جزيرة ، وفى ذلك العصر: وجدت هناك أسماء شهيرة ترددت فى نصوص المصادر التاريخية خاصة عيذاب الواقعة على الجانب الأفريقى من البحر الأحمر، وتم اكتشاف خرائبها من خلال البعثات الأثرية وكانت تقع جنوب شرقى مصر وبالتحديد شمال شرقى

حلايب على الحدود المصرية – السودانية ، وهناك جدة التى عدت ميناء الحجاز وتدفق الحجاج بين عيذاب ، والحجاز، بل وجدنا حجاجًا من المغرب يقدمون إلى مصر ومنها إلى الحجاز لتأدية شعيرة الحج.

وجدير بالذكر ؛ أن ذلك البحر– إلى جانب أنه شهد تدفق مركز الحج الإسلامى وهو فى ذلك يتشابه مع البحر المتوسط الذى شهد تدهور الآخر تدفق حركة الحج المسيحى – شهد كذلك تدفق تجارة الكارم أو التوابل بين الشرق والغرب ولذلك دخل بفاعلية فى حركة التجارة الدولية، ولانغفل هنا أن الأطماع الصليبية امتدت لتضرب حركة التجارة فيه وفى حملة أرناط السالفة الذكر خير دليل، وخير شاهد .

مهما يكن من أمر؛ فعلى الرغم من أن البحر الأحمر كانت له أهمية على صعيد حركة الحج وكذلك التجارة، إلا أن الحركة الصليبية ذاتها تعد ظاهرة بحر متوسطية ، ولم يدخل البحر الأحمر فى دائرة المطامع الصليبية إلا بصورة محدودة، وتمكنت القوى السياسية الإسلامية من جعله بحيرة إسلامية مغلقة ، وهو أمر حرص عليه العثمانيون فى العصور الحديثة عندما واجهوا الأطماع البرتغالية السافرة نحو ضرب الأماكن المقدسة الإسلامية فى الحجاز.

-١٠-

شهد عصر الحروب الصليبية عددًا من القصص والصور واللوحات الإنسانية الإيجابية والسلبية التى يصعب على السندباد أن يغفلها أو ينساها ولذا فهى مرآة صادقة للعصر التاريخى ذاته ، وتنبض بالحياة مهما تعاقبت العقود، والأعوام.

من تلك الصور : صورة الفتاة الشامية رفول بنت أبى الجيش التى أسرها أحد الفرسان الصليبيين ، وحملها على صهوة جواده الذى انطلق به إلى مسكنه حيث يغتصبها ، وذهب عقل والدها حزنًا عليها ، خاصة أنه أيقن المصير التعس الذى فى انتظارها، وبعد بضعة أيام، بلغته الأخبار بأن جثة ابنته طافية على سطح نهر العاصى، على نحو أكد أنها ألقت بنفسها فى النهر حتى لاتصبح فريسة ذلك الفارس . وروى لنا أسامة بن منقذ فى الاعتبار تلك القصة وأنها ، بأن قلب والدها هدأ- على الرغم من موتها- عندما وصلت إلى مسامعه تلك الأخبار.

أما القصة الثانية؛ فهى قصة إنسانية تتصل اتصالاً وثيقًا بالسلطان صلاح الدين الأيوبى الذى قدمت إليه سيدة صليبية تخبره بأن لصوصًا من المسلمين خطفوا أبنها، وبكت عنده بكاءً مرًا على فقد وليدها ، ويلاحظ هنا أن الصليبيين أنفسهم نصحوها بأن تذهب إلى السلطان الأيوبى لأن قلبه رحيم على حد وصفهم، وبالفعل فعلت ما نصحت به ، والملفت للانتباه أن ذلك الفارس النبيل ترك أمور دولته جانبًا وكذلك صراعه المرير مع الصليبيين ، من أجل التفرغ للبحث عن ابن المرأة الصليبية التى كان قومها فى حالة عداء مستمر معه، ومع بنى دينه، وبالفعل تمكن من إحضاره لها، وهدأ قلب الأم بعد أن شعرت كم كان ذلك السلطان نبيلاً ، ومتسامحًا ، وامتلك شعورًا راقيًا على نحو كانت تؤثر فيه الأحداث الصغيرة ذات البعد الإنسانى.

وتجدر الإشارة هنا؛ إلى أن كلاً من المسلمين والصليبيين كان لديه فرقة من اللصوص تقوم بخطف بعض المتعلقات من الطرف المعادى.

والصورة التالية ؛ تتمثل فى اجتماع القوم سواء من المسلمين أو الصليبيين فى المواقف المفرحة، مثال ذلك ؛ أن المسلمين كانوا أحيانًا يلجأون إلى التسرية عن أنفسهم بالغناء

والرقص من أجل إبعاد شبح الأحزان عن قلوبهم التى عانت طويلاً من جراء الصراع مع أعدائهم، وكانت لديهم الأدوات الموسيقية اللازمة لذلك.

وفى المقابل ؛ كان هناك لدى الصليبيين نفس الأمر، ففى مدينة صور اللبنانية الذائعة الصيت ، حدثت حفلة عرس لفتاة صليبية وعريسها ، وحضر الأهل والأصدقاء ومعهم الآلات الموسيقية تصدح بالألحان العذبة ، وشاهد ذلك الحفل الرحالة الأندلسى ابن جبير فوصفه وصفًا ممتعًا ضمن سطور رحلته الخالدة غير أنه لم يسهب فى ذلك للأسف الشديد.

والصورة الأخرى التى شاهدها السندباد من خلال نصوص مصادر ذلك العصر- صورة قبرى كل من الفندلاوى والحلحولى: وهما من شيوخ الصوفية الذين قاوموا الغزو الصليبى لدمشق الغيماء عاصمة بلاد الشام التاريخية خلال أحداث الصليبية الثانية ١١٤٧-١١٤٩م/ ٥٤٢-٥٤٤هـ، واستشهدا وهما يدافعان عن تلك المدينة الخالدة، وبعد اسشتهادهما، صار العامة يزورنهما، ولهجت الألسنة بالدعاء عند ذلك الموقع بل وتردد بين الناس أن الدعاء هناك مستجاب، ولذلك توافد الآلاف من أجل الزيارة والتبرك .

تعجب السندباد فى الأقدار العجيبة التى تحرك بنى البشر! فالفندلاوى من بلاد المغرب، والحلحولى من حلول فى الضفة الغربية لنهر الأردن ، أى أن أحدهما من أقصى البلاد والآخر من فلسطين ، وجمعهما القدر فى قبرين متجاورين وجمعهما مؤرخو ذلك العصر كذلك فى كتاباتهم فيندر أن نجد كتاباً من كتب الطبقات ، والوفيات، والتراجم بل والحوليات إلاَّ ونجد إشارة إلى العلمين المذكورين اللذين التف الناس حولهما بعد موتهما بالصورة السالفة الذكر.

ولاينسى السندباد صورة أخرى جديرة بالتسجيل ، وهى صورة صبية من المسلمين ومن الصليبيين تعارفوا سوياً وكانوا يلعبون مع بعضهم البعض فى فترات انقطاع الحرب خلال أحداث الصليبية الثالثة وفى ظروف حصار عكا ، وعندما كان القتال يتجدد يتركون بهوهم ليتجدد الصراع بين آبائهم من الطرفين .

كم هى مريرة كلمة «الحرب»! وكم هى ممزقة للعلاقات الإنسانية! يخطط لها كبار الساسة القادة ليحترق بأتونها النساء والأطفال وتدفع الشعوب ثمنها دماءً وجثثًا وجماجم، وتطرق السندباد ببصره لعالم العصور الوسطى دون تجربة الحروب الصليبية لوجد كل أمة تعيش فى فى سلام وأمن، ووفر كل طرف مئات الآلاف من القتلى والجرحى والمشوهين والمعاقين ولتجنبت

البشرية العديد من المآسى والأحزان. ولكن لاتوجد «لو» فى التاريخ، وما حدث فعليًا وقع ولاسبيل لتغييره .

من بعد ذلك تداعت أمام عينى السندباد لوحة لاسبيل لإنكارها ، عندما رأى سوق الزهور فى دمشق الذى وصفه ابن عساكر ، وشعر كم كان الدماشقة أهل حضارة، وفن، وعشاق للحياة، والخضرة ، والجمال حتى فى زمن الحرب وزمن الصراع بين المسلمين والصليبيين، لقد شعروا بالجمال فى نباتات الزينة والزهور ، ولم تمنعهم الأحداث الجسام ورؤية الصليبيين وهم فى مرتفعات الجولان – التى سميت كذلك لأن الرياح كانت تجول فيها كما يقال- حيث أقيمت قلعة النمرود هناك ، من الاستمتاع بالحياة ، بل كان لهم طعامهم بأنواعه المتميزة ولاسيما الحلوى، ووجد ابن العديم المؤرخ الحلبى البارز يشرحها للسندباد شرحًا مفصلاً ممتعًا فى كتابه نفح الطيب فى ذكر الطيبات والطيب: لقد أدرك السندباد أن حب الحياة أقوى آلاف المرات من الرغبة فى الحرب، ودائمًا وأبدًا تنتصر الحياة والسلام على دعوات الحرب المجنونة التى تأكل الأخضر واليابس .

والصورة التالية صورة الفارس الصنديد الذى لايشق له غبار قيماز التركى الذى استشهد خلال الصراع مع الصليبيين خلال أحداث معركة أرسوف ١١٩١م / ٥٨٧هـ كم كان استشهاده مؤثرًا فى صفوف المسلمين وأيقن السندباد أن الشهيد فى ذلك العصر كان نموذجًا يحتذى به، وكان دمه يكتب على أرض بلاد الشام قصة تحريرها من الغزاة، لقد تمنى العديدون الشهادة وما نالوها ومنهم نور الدين محمود شخصيًا، وظلت ذكرى الشهيد كالدوى الذى يؤرق أهله وأصحابه وحتى يأخذوا بثأره من الصليبيين ؛ خاصة أنه سقط دفاعًا عن الإسلام ، والأرض ، والعرض.

لم يكن أحد يستطيع أن ينسى ذكرى الشهداء جماعات أو أفرادًا، ومن الصنف الأول أحداث مذبحة بيت المقدس الشهيرة فى ١٥-٢٥ يوليو ١٠٩٩م / ٤٩٤هـ، وتل العباضية ١١٩١م / ٥٨٧هـ وغيرها ، ومن الثانية من استشهد من المسلمين فى حالات فردية متناثرة .

ومن المؤكد أن الشهيد فى ذلك العصر كان روح أمته المتجددة ، وذكراه ألهبت حماس المعاصرين من أجل تحقيق ما استشهد من أجله ، وكان طرد الغزاة وتطهير الأرض العربية منهم هو الهدية الحقيقية التى قدمت لأرواح كل الشهداء .

اللوحة التالية ، لوحة عناصر من المسلمين تكمن فى الطريق بين يافا وبيت المقدس الذى امتد على مدى ما يزيد على الستين كيلو مترًا ، وهو طريق جبلى يصعب اجتيازه باعتراف المصادر الصليبية ذاتها، وعملوا على الفتك بالصليبيين الذين قدموا إلى المملكة الصليبية عبر مينائها «الدينى» فى صورة يافا، كان ذلك ضمن مظاهر المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الغزاة ، لقد كانت الجبال تتحالف مع أهل البلاد الأصليين ضد أعدائهم ، بينما المناطق الأخرى السهلية والساحلية، أخضعها الصليبيون بعد جهد جهيد لاسيما مناطق الساحل الشامى.

لقد عمل الصليبيون على مواجهة ذلك الخطر من خلال إقامة نظام حربى فى صورة فرسان الداوية أو المعبد، وتم تشييد عدد من القلاع والحصون: من أجل توفير الأمن والأمان للأوربيين القادمين إلى المملكة.

على أية حال : ظلت المقاومة الشعبية ضد الصليبيين قائمة، لقد كانت استنزافًا لمواردهم من الداخل ، واستهلاكًا لطاقاتهم وعجزت كافة الوسائل العسكرية والإجراءات القمعية عن إخضاع الشعوب التى أرادت حريتها من مغتصبيها .

هناك لوحة أخرى: أجدها فى الجانب الصليبى، وهى لوحة خاصة بالمؤرخ الكبير وليم الصورى William of The Tyre ، وهو عاكف على تأليف تاريخه عن الأعمال التى جرت فيما وراء البحر، وما امتاز به من جلد ، وصبر، وتحقيق، وتدقيق، لقد أنفق الأيام والليالى الطوال من أجل إنجاز ذلك العمل الكبير، أقول ذلك على الرغم مما يجده المرء فى تاريخه من تعصب ضد الإسلام وأهله .

شعر السندباد أن ذلك المؤرخ كانت- على مايبدو- تحركه عقدة بالغة التأثير فى حياته الكنسية والعلمية، فقد تحرق شوقًا إلى منصب بطريرك بيت المقدس ، غير أنه أخفق فى مسعاه ورأى من هم أقل منه شأنًا يقفزون إلى ذلك المنصب الرفيع ، فأدركه الحزن ، وحل به الاكتئاب ، وإن حاول - على ما يبدو- أن يعوض كل ذلك الإخفاق بأن بفجر طاقاته التأليفية فيما هو أكثر خلودًا وبقاءً فى صورة تأليف كتابه البارز السالف الذكر، وتساءل السندباد فى أعماق نفسه هل فى حالة تولى وليم ذلك المنصب أكان يتجه إلى تفجير طاقاته الإبداعية والتأليفية على ذلك النحو ؟ وأجاب بأنه لايتصور ذلك، فمن حسن حظنا كمؤرخين أن ذلك المنصب لم يحصل عليه ولذلك أجاد فى زاوية أخرى أثرت كتاباتهم إثراءً عظيمًا .

اللوحة الأخيرة ، من تلك المجموعة من الصور واللوحات، لوحة خاصة بالتاريخ الجنسى للصليبيين فى بلاد الشام وخارجها وهى زاوية لها شأنها - على ما فيها من حرج - تعكس لنا دلالات على جانب كبير من الأهمية التاريخية.

ويلاحظ فى هذا الصدد أن جيوش الصليبيين ، وهم يتقدمون من الغرب الأوربى إلى بلاد الشام احتوت على عناصر العاهرات باعتراف المصادر التاريخية الصليبية ذاتها، وأنهم عندما كانوا يتعرضون للهزائم العسكرية كانوا يطردون العاهرات بيد أنهم إذا ما انتصروا عادوا يرجعونهم إلى صفوف جيوشهم لاعتقادهم أن الهزائم دائمًا وأبدًا بسبب الخطايا والآثام.

زد على ذلك : أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية، وهو حصار مرير كلفهم الكثير وأكلوا خلاله الحيوانات والنباتات اكتشف الصليبيون أحد رجال الدين وهو يزنى بامرأة والمسيحية بالطبع بريئة منه، ولانغفل كذلك: اتجاه جوسلين الثانى أمير الرها إلى حياة الفساد، والعبث. واللهو، وتم أسره على أيدى المسلمين ، وهو يواقع إمرأة كما آقرت بذلك المصادر التاريخية العربية.

ثم هناك اغتصاب الراهبات البيزنطيات فى الأديرة خلال أحداث عام ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ بصورة تقشعر لها الأبدان وتشمئز لها النفوس. ومن بعد ذلك: حملت السفن الصليبية القادمة من الغرب الأوربى العاهرات بأعداد كبيرة للترفيه عن الجنود الصليبيين فى بلاد الشام، كذلك وردت إشارات عن الفساد والتحلل لدى كبار رجال الدين بل أن هناك من عمل بطريركًا لبيت المقدس كانت لديه عشيقاته على نحو نجده فى إشارات المصادر الصليبية ذاتها.

وخير مثال دال على ذلك: البطريرك هرقل الذى ارتبطت به علاقات غرامية ! وعلى نحو خاص مع سيدة تدعى باشيا دى ريڤيرا وهى زوجة رجل صليبى ، فى نابلس، وقد جعلها البطريرك تقدم إليه عدة مرات، وظلت لديه أكثر من أسبوعين فى خلال إحدى زياراته له كذلك لانغفل الحى الأحمر الذى اشتهرت به مدينة عكا تحت السيادة الصليبية وعرف بممارسة أعمال الدعارة.

ولاننسى أن الغزاة أحيانًا عندما كانوا يقتحمون المدن الإسلامية منهم من كان يفجر بالنساء المسلمات كما آشارت المصادر العربية.

وتكتمل صورة الصليبيين فى تلك اللوحة الأخيرة بالجانب الخاص بالتكالب على الأموال

حتى من جانب من هم من الرهبان ؛ إذ أن فرسان الداوية- وهم سيتم تنولهم بالتفصيل فى موضع آخر من هذا الكتاب- يتحولون إلى رجال بنوك، وصيارفة ويكنزون الذهب والفضة ، وهم فى الأصل رهبان، من المفروض أنهم زهدوا فى الدنيا، ومباهجها كما وصفهم القديس برنارد عندما تم تأسيس حركتهم ، وموافقة البابوية عليهم.

تساءل السندباد فى حيرة حائرة محيرة ! إلى هذا الحد كان التناقض بين المثال والواقع ؟ وبين القول والفعل؟ وإلى هذا الحد كانت الأمور مضطربة لدى عناصر من الغزاة الذين صورتهم مصادرهم الباكرة على أنهم الرجال الأطهار قدموا إلى الأرض المقدسة من أجل استخلاصها من الكفار أى المسلمين .

إنه التناقض بين المثال والواقع ، وبين النظرية والتطبيق على نحو كان له أثره فى انهيار الوجود الصليبى برمته فى نهاية المطاف .

-١١-

أراد السندباد محادثة القراء عن فرقة شيعية صنعت تاريخًا دمويًا على أرض بلاد الشام، والجزيرة وواجهت أعداءها بسلاح رهيب في صورة الاغتيال: ألا وهي فرقة الإسماعيلية النزارية التي زرعت الرعب في قلوب أعدائها ودخلت التاريخ على جماجم قتلاها .

ومن المقرر: أنه خلال عهد الخليفة الفاطمي المستنصر لدين الله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٥-١٠٦٤م) قدم إلى مصر أحد الدعاة الشيعة الإسماعيلية من إيران، ويدعى الحسن الصباح وقد سأل الخليفة عمن يتولى أمر الخلافة من بعده فقرر له أنه ابنه الأكبر نزار، إلا أنه بعد رحيل الخليفة تولى الأمر من بعده ابنه الأصغر الذي حمل لقب المستعلي ، ولعب الوزير الأفضل بن بدر الجمالي دورًا مهمًا في ذلك التغيير من أجل مصلحته السياسية العليا، غير أن نزارًا لم يرض بالأمر، ورفع راية التمرد والعصيان غير أنه تم قمع حركته ، ويلاحظ أن أتباعه سموا أنفسهم «بالنزارية» في مواجهة أتباع الخليفة، وهم «المستعلية»، وتمكن الحسن الصباح الذي صار يدعو لنزار من العودة إلى إيران، حيث أسس هناك وبالتحديد جنوبي بحر قزوين عند منطقة الموت (عش العقاب) حيث وجدت قلعة بالغة الحصانة لانرام بحصار: كما وصفتها المصادر- أسس دولة الإسماعيلية النزارية في إيران ، وهي دولة فرضت نفسها بالقوة والعنف، والإرهاب ، والدماء ، وذلك وسط محيط سني عام لم يعترف بها، وناصبها العداء إلى أبعد الحدود، ولم تستطع القوى السلجوقية مواجهة ذلك النفوذ الاسماعيلية النزارية ويلاحظ أن الوزير السلجوقي نظام الملك حذر من تزايد نفوذ الاسماعيلية النزارية وخطورتهم وذلك في كتابه «سياست نامة» أو كتاب السياسة ، وأثبتت الأيام صدق رؤيته وخطورة دورهم على المحيط الإسلامي العام خاصة عندما واجه المسلمون الخطر الصليبي.

ولقد كان أخطر ما شكله الحسن الصباح تنظيم الفدائيين وهم من الشباب المندفع الصغير السن تراوده أحلام البطولة ، يطيعون أوامر قائدهم طاعة عمياء ، ولايترددون في تنفيذ تعليماته بشأن اغتيال المعارضين السياسيين للإسماعيلية النزارية خاصة من المسلمين السنيين، وقد تردد لدى البعض أن أولئك الفدائيين تعاطوا الحشيش وأن الحسن الصباح كان يدخلهم حدائق غناء أشبه شئ بالجنة- كما يقول البعض - وأنه كان يشجعهم على تنفيذ العمليات المذكورة.

من أولئك الفدائيين أو الفداوية، كما سمتهم المصادر المعاصرة- من كانوا يترصدون للضحية المراد اغتيالها وربما عملوا فى حاشية أمير من الأمراء أو قائد من القادة- ، وربما انتظروا شهوراً طويلة من أجل تحين الفرصة الملائمة للإجهاز على أعدائهم، ومنهم من ارتدى ثياب الصوفية من أجل التمويه ، واختاروا- فى عدة أحيان- المساجد من أجل تنفيذ عملياتهم الدموية أمام أكبر حشد ممكن من المسلمين السنيين، كى تكون عملياتهم بمثابة التحدى لكل أفراد المجتمع خاصة الأنظمة السياسية الحاكمة ، وكل ذلك فى وضح النهار ، ويشير المؤرخون المعاصرون إلى أن الفداوى كان يعرف أنه سيقتل حتمًا بعد قيامه بجريمته البشعة، وعلى الرغم من ذلك كان يسعى سعيًا حثيثًا من أجل تنفيذ الأوامر العليا التى قدمت له . ومن الجلى البين أن الجماعات الشيعية الإسماعيلية فى بلاد الشام لاسيما فى شماله كانت تقف مؤيدة أولئك الفتيان، بل إن إمرأة من نواحى حلب من كفر ناصح وكانت أمًا لأحد الفداوية عندما علمت أنه لم يقتل فى إحدى العمليات التى قاموا بها حزنت حزنًا شديداً وأخذت تولول، وتنتحب من جراء ذلك، وقد تمكن الإسماعيلية النزارية من الفتك بعدد من القيادات الإسلامية السنية، ومنهم من جاهد الصليبيين خير جهاد- كما أسلفت الإشارة من قبل- وعلى رأسهم شرف الدين مودود أتابك الموصل- ولاشك فى أنهم بذلك قدموا خدمة جليلة - للأسف الشديد- للصليبيين إذ أزاحوا عن طريقهم نوعيات من خيرة أبناء الأمة من المجاهدين للغزو الصليبى .

لقد تعدد أولئك الذين وقعوا فريسة خناجر الفداوية ومن أمثلتهم شرف الدين مودود من الجانب الإسلامى، أما من الجانب الصليبى فهناك كونت طرابلس ريموند الثانى Raymond II of Tripolis الذى اغتيل عام ١١٤٩م / ٥٤٤هـ، وكونراد دى مونتفرت Conrad de Montfort الذى سقط مغتالاً من جانبهم عام ١١٩٢م / ٥٨٨هـ .

ودار جدل واسع بين الباحثين حول هل كان الإسماعيلية النزارية مجرد أداة فى أيدى قوى أكبر منهم من أجل الفتك بالقيادات التى تم اغتيالها، أم أنهم ما كانوا مجرد أداة بل خططوا ونفذوا من أجل القضاء على قيادات ناصبتهم العداء وشنت هجمات ضدهم ؟ وفى الحقيقة؛ أن الزاويتين وجدتا معًا ، فهم أحيانًا آداة ، وأحيانًا أخرى قاموا بكل ما اتصل بعمليات الاغتيال تحقيقًا لمصالحهم السياسية العليا .

لقد أدت تلك العمليات إلى إثارة الفوضى فى صفوف الجماهير، وإشاعة الرعب، والفزع وشعر الناس أن حكوماتهم لاتستطيع توفير الأمن والأمان لهم، على نحو أحرج الحكام ، وأضعف قبضتهم السياسية، وهب للصليبيين الفرصة السانحة نحو استغلال تلك الظروف العصبية التى مر بها المسلمون من أجل تحقيق أهدافهم الاستعمارية .

وجدير بالإشارة ؛ أن القتلة من الفداوية – فى حالات اغتيال قيادات إسلامية- غالبًا ما ارتدى ثياب الصوفية ، ونجد أول سابقة تذكر فى هذا المجال مفادها أن أباطاهر الأرانى عندما قتل الوزير السلجوقى الأشهر نظام الملك كان مرتديًا ثياب الصوفية وتعليل ذلك يمكن أن نجده متمثلاً فى أن المتصوفة والزهاد فى بلاد الشام في ذلك العصر تمتعوا بوضعية دينية، واجتماعية متميزة ، وكان ارتداء زى الصوفية يبعد عناصر الفداوية عن أدنى شك، وارتياب فى حقيقتهم، ويمكنهم من سرعة الوصول إلى ضحيتهم إذا ما لاحظنا أن قيادات ذلك العصر: كانت تتقرب إلى عناصر الصوفية الذين كانوا موضع حب معاصريهم بصفة عامة .

وكانت معظم عمليات الاغتيال الموجهة ضد قيادات المسلمين السنية يتم غالبًا فى المساجد الجامعة وفى يوم الجمعة على نحو خاص أمام حشود المصلين، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى عدة أهداف مجتمعة متمثلة فى إعلان تحديهم السافرللمجتمع الإسلامي والقيادات الحاكمة السنية ، وإشاعة الفوضى والاضطراب في صفوف أفراد ذلك المجتمع، ثم أنهم هدفوا أيضًا إلى أن يلفتوا الأنظار إلى وجودهم كأصحاب مذهب دينى معارض للسنة.

والحقيقة المهمة التى ينبغى إدراكها :أنه إذا كانت عمليات الاغتيال السابقة قد وحدت المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام شعوريًا ضد أعدائه المذهبيين فإنه على الجانب الآخر كانت هذه العمليات توجد المجتمع الإسلامى الشيعى بكياناته المتقوقعة على نفسها، وبالتالى فنحن أمام مجتمعين إسلاميين سنى وشيعى متصارعين على أرض واحدة فى ظرف تاريخى عصيب من خلال وجود قوة استعمارية محتلة غرست وجودها على أرض المنطقة على حساب القوتين، وهكذا استغل الغزاة التركيبة العقائدية المتصارعة على أرض بلاد الشام من أجل تحقيق أهدافهم الاستراتيجية العليا .

من ناحية أخرى؛ من المهم ملاحظة أن عصر الحروب الصليبية شهد ظهور قيادة إسماعيلية بارزة فى صورة راشد الدين سنان بن سلمان الذى تولى أمرهم لمدة ما يزيد على الثلاثة عقود من ٥٥٩-٥٨٩هـ / ١١٦٣-١١٩٣م ، وقد تمكن من إحكام سيطرته عليهم بصورة

غير مسبوقة ، ولذلك أطاعوه وهابوه إلى حد كبير ، بل وفيما بعد ترددت إشارات عن أنه إذا ما أمر أحد الإسماعيلية بأن يتردى من شاهقة جبل لفعل ، وعندما مر أحد الأمراء الصليبيين وهو هنرى دى شامبنى بمناطق راشد الدين سنان أراد الأخير أن يجعله يشاهد منظراً مثيراً ويقال أنه أشار إلى اثنين من أتباعه إشارة أدت إلى أن أطاعوه وألقوا بنفسيهما من أعلى جبل ليلقيا مصرعهما فى الحال.

وجدير بالذكر ؛ أن أتباعه بالغوا فى شخصه ، بل منهم من اعتقد أنه المهدى المنتظر الذى سيعود فى آخر الزمان، وتمت تسميتهم السنانية، ومن المتصور أنه امتلك شخصية كارزمية لها القدرة الايحائية والتأثيرية البالغة على أتباعه بصورة جعلت البعض ينبهرون به ، ويعتقدون فيه مثل ذلك الاعتقاد .

ويلاحظ أن الإسماعيلية النزارية تركزوا فى مناطق خاصة بهم فى إمارة طرابس الصليبية عرفت باسم قلاع الدعوة ، ومنها قلعة مصياف التى كانت أحياناً مركزاً لشيخ الجبل فى بلاد الشام، وقورنت بألموت بالنسبة للحشاشين فى إيران ، وغدت مصياف الحصن الرئيسى لإسماعيلية الشام ويلاحظ أنهم تمكنوا من الاستيلاء عليها عام ٥٣٥هـ / ١١٤٠م.

ومن قلاع الدعوة الأخرى: قلعة القدموس، وقد تمكنوا من شرائها من صاحبها سيف الملك ابن عرون عام ٥٢٧هـ / ١١٣٢- ١١٣٣م واستغلوا موقع القدموس ضمن إقليم بانياس من أجل مهاجمة المسلمين والصليبيين على حد سواء، أما قلعة الكهف فوقعت بالقرب من قلعة القدموس وتمكنوا من الاستيلاء عليها عام ٥٣٠هـ / ١١٣٥م، وهناك أيضاً قلعة الخوابى التى وقعت على بعد خمسة عشر ميلاً من أنطرطوس فى شمال طرابلس، أما قلعة الرصافة فقد وقعت فى جبال البهرة بالقرب من مصياف ، كذلك وقعت قلعة المنيقة بالقرب من قلعة الكهف .

وواقع الأمر : أن قلاع الإسماعيلية النزارية اتسمت بأنها صغيرة الحجم إذا ما قورنت بقلاع الصليبيين الشهيرة مثل حصن الأكراد، والمرقب وغيرها ، مع ملاحظة أن الأخيرين امتلكوا قلاعاً صغيرة الحجم نسبياً هم أيضاً ، كذلك تركزت قلاع الدعوة فى منطقة محدودة تبعت إمارة طرابلس الصليبية فى حين أن قلاع الصليبيين تناثرت من أنطاكية شمالاً حتى رأس خليج العقبة جنوباً ، ومن نهر الأردن شرقاً حتى البحر المتوسط غرباً.

ويلاحظ أن تاريخ الإسماعيلية النزارية فى بلاد الشام - مثلما كان من قبل فى إيران-

تاريخ قلاعهم الحصينة ضد الوجود الصليبي وكذلك الوجود السني في بلاد الشام ، ولاشك أن كثرة أعدائهم والصدام المسلح معهم على مدى نطاق زمنى متسع وممتد ؛ جعلهم يدركون ضرورة تحصنهم في قلاع قوية .

ويضاف إلى ذلك؛ وجد الإسماعيلية النزارية في مناطق أخرى مثل دمشق ، وحلب غير أن المدينة الأخيرة ونواحيها عاش فيها الكثيرون منهم، ومن أمثلة ذلك : مناطق الباب، وبزاغة في وادى بطنان وغيرها ، ويلاحظ أن العناصر السنية عملت على إقامة مذابح لهم كما حدث في مذبحة حلب عام ٥٠٧هـ / ١١١٣م، ودمشق عام ٥٢٣هـ / ١١٢٨م، وتم الفتك بالعديد منهم من جرانها ، ومن المقرر أن الصراع السنى- الشيعى حينذاك وإن تغلف بالجانب المذهبى إلا أننا لاتنكر الجوانب الاقتصادية لاسيما التجارية ، حيث أرادت القوى السياسية السنية السيطرة على مراكز النشاط التجارى في بلاد الشام وإبعاد السيادة الإسماعيلية عنها خاصة من خلال ملاحظة الوجود الصليبي المعادى، ووجود القوى السياسية السنية بين خطرين إسماعيلى وصليبى في نفس الحين .

وجدير بالذكر هنا؛ أن التوزيعات السكانية الإسماعيلية تغيرت عدة مرات خلال عصر الحروب الصليبية، وذلك بعد الصدام الدموى مع القوى السنية كما أسلفت الإشارة من قبل، ويلاحظ أن ذلك ليس بالأمر الفريد في ذلك العصر، إذ الملاحظ أن تلك المرحلة التاريخية الحاسمة في علاقات الشرق والغرب شهدت تغيير المواقع الجغرافية للعديد من القوى المذهبية في بلاد الشام من خلال الضغوط العسكرية والسياسية للقوى المعادية لهم .

ولانغفل هنا؛ أن مقاومة المسلمين السنيين تنوعت، وتعددت تجاه عناصر الإسماعيلية النزارية ، فهناك عناصر الأحداث، وهم عناصر مسلحة شعبية في المدن الشامية مثل دمشق وحلب، ومن المحتمل- دون إمكانية التأكيد نظرًا لصمت المصادر التاريخية- أن تطورت لتشكل عناصر من الفرسان السنيين هم «النبوية» قاموا بالفتك بعناصر الإسماعيلية النزارية أينما وجدوا ، وحدثنا عنهم الرحالة الأندلسى البارز ابن جبير وبالفعل هاجموهم في منطقة الباب أو ما عرف بباب بزاغة (وهى الآن في سوريا تنطق بزاعه) وذلك عام ١١٧٥م / ٥٧٣هـ) في وقت ازدهرت فيه ظاهرة الفتوة من خلال دعم الخليفة العباسي الناصر لدين الله .

بصفة عامة؛ مثل الإسماعيلية النزارية شوكة في جنب القيادات الإسلامية السنية، في عهود السلاجقة ، والزنكيين ، والأيوبيين ، والمماليك ، إلى أن تمكن المماليك من إضعاف أمرهم- خاصة أنهم ضعفوا من الداخل أيضًا .

مهما يكن من أمر؛ قدم الإسماعيلية النزارية تجربة لفرقة شيعية متطرفة لجأت إلى أسلوب الاغتيال والفتك بالخصوم ، ولذلك نشروا الرعب والفزع فى صفوف المسلمين السنيين الذين ناصبوهم العداء ، وصار جهادهم موجهًا إلى خطرين الصليبيين والشيعة الإسماعيلية النزارية.

وبصفة عامة ؛ يكشف تاريخ الإسماعيلية النزارية فى بلاد الشام فى ذلك العصر عن أن العداء السنى- الشيعى أثر تأثيراً كبيراً فى تصدع الجبهة الإسلامية - أحيانًا- فى مواجهة الخطر الصليبى، كما أظهر تاريخهم أن لعبة السياسة جعلت- فى بعض الأحيان- المصالح السياسية تفوق العداء الدينى، ولا أدل على ذلك : من تحالفهم مع العناصر الصليبية ضد المسلمين السنيين بصورة أكدت لنا كيف أن بلاد الشام فى ذلك العصر شهد سلسلة من التحالفات والتحالفات المضادة زادت من تعقيدها الأصلى الجغرافى والمذهبى ، واستفاد الغزاة الصليبيون من كل تلك التناقضات لصالحهم على حساب الصالح الإسلامى العام وذلك؛ درس التاريخ الذى حدث وسيطًا وحديثًا .

للزلازل حديثها المؤلم فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، حيث شهدت تلك المنطقة العديد من الهزات الزلزالية التى تركت تأثيراتها المتعددة على كافة المستويات السياسية والاقتصادية، والاجتماعية . وجدير بالذكر: أن قرنى الحروب الصليبية فى بلاد الشام شهدا العديد من الهزات الزلزالية العنيفة وإن اختلفت درجة تأثيراتها، وأهم ما وقع كان خلال القرن الأول من تاريخ الصليبيات هناك وأعنى به القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى ؛ وخاصة خلال النصف الثاني منه .

والواقع : أن الزلازل عبارة عن هزات سريعة متلاحقة وقصيرة المدى تتعرض لها القشرة الأرضية ، وذلك فى خلال فترات متقطعة المدى للاضطرابات الباطنية ، وتبدأ الموجات الزلزالية فى المعتاد فى شكل هزات خفيفة أو أولية تتزايد قوة حتى تصل إلى سطح الأرض الخارجى ، ومن المهم أن نعرف أن عالم الزلازل ريختر Richter : وضع مقياساً لقياسها نسب إليه وعرف بمقياس ريختر Richter Magnitude وهى تندرج إلى ١٢ درجة تبدأ بأن تكون بالغة الضعف ، ثم ضعيفة جداً ثم ضعيفة ، ومتوسطة ، ومحسوسة ، وقوية، وعنيفة ، ومخربة، ومدمرة ، وشديدة التدمير ، وبالغة التدمير، وشاذة التدمير .

ومن الملاحظ أن بلاد الشام شهدت هزات زلزالية خاصة خلال مناطق الصليبيين؛ وذلك فى عام ١١١٤م / ٥٠٨هـ وذلك فى يوم ١٠ أغسطس ١١١٤م فى يوم الاحتفال بعيد القديس لورنس St. lawrence ، وكان التأثير واضحاً فى مناطق شمال الشام خاصة أنطاكية ، ومن بعد ذلك : حدث امتداداً متسقًا من بلاد الشام من دمشق إلى حلب ، وخلال أحداثه فر الناس من منازلهم مذعورين ، وفى حلب على نحو خاص وهى حاضرة شمال الشام الكبرى انهدم الكثير من المنازل مثلما أشار إلى ذلك ابن القلانسى المعاصر لتلك الأحداث .

وتجدر الإشارة ؛ إلى حدوث نشاط زلزالى خلال المرحلة من عام ١١٥٦ إلى ١١٥٩م / ٥٥١ إلى ٥٥٤هـ ، ومن المهم التقرير أنه بفضل إشارات المؤرخ الدمشقى السالف الذكر، أمكن للباحثين إدراك صورة صادقة عن أحداث تلك الهزات الزلزالية وتأثيراتها المدمرة أو

المرعبة بالنسبة للمعاصرين ، وذلك بالإضافة إلى مصادر تاريخية أخرى مثل المؤرخ الصليبى وليم الصورى William of Tyre، وحولية عن الأعمال التى جرت فيما وراء البحر History of Deeds done beyond The Sea ، والحولية السريانية المجهولة Anonymous Syriac Chronicle ، وغيرها من المصادر العربية والصليبية.

وخلال تلك الأعوام ؛ تعددت الهزات الزلزالية إلى درجة جعلت مؤرخًا معاصرًا وشاهد عيان مثل ابن القلانسى ؛ يقرر أن منها ما قد خرج عن الإحصاء لكثرتها، وأدت أحيانًا إلى تهدم المنازل ، وكذلك حدوث تلفيات فى القلاع ، وتعد حلب ، وحمص ، ودمشق من المناطق التى أصيبت من جراء الزلازل بصور متفاوتة التأثير.

وجدير بالذكر : أنه فى أعقاب الهزات الزلزالية التى وقعت خلال السنوات الأربع من ١١٥٦-١١٥٩م / ٥٥١-٥٥٤هـ نجد مرحلة يخمد فيها النشاط الزلزالى بصورة واضحة ، حتى عام ١١٧٠م / ٥٦٥هـ حيث عادت الزلازل إلى سابق نشاطها التدميرى ، ومن بعد العام المذكور تجددت عامى ١٢٠١، ١٢٠٢م / ٥٩٧، ٥٩٨هـ .

وواقع الأمر؛ يعد زلزال عام ١١٦٠م / ٥٧٥هـ من أكثر الزلازل التى منيت بها بلاد الشام خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى وضوحًا من حيث حجم الدمار الذى نجم عنه فى مختلف أنحاء بلاد الشام لدى الجانبين الإسلامى والصليبى، دون أن نعانى من صمت المصادر التاريخية أو ندرة إشارتها مثلما فى بعض الأحيان بالنسبة للزلازل السابقة وآثارها فى مملكة بيت المقدس الصليبية.

أما بالنسبة للمناطق الإسلامية ؛ نجد أن زلزال ذلك العام أحدث نطاقًا واسعًا من حيث التدمير والتخريب فى المناطق الإسلامية الخاضعة لسيادة الدولة النورية ولذلك طلبت الأخيرة مساعدة الخلافة العباسية فى بغداد: لتقديم العون المالى للمساعدة على إعادة بناء ما تهدم من منازل وكذلك إعادة تشييد القلاع التى أصيبت من جراء زلزال ذلك العام، ولاريب فى أن زلزال عام ١١٧٠م / ٥٦٥ هـ كان أعتف ما واجه الدولة النورية من هزات زلزالية منذ تأسيسها عام ١١٤٦م / ٥٤١هـ .

وتجدر الإشارة ؛ إلى أنه فى يوم ٢٩ يونيو ١١٧٠م / ١٢ شوال ٥٦٥هـ ؛ وقعت هزات زلزالية عنيفة فى بلاد الشام، فتهدمت العديد من المنازل، والقلاع، وامتد تأثير تلك الهزات إلى

مدن حلب ، وحماه ، وحمص ، وشيزر ، وبعرين، ودمشق، وبعلبك ، ويشير البعض إلى أن حلب وبعلبك – على نحو خاص– هلك فيهما أعداد كبيرة من الناس سواءً من الشيوخ أو النساء أو الرجال والأطفال ، وتبالغ بعض المصادر فتقدر عدد الذين هلكوا بنحو ثمانين ألفًا ، بل أن هناك من أشار إلى أن العدد خرج عن الإحصاء.

وإذا تركنا المناطق الإسلامية ، واتجهنا صوب المناطق الصليبية ؛ نجد أنها أصيبت – هى الأخرى– بالتدمير ، والتخريب ، والقتل ، وقد أشارت المصادر الصليبية إلى أن ذلك الزلزال كان بالغ العنف ، ومروعًا على نحو لم يحدث من قبل ؛ مما يعكس أنه فاق ما حدث عامى ١١١٤م / ٥٠٨هـ ، ١١٣٨م / ٥٣٣هـ، وقد امتدت ذكراه فى عقول القوم لأمد طويل دون أن تمحى على نحو يعكس عمق أثره النفسى على الرغم من تعاقب الشهور ، والأعوام على ذكراه الأليمة فى نفوس الذين قدر لهم الحياة بعد تلك الأحداث المروعة.

ويمكن توضيح آثار ذلك الزلزال على عدد من المدن الصليبية لاسيما الساحلية منها ، وهى أنطاكية، وطرابلس، وصور، وجبلة، واللاذقية ، ويلاحظ أنها جميعها مدن ساحلية وقعت على الساحل الشرقى للبحر المتوسط باستثناء أنطاكية القريبة من الساحل نسبيًا (تبعد عن سان سيمون أو السويدية، حوالى ٢٠ ك.م) .

ووفقًا لما يقرره عمدة مؤرخى الصليبيين فى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى وليم الصورى فإن مدينة أنطاكية حاضرة شمال الشام الصليبية الهامة دمرت بصورة كاملة ، وهلك سكانها ، ودمرت أسوارها ، وأبراجها البالغة الحصانة ، وتحولت إلى أنقاض ، وأطلال.

أما فى طرابلس ؛ فقد كان حجم التدمير كبيرًا وبصورة تشبه ما حل بأنطاكية ، ويقرر نفس المؤرخ أن المدينة دمرت بصورة كاملة، وتحولت إلى أنقاض وأطلال، وصارت بمثابة مكان للدفن ، ومقبرة جماعية لسكانها الذين لقوا حتفهم فيها .

والواقع أن القيمة الكبيرة التى يمكن أن نعلقها على ما ذكره وليم الصورى بشأن التأثير التدميرى لزلزال ذلك العام فى المدينتين المذكورتين يتمثل فى أن ما أورده جاء من مصدر رسمى صليبى معاصر للأحداث عرف بدقته ، واستقائه لمادته التاريخية من أوثق المصادر الرسمية ، ولانغفل هنا ذكر أن كلاً من أنطاكية وطرابلس كان مركزًا لإمارة صليبية لها شأنها على المستويات الاقتصادية والسياسية ضمن الكيان الصليبى فى بلاد الشام ككل.

وتجدر الإشارة ؛ أن فلسطين كانت بمنأى عن التأثر بذلك الزلزال ، ومن المتصور أن ذلك قلل من حجم الخسائر البشرية الصليبية هناك نظراً لزيادة عدد الحجاج الزائرين للمواقع المسيحية المقدسة فى بيت المقدس على نحو خاص بالإضافة إلى المواقع الأخرى التى اتصلت بذكريات المسيحية فى تاريخها المبكر.

أما بالنسبة للعمائر الحربية الصليبية ؛ فقد أشارت المصادر التاريخية إلى تعدد تلك الحصون ، والقلاع التى أضيرت من جراء ذلك الزلزال من أمثلتها حصن الأكراد- درة العمارة الصليبية فى بلاد الشام وأضخمها- وعرقة، وصافيتا، وغيرها ، وهناك من يقرر أن الحصون التى أضيرت من ذلك الزلزال تفوق الحصر. وحدوث الضرر من جراء تلك الزلزال فى القلاع الحصينة يكشف لنا عن تأثير وفعالية تلك الهزات الزلزالية حتى علي أعتى المبانى وأشدها بناءً.

ولانغفل هنا بخصوص زلزال ذلك العام إلى أن يوم ٢٩ يونيو ١١٧٠م كان يوافق عيد القديس بطرس St. Peter رأس الحواريين، وقد أقر وليم الصورى نفسه أن الكنائس قد تهدمت بعنف بالغ لم يحدث من قبل، ويلاحظ أنه بينما كان البطريرك اليونانى أثناسيوس يصلى فى كاتدرائية القديس بطرس فى أنطاكية؛ انهارت عليه الكنيسة وعلى جموع المصلين على نحو أدى إلى هلاك الكثيرين.

وعلى ذلك : ينبغى ألايغفل عنا أن هذه ليست المرة الأولى التى تحدث فيها الهزات الزلزالية وتصيب مناطق الصليبيين فى إحدى المناسبات الدينية المحتفل بها خلال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى ، فمن قبل- كما أسلفت الإشارة من قبل- وفى يوم ١٠ أغسطس ١١١٤م وقع زلزال وافق عيد القديس لورنس ، ونجد أن الملاحظ أن زلزال عام ١١٧٠م / ٥٦٥هـ فاق بتأثيره ما حدث من جراء زلزال عام ١١١٤م / ٥٠٨هـ .

مهما يكن من أمر؛ يعد زلزال عام ١١٧٠م / ٥٦٥هـ، وبحق أعنف الهزات الزلزالية التى أصابت بلاد الشام خلال القرن الأول من تاريخ الصليبيين فى المنطقة.

على آية حال : لم يكن الزلزال السالف الذكر هو الأخير فى حياة ذلك القرن، فالملاحظ أن عامى ١٢٠١م / ٥٩٧هـ ، ١٢٠٢م / ٥٩٨ هـ شهدا أحداثًا مهمة فى نطاق الزلازل، ففى العام الأول وتحديداً فى شهر مايو / شعبان وقعت زلزلة عنيفة فى بلاد الشام كانت جزءًا من نشاط

زلزالى عام امتد ليشمل العراق، وبلاد الشام ، ومصر، وعلى حد قول ابن الأثير «أثرت فى الشام آثارًا قبيحة وخربت كثيرًا»، ونجد أن مدينة دمشق أصيبت بها العديد من المنازل ، كذلك تأثرت المنارة الشرقية بجامع المدينة، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وكذلك البيمارستان النورى، أما حمص، وحماه، حاضرتا نهر العاصى ؛ فقد تهدمت العديد من المنازل فيهما، وفى بصرى انخسفت قرية بأكملها ، كذلك تأثرت المناطق الساحلية بذلك : إذ استولى الخراب على مدن طرابلس ، وصور، وعكا.

أما أكثر المناطق تضررًا بتلك الأحداث فكانت نابلس كبرى مدن الضفة القريبة إذ لم يبق بها سوى حارة السامرة، ويقال إنه قتل بها وبقراها ثلاثون ألفًا ، ومن الجلى البين عدم دقة الإحصاءات التى وصلت إلينا من ذلك العصر، وطابع المبالغة فيها ، أما بالنسبة لزلزال عام ١٢٠٢م / ٥٩٨هـ؛ فوفقًا لعدد من الروايات التاريخية ، نجد أن ذلك الزلزال امتد على على مدى يومين رئيسيين هما ٢١ ، ٢٢ مايو، ١٢٠٢م / ٢٦ ، ٢٧ شعبان عام ٥٩٨هـ، وقد وصفت أحداث الزلزال بأنه «كانت الأرض تسير سيرًا ، والجبال تمور مورًا، وما ظن أحد من الخلق إلا أنها زلزلة الساعة»، ويلاحظ أن أحداث اليوم الأول الزلزالية كانت أعنف من التى حدثت فى اليوم الثانى.

وجدير بالتنويه ؛ أن عدة مدن أصيبت من جراء تلك الهزات الزلزالية ، ومن أمثلتها : بانياس ، وصفد، وتبنين ، ونابلس ، وحوران، ولعل المنطقتين الأخيرتين كانتا أكثر المناطق تضررًا : إذ أن هناك من يشير إلى أن نابلس لم يبق بها جدار قائم سوى ما عرف بالمسرة أما حوران فقد غارت وضاعت الكثير من معالمها .

زد على ذلك ؛ تأثر جبل لبنان بالزلازل ويقال إن قسمين جبليين أطبقا على بعضهما الآخر على نحو أدى إلى هلاك مائتى رجل.

أما بالنسبة للمناطق الصليبية : فنجد أن فيليب دى بليسيس Philip du Plessis مقدم الداوية Templars فى رسالته إلى أرنولد الأول رئيس رهبان سيتو Arnold I Abbot of Citeaux ذكر أن ذلك الزلزال وقع فى الساعات الأولى من الصباح ، وكان أعنف زلزال وقع من بدء الخليقة – من وجهة نظره بطبيعة الحال– وفى عكا تم تدمير القصر الملكى ، أما صور فإن الخراب بها كان واسع النطاق ودمرت المدينة جميعها– وفق ذلك المصدر– باستثناء بعض الأجزاء فقط وبالتحديد ثلاثة أبراج محصنة . كذلك أصاب الدمار القلاع الصليبية ، مثل قلعة أرسوف، وقلعة عرفة .

وهناك مصدر آخر عن ذلك الزلزال فى صورة رسالة أرسلها جيوفرى أوف دنجون Geof-frey of Donjon الذى عمل مقدمًا للإسبتارية إلى الملك سانشو السابع ملك ناڤارا Sancho VII of Navarrra وفيها ما يؤكد الرسالة السابقة، ويقرر أن الزلزال المذكور هز بلاد الشام سواء المناطق الإسلامية أو الصليبية، فى الساعات المبكرة من الصباح ، وتأثرت به المنازل والقلاع، وقد أصيبت مدينتى صور، وطرابلس بالزلزال ، ونجد أن القلاع الصليبية مثل حصن الأكراد أصيبت هى الأخرى، وكذلك حصن المرقب .

من المهم أن نقرر ؛ أن تلك الزلازل أحدثت آثارها على العديد من المستويات ، ومن أمثلتها أنها أدت إلى الفتك بالآلاف من المعاصرين سواءً من المسلمين أو من الصليبيين وإن كان الأثر الأكبر كان لدى الأخيرين الذين عانوا فى الأصل من مشكلة نقص العنصر البشرى.

ومن ناحية أخرى؛ جعلت تلك الزلازل الناس يتقربون إلى الله تعالى بصورة أكبر خوفًا من عقابه جل شأنه، كذلك وجدت مؤلفات شعرية ونثرية عن الزلازل مما يعكس أن المعاصرين أدركوا أهميتها وخطورتها، ومن أمثلة الأولى قصيدة نظمها شاعر مجهول كثيرًا ما تردد فى المصادر التاريخية وهى خاصة بزلازل عام ١١٥٧م / ٥٥٢هـ وها هى بعض أبياتها :

روعتنا زلازل حادثات	بقضاء قضاه رب السماء
هدمت حصن شيزر ، وحماه	أهلكت أهله بسوء القضاء
وبلادًا كثيرة وحصونًا	وثغورًا موثقات البناء
وإذا ما مارنت عيون إليها	أجرت الدمع عندها بالدماء
وإذا ما قضى من الله أمر	سابق فى عباده بالمضاء
جل ربى فى ملكه وتعالى	عن مقال الجهال والسفهاء

وهكذا ، رحل من رحل تحت انقاض تلك الزلازل التى نكبت بها بلاد الشام حينذاك، وبقيت تلك القصيدة شاهدة على أحداث مدمرة جرت فى ذلك العصر .

أما على مستوى النثر ؛ فنجد أن مؤرخ مدينة دمشق الكبير ابن عساكر ألف رسالة عنوانها «الإنذار بوقوع الزلازل» ، ولم تصلنا تلك الرسالة للأسف الشديد ، وقد استعان بها السيوطى عندما ألف كتابه كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، ويلاحظ فى هذا المجال أن ابن

عساكر لم يكن أول من آلف فى أمر الزلازل فهناك ما ألفه من قبل أبويوسف بن اسحق الكندى (ت ٨٥٩م / ٢٥٤هـ) بعنوان علم حدوث الرياح في باطن الأرض المحدثة كثير الزلازل وقد أشار إليه ابن النديم فى كتابه الفهرست ، كذلك هناك قول غير مؤكد يتجه إلى أن الخطيب البغدادى (ت ١٠٦٨م / ٣٦٤هـ) له إسهامه فى مجال التأليف عن الزلازل.

ذلك كان حديث السندباد عن الهزات الزلزالية التى نكبت بها بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية والتى أشارت إليها المصادر التاريخية باشارات غلب عليها الإيجاز والاختصار. وتلك لمحة موجزة عن الآثار التى نجمت عنها .

وهكذا: كانت بلاد الشام فى ذلك العصر تشهد حروباً، وصراعات وزلازل على نحو جعلها فريسة مخاطر عديدة عانى منها المعاصرون ومشاركهم السندباد بعقله وروحه معاناتها .

-١٣-

تساءل أصدقاء السندباد قائلين ! إن كافة الصفحات السابقة اختصت بالحديث عن بنى البشر من الرجال ، والنساء ، والأطفال فى عصر الصليبيات ، ولكن ماذا عن الكائنات الأخرى التى عاشت معهم، مثل الحيوانات والحشرات، والنباتات وهل دخلت معهم تاريخهم؟ فأجابهم بالتأكيد نعم فالتاريخ ليس تاريخ بشر ، فقط بل تاريخ المملكتين الحيوانية ، والنباتية التى صاحبت الإنسان فى مسيرته.

وواقع الأمر؛ أن ذلك العصر صاحب الصليبيين فيه عدد من الحيوانات التى واكبت تاريخهم، مثل الخيول، والجمال ، ونحوها ، وكانت تحركاتهم الحربية قائمة على الخيول، خاصة بالنسبة لعناصر الفرسان، وهم جوهرة الجيش الصليبى ، أما المشاة فكانوا أقل مكانة بطبيعة الحال. ومن الملاحظ هنا؛ أنه خلال المعارك الحربية أصيبت الخيول أحيانًا بالسهام ، والرماح على نحو أدى إلى مصرعها وبالضرورة نتج عن ذلك ترجل الفرسان واصطدامهم بأعدائهم دون خيلوهم مما زاد من مخاطر ذلك الصدام على حياتهم.

ومما يذكر هنا ؛ أن المؤرخ الصليبى فوشيه الشارترى كان من أكثر المؤرخين الصليبيين الذين تناولوا بالحديث عدداً من الحيوانات التى اتصلت بتاريخ الصليبيين ، كذلك تحدث ذلك المؤرخ عن الحيوانات التى وصلت إلى مسامعه أخبار تواجدها فى مصر، وهكذا ، وجدناه يتحدث عن التمساح وفرس النهر أو «سيد قشطة» ومن العجيب أنه يذكر لنا أماكن تواجد تلك الحيوانات فى عدد من الأقطار مما يعكس اتساع معرفة الصليبيين بها، فيذكر أن فرس النهر يوجد فى مصر، وكذلك فى الهند. وأشار إلى أن جسده ضخم على نحو يتفوق معه على الفيل.

من زاوية أخرى: أشار ذلك المؤرخ إلى وجود الحمار الوحشى فى المناطق التى دخلها الصليبيون ، كما نعرف وجود الأسد وكذلك الأرنب البرى حرص المعاصرون على صيده ، وقد تحدث عنه الأديب والمؤرخ الشيزرى أسامة بن منقذ فى كتابه الشهير المعنون بـ «الاعتبار».

ومن المتصور ؛ أن بلاد الشام حينذاك كانت معرضاً حيًا يحوى عدداً وافرًا من الحيوانات المفترسة ، والأليفة على نحو انعكس بالضرورة على اشارات المصادر التاريخية التى ألفها المؤرخون المعاصرون .

ولانغفل كذلك عالم الأسماك التى توافرت فى مناطق المسلمين والصليبيين سواء المياه العذبة أو المالحة مثل أنهار العاصى، والليطانى ، والأردن ، وبحيرتى الحولة ، وطبرية ، والبحر المتوسط واشتهرت أنواع مميزة مثل تلك التى تناولها السيد المسيح من بحيرة طبرية وحرص الحجاج الأوربيون على تناولها تيمنًا بها .

ويضاف إلى ذلك ؛ عرف الصليبيون أنواعًا متعددة من الزواحف خاصة الثعابين ، وأشار المؤرخ الصليبى السالف الذكر إلى الأنواع السامة، ومنها الباسيليق، وأشار إلى أن طوله يبلغ نصف قدم ذو لون أبيض، وله تأثير مدمر بالنسبة للإنسان، والحيوان على حد سواء . كذلك أشار إلى نوع من الثعابين يعرف بـ «المثنيه» له رأسان اثنان- كما توهم يقع ثانيهما فى الذيل ، ثم «المقرنة» ولها قرون أربعة قصيرة وما عرف عنها أنها تغطى جسدها فى الرمل، وتقوم فيما بعد بالفتك بالطيور ، ولانغفل إشارته عن «الحمراوية» ، وذكر أنها تقوم بامتصاص الدماء بعد اللسع ، و«البرستا» وهى تصيب من تلدغه بتورم فاحش على نحو يدفعه إلى الموت ويلاحظ أن رؤية ذلك المؤرخ لتلك الثعابين اتصلت بالخيال الشعبى.

ومن الجلى البين ؛ أن الصليبيين عرفوا أنواعًا أخرى من الثعابين لم يذكرها ذلك المؤرخ وقد أشار إلى ذلك وأوضح أنه مهما اختلفت أسماؤها فكل منها يؤدى إلى الموت بطريقته الخاصة.

مما يجدر ذكره هنا؛ أن الصليبيين عرفوا أنواعًا متعددة من السموم النباتية ، والحيوانية ، والمعدنية، واستخدموا تلك السموم من أجل الفتك بخصومهم السياسيين، كذلك نعرف أن عناصر من الزوجات الصليبيات فى عكا اعتدن استخدامها من أجل الفتك بأزواجهن والارتباط بعشاقهن من الشباب الذين قدموا من الغرب الأوربى، وكانت تلك الأحداث مثلت ما يشبه - الظاهرة الاجتماعية فى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى على نحو خاص . مما عكس أن الكيان الصليبى عانى بشدة من مشاكل داخلية على المستوى الأسرى عجلت بالفتك به فى نهاية المطاف بحكم كون الأسرة نواة المجتمع ذاته .

ويضاف إلى الحيوانات السابقة ؛ هناك عدد من الحشرات التى أثرت بصورة كبيرة فى تاريخ الصليبيين، فى صورة دودة القز والنحلة، والجرادة، والبعوضة ويلاحظ أن الحشرات المذكورة منها النافع ومنها الضار ، أما دودة القز فلها رحلة طويلة مع التاريخ حتى من قبل مقدم الصليبيين إلى المنطقة بعدة قرون، فمن المعروف أن الصينيين هم أول من عرف فائدة

دودة القز وأنها تؤدى إلى استخراج الحرير الطبيعى، وظل ذلك الأمر بمثابة سر من الأسرار الاقتصادية الصينية الكبرى إلى أن خرج من دائرة الصين إلى العالم الخارجي وعرف أمر دودة القز وفائدتها منذ القرن السادس الميلادى، وقيل أن ذلك حدث خلال عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م).

على أية حال ؛ عرف التاريخ فيما بعد طريق الحرير، وهو طريق عالمى مر بقارة آسيا وامتد إلى أوربا وبدأ من الصين ثم إلى غربها ، حتى وصل إلى إيران، ومنها إلى العراق ، ثم بلاد الشام وامتد منها إلى آسيا الصغرى والإمبراطورية البيزنطية أو من بلاد الشام إلى عالم البحر المتوسط من خلال الطرق البحرية ، ومما يذكر هنا أن المدن التى وقعت على الطريق المذكور ازدهرت ازدهارًا تجاريًا كبيرًا ، وكذلك على المستوى الحضارى بصفة عامة.

أدرك السندباد إدراكًا كاملاً، أن طريق الحرير المذكور كان طريقا استراتيجيًا بالغ الأهمية وسعت للسيطرة عليه كافة القوى الكبرى الأوربية والآسيوية التى أرادت التوسع الخارجى على نحو قارى، وهكذا ، فإن الغرب الأوربى عندما أشعل أتون الحروب الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى كان يهدف - فيما هدف إليه- السيطرة على طريق الحرير الذى كان يصب - جزئيًا فى بلاد الشام خاصة منطقة الساحل حيث التصدير إلى المدن الأوربية حيث أسواق الاستهلاك الغنية ، وذات الأمر يقال بشأن المغول الذين قاموا بتوسعاتهم فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى من أجل السيطرة على نفس الطريق، وهكذا ؛ حركت التجارة، والثراء الناجم عنها كلاً من الحركتين التوسعيتين الكبيرتين اللتين عرفهما العالم فى القرون الوسطى، أولاهما: التوسع الصليبى، وثانيهما · التوسع المغولى ونكب بهما عالم الإسلام فى القرون الوسطى.

ولانغفل حقيقة مهمة هنا: وهى أن ذلك كله حدث ضمن إطار الثورة التجارية التى عرفتها مرحلة القرون الوسطى فيما بين ١١٠٠ ، ١٤٠٠ ميلادية ، وأذكر القارئ بأن الحرير كان أحد عناصر التجارة العالمية فى ذلك العصر وهى الحرير، والتوابل ، والذهب والرقيق، وكافة الصراعات الدولية بين القوى السياسية لاتفهم إلا من خلال التنافس الدولى للسيطرة على تلك الطرق. والإفادة من المكاسب العديدة التى من الممكن جنيها من جراء ذلك.

على أية حال ؛ عرف الصليبيون استخراج الحرير من دود القز وصنعوا ملابس عرائسهم منه وفى رحلة ابن جبير صورة صادقة لذلك من خلال حفلة العرس الصليبى الذى شاهده فى

مدينه صور اللبنانية حيث شاهد العروس وهى ترفل فى ثيابها الحريرية ، ويلاحظ أن مدينتى الموصل ودمشق اشتهرتا بصناعة الملابس الحريرية .

زد على ذلك ؛ دخل النحل تاريخ تلك المرحلة، فقد عرفه المسلمون والصليبيون على حد سواء، وتفوق الأولون فى معرفة وسائل العلاج العديدة لمختلف الأمراض من خلال ذلك الشفاء الربانى العجيب ، وقد أشارت المؤلفات الطبية التى رجعت إلى ذلك العصر إلى تلك الحقيقة. وبالنسبة للصليبيين ؛ نعرف أنهم عملوا على تربية النحل، وهناك إشارات تفيد بيع عسله فى أسواق صور وغيرها من المدن الصليبية.

جدير بالذكر؛ أن المسلمين عند مقارنتهم بأعدائهم كانوا أكثر احتفاءً بحشرة النحل العجيبة – خاصة أنها وردت فى القرآن الكريم– حتى على المستوى التأليفى فقد تناولها بالحديث الدميرى (ت ق٧ هـ / ١٣م) فى كتابه حياة الحيوان الكبرى، وفيما بعد : انتهاء ذلك العصر، تعرض لها مؤرخ مصر الإسلامية – كما أطلق عليه الراحل الفاضل أ.د. جمال الدين الشيال– ونعنى به تقى الدين المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) . الذى ألف رسالة نادرة عنوانها «نحل عبر النحل».

وهكذا : اتفقت دودة القز والنحلة فى أنهما أفادتا المعاصرين فى التجارة والغذاء وبالفعل كانتا حشرتان دخلتا دائرة التعامل النقدى ويضاف إلى ما سبق : دخل الجراد فى تاريخ الصليبيين والمسلمين من خلال إغاراته التى أخذت شكل الأسراب الضخمة وهاجمت الحقول فأكلت الأخضر واليابس وأحدثت بالتالى خسائر فادحة كما حدث فى أعوام ١١١٤م / ٥٠٨هـ، ١١١٧م / ٥١١هـ ، ١١٢٠–١١٢٤م / ٥١٤–٥١٨هـ، على نحو نجم عنه حدوث المجاعات أحيانًا التى اضرت بهم أشد الضرر ، ونجد ذلك بصورة واضحة خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى ، وفى حقيقة الأمر : أن ذلك الضرر لم يحل بالصليبيين فقط بل وبأعدائهم المسلمين أيضًا ، وبحث السندباد فى مصادر ذلك العصر فوجد عالمًا فذًا من مصر وهو الدميرى فى كتابه السالف الذكر، ففصل فيه الحديث عن الجراد وأنواعه والتى كان أخطرها – كما أثبت التاريخ– الصحراوى الذى كان يفتك باللون الأخضر إذا ما واجهه .

وإلى جانب الكائنات السابقة من الحيوانات ، والحشرات هناك البعوض الذى يعد من أصغر الكائنات ، ومع ذلك كان تأثيره فى ذلك العصر لاينكر، فقد أدى البعوض إلى الإصابة بمرض التيفود الذى كان يفتك فى ذلك العصر بالعديدين، ومما يذكر هنا– كما أسلفنا الإشارة من قبل– أن السلطان صلاح الدين الأيوبى ؛ مات – على الأرجح – من خلال ذلك المرض.

أما الطيور فى ذلك العصر؛ فقد عرفها المسلمون والصليبيون كما تعرفها فى عصرنا الحالى، وإن كان الفارق الجوهرى بطبيعة الحال هو الفارق المعرفى الضخم بفارق القرون الفاصلة بيننا الآن، معاصرى الصليبيات، ومن تلك الطيور الحمام الذى كان منه الحمام الزاجل الذى اشتهر عنه توصيل الرسائل، وكان من الأدوات الرئيسية لديوان الإنشاء أو الرسائل الذى قام بدور بارز فى ذلك العصر، ويلاحظ فى هذا الشأن أن الملك العادل نور الدين اتخذ ذلك النوع من الحمام الذى عرف فى المصادر باسم «الحمام الهوارى» لكى تصل إليه الأخبار دونما تأخير على نحو أفاده فى إدارة دولته وكذلك فى مواجهة الصليبيين.

ومما يذكر فى هذا الصدد: أن جنديا أيوبيًا ملك حب الحمام الزاجل فؤاده وأقام له برجًا خشبيًا ، وقد تندر عليه البعض لتصورهم أنه يهوى ما لا فائدة ترجى من ورائه ، غير أنه خلال أحداث ما عرف بالصليبية الثالثة ، وأثناء ، حصار مدينة عكا أفاد الحمام الزاجل الذى كان لذلك الجندى فى توصيل أخبار المسلمين المحاصرين فى المدينة الباسلة المجاهدة التى تحملت ويلات حصار الصليبيين لها طوال عامين كاملين، فكان الحمام يطير بالرسائل بين السلطان صلاح الدين، وأهل عكا، وتمكن المسلمون بذلك من معرفة أخبار عدوهم .

وبالإضافة إلى الحمام ؛ كانت هناك الصقور أو الشواهين التى استخدمت فى أغراض الصيد، ولذلك ارتفع ثمنها، ويلاحظ أن المعاصرين عرفوا معلومات وافية عن تلك الطيور وأنواعها، وأماكن تواجدها ، ومواسم هجرتها ، وكذلك أوقات تزاوجها ، كذلك وجد هناك من الأطباء من عرف أمور علاجها، بل ألفت مؤلفات فى «البيزرة» مثلها فى ذلك مثل المؤلفات التى آلفت فى مجال الحيوانات أو ما عرف «بالبيطرة» .

على آية حال: من المتصور أن الصليبيين عندما قدموا إلى بلاد الشام – وهى منطقة تابعة مناخيًا لإقليم البحر المتوسط المعتدل بصفة عامة بخلاف الغرب الأوربى القارص البرودة- وجدوا آن أنواع الطيور اختلفت عما آلفوه فى بلادهم الأصلية.

ذلك أمر الطيور؛ لكن ماذا عن المملكة النباتية ؟ ، واقع الأمر : تعددت النباتات الطبيعية أو المزروعة فى أنحاء بلاد الشام سواءً فى مناطق المسلمين أو الصليبيين خاصة إذا مالاحظنا توافر العوامل الطبيعية ، والبشرية التى أدت إلى ازدهار الحياة النباتية هناك.

ويلاحظ هنا أنه إلى جانب دخول العديد من النباتات دائرة الاستهلاك البشرى كغذاء ،

فإنها دخلت كذلك فى أمور العلاج الطبى، وكذلك اشتغل بها العطارون الذين توافرت لديهم العدد الوافر منها، فيحدثنا المؤرخ الدمشقى ابن القلانسى أن مرضًا ما انتشر فى صفوف الدماشقة وهرع القوم إلى دكاكين العطارين، وذكر أحدهم أنه با ع فى يوم واحد عدة مئات من أصناف العطارة ، وأذكر القارئ هنا- كما أسلفت الإشارة من قبل- آن ذلك العصر ازدهرت فيه التوابل ازدهارًا كبيرًا، وعرف العطارون فى ذلك العصر فوائد كل نبات من النباتات كوسيلة للعلاج ويلاحظ أنهم عملوا ليس فقط فى أمر العطارة ، بل أيضًا فى مجال الصيدلة ولذلك اعتمد المرضى على الأطباء والعطارين فى علاج مرضاهم.

مهما يكن من أمر؛ وصلت إلى آيدى المؤرخين من ذلك العصر عدد من الكتب المتخصصة فى أمر العلاج بالأعشاب وتأثيرها الفعال فى علاج مختلف الأمراض ومن أولئك المؤلفين من كان من بلاد الشام ومنهم من كان خارجها، ولانغفل أيضًا جانب «المعرفة الشعبية»، فقد تناقلت الأجيال كابرًا عن كابر بصورة شفاهية فوائد العديد من النباتات فى أمور معالجة الأمراض المختلفة، على نحو يكشف لنا بجلاء كيف أن تلك النباتات كان لها دورها الفعال فى حياة المعاصرين حينذاك، وكيف أنها صارت جزءًا لايتجزأ من «الموروث الشعبى» .

وهكذا : يتضح لنا أن تاريخ بلاد الشام عصر الحروب الصليبية لايمكن كتابته دون التعامل مع الحيوانات المفترسة ، والأليفة ، وكذلك الحشرات الضارة والنافعة والطيور والنباتات، واشترك الجميع - دون استثناء- فى صنع تاريخ تلك المرحلة الحيوية والفعالة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى القرون الوسطى، على نحو يكشف لنا عن أن استئثار الإنسان كفاعل تاريخى بكتابة تاريخ تلك المرحلة دون الإشارة إلى الكائنات الأخرى، يعد- وبحق- تجاوزًا للموضوعية التاريخية الواجبة .

ليس فى الإمكان تتبع صفحات تاريخ الحروب الصليبية التى شنها الغرب الأوربى على المسلمين فى بلاد الشام خلال القرنين الثانى عشر ، والثالث عشر الميلاديين / السادس، والسابع الهجريين دون التعرض لإحدى القوى الدينية المسيحية المحلية فى بلاد الشام فى ذلك العصر فى صورة الموارنة الذين قدر لهم لعب دور فعَّال فى سبيل دعم الوجود الصليبى فى بلاد الشام خاصة فى لبنان.

وجدير بالذكر ، أن الموارنة ينتسبون إلى القديس مارون St. Maron الذى ولد فى منطقة أفامية بشمال الشام وعاش فى أخريات القرن الرابع الميلادى والنصف الأول من القرن الخامس الميلادى ، وفيما بعد تم تشييد دير فيما بين أفامية وحمص وحرص أتباعه ومريدوه على الارتباط به تخليداً لذكرى قديسهم، وعرف باسم «دير القديس مارون» ، كما عرف اتباعه بأتباع القديس مارون، وعرف عن ذلك الدير الثراء العريض وتناثرت من حوله صوامع الرهبان والتى بلغت نحو الثلاثمائة.

وإذا كان القديس مارون قد لعب دوراً مهمًا فى حياة الموارنة الباكرة : فإن القديس يوحنا مارن (ت ٦٠٧م / ٨٩هـ) أعطى هذه الطائفة طابعها القومى، ونعرف أنه ولد بالقرب من أنطاكية، وفيما بعد سافر إلى القسطنطينية وتم ترسيمه أسقفًا على منطقة البترون والتى عدت من أولى المناطق التى ارتبط بها الموارنة فى بلاد الشام.

ويلاحظ : أن الموارنة اعتنقوا المذهب المونوثيليتى أو مذهب المشيئة الواحدة الذى ابتدعه الإمبراطور البيزنطى هرقل للتوفيق بين أصحاب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح وأصحاب الطبيعتين .

ومن المهم إدراك : أن ذلك التغلغل كان من الشمال إلى الجنوب، حيث وجدوا فى وادى نهر العاص أو الأورنت، وتمكنوا من اجتياز أفامية وحماه وحمص إلى أن انتهى أمرهم بالاستقرار فى جبل لبنان فسكنوا شماله ثم وسطه وأخيراً جنوبه كما يقرر البعض .

وبصفة عامة؛ ناصب الموارنة المسلمين عندما اتجهوا إلى فتح بلاد الشام وفيما بعد عملت الخلافة العباسية العداء خاصة فى عهد الخليفة أبوجعفر المنصور على تسكين عدد من القبائل العربية فى لبنان من أجل إيجاد توازن سكانى بين الوجود المسيحى المارونى ، والوجود العربى.

على أية حال ؛ ارتبط الموارنة بجبل لبنان، وهو جبل مطل على مدينة حمص ، وهو عبارة عن سلسلة جبال تبدأ بالقرب من جبال النصيرية من وادى قلعة الحصن إلى وادى الليطانى، ولدينا أوصاف مهمة لذلك الجبل من جانب الرحالة الأوربيين الذين زاروا بلاد الشام، ونعرف من الرحالة دانيال الروسى أنه جبل عالٍ ضخم وقمته تكون مغطاة بالثلج ، وتنبع منه عدة أنهار تبلغ اثنى عشر نهرًا ، ويقرر الفارس أرنول احتوائه على أراض جيدة وعدة مدن وانقسمت مناطقه بين المسلمين والمسيحيين مناصفة ، ونعرف أن جبل لبنان مثل صعوبة فى التنقل بين أجزائه ولذلك كان بمثابة ملجأ للجماعات ذات العقائد والمذاهب الخاصة مثل الموارنة والدروز ، والنصيرية.

والأمر المهم بالنسبة لجبل لبنان ، أنه وفر أهمية استراتيجية كبيرة فقد كان بمثابة حصن طبيعى يتقدم الطرق الحربية للساحل الفينيقى ومنطقة جوف سوريا ، أما من الناحية الاقتصادية فقد امتازت مناطقه بجودة أراضيها على نحو وفر للموارنة نشاطًا زراعيًا مزدهرًا من خلال تواجدهم فيه، كذلك عملوا من خلاله بالنشاط التجارى بحكم موقعه كمركز اتصال بين المناطق الواقعة إلى شرقه والساحل .

وبصفة عامة؛ من أهم مراكز الوجود المارونى فى ذلك العصر نذكر جبيل، والبترون ، وجبة المتيطرة ، وجبة بشرى. ودير القمر، ولانغفل هنا ملاحظة : أن ذلك العصر شهد التوزيع الطائفى للمدن والقرى من حيث كونها سنية أو شيعية أو درزية أو نصيرية أو مارونية وتلك زاوية من خلالها يمكن إدراك توزيعات قوى الصراع الطائفى عشية مقدم الصليبيين إلى المنطقة.

ويلاحظ أن الصليبيين عندما كانوا فى طريقهم إلى مدينة بيت المقدس؛ مروا بالمناطق التى كان يقطنها الموارنة ، ولدينا وصف مهم للطريق الذى سلكوه من خلال رواية المؤرخ المجهول صاحب الجستا، فيقرر أنه بعد أن تم الاتفاق مع حاكم طرابلس غادر الصليبيون المدينة وساروا خلال طريق ضيق شديد الانحدار ، وأدركوا قلعة البترون حيث أدى السير بهم إلى

مدينة مجاورة للبحر سميت «جبيل» ثم وصلوا إلى نهر ابراهيم ويلاحظ أن كافة المناطق السابقة احتوت على عناصر الموارنة ، وعندما وصلوا إلى عرقة بالقرب من مدينة طرابلس نزلت وفود من عناصر الموارنة من أجل استقبالهم في يوم عيد الفصح ، ويقرر البعض أن ذلك كان بمثابة اللقاء الأول بين الصليبيين والموارنة ، ومنذ ذلك الحين: ارتبط الطرفان بحكم رابطة الدين على الرغم من الاختلاف المذهبي، ولاريب في أن الموارنة رأوا في هؤلاء القادمين من الغرب الأوربي المسيحي نصيراً قوياً لهم في مواجهة المحيط الإسلامي المعادي للوجود الماروني.

ومن ناحية أخرى؛ أرسل الصليبيون في ظروف حصارهم لمدينة بيت المقدس في صيف عام ١٠٩٩م / ٤٩٢هـ - عدداً من رجالهم يجوسون خلال بعض النواحي مستعينين في ذلك بالجماعات المسيحية المحلية خاصة الموارنة، ومن الطبيعي أن هؤلاء كانوا على معرفة جيدة بمواضع المدينة ، ومداخلها ، ومخارجها أكثر من معرفة الصليبيين القادمين من الغرب الأوربي، وأوضحوا لهم الأماكن التي تتوافر فيها الأخشاب من أجل الاستعانة بها في صناعة أدوات الحصار اللازمة للاستيلاء على المدينة.

ومن بعد قيام المملكة اللاتينية في الشرق نجد أن عهد الملك الصليبي بلدوين الأول Bald-win I (١١٠٠-١١١٨م / ٤٩٤-٥١٢هـ) قد شهد أحداثاً مهمة جعلت من الاستعانة بالعناصر المارونية أمراً ملحاً بالنسبة للغزاة ، حيث واجهوا مشكلة نقص العنصر البشري التي سبق وأن أشرت إليها من قبل، وقد أفادوا من الموارنة في تعمير مدينة بيت المقدس التي تأثرت إلى حد بعيد من جراء المذبحة التي جرت فيها بعد دخول الصليبيين إليها.

ومن الزوايا المهمة في معرض حديثنا عن الموارنة : مسألة أعدادهم وهنا نجد اختلافاً واضحاً في تقديرات المؤرخين ، فعلى حين يقرر وليم الصوري أنهم بلغوا أربعين ألفاً ، إلا أننا نلاحظ أن جاك دي ڤتري Jacque de Vitry قد ذكر أن أعدادهم كبيرة دون تحديد رقم معين، بينما وجدت محاولات من جانب المؤرخين والكتاب الموارنة المحدثين للمبالغة في تقدير أعداد الموارنة في عصر الحروب الصليبية خدمة لأهداف سياسية لا تخفى على أحد في ظروف الصراع الماروني مع القوى السياسية المختلفة في لبنان في العصر الحديث. وقد ذكر دربان أنهم بلغوا ستين ألفاً واعتقد أن ذلك العدد يقتصر على الرجال من دون النساء لأن النساء لم يكن يحتسبن في عمليات التعداد، ورأى آخر: أن أعداداً كبيرة من الفرسان والمقاتلين قدمها الموارنة للصليبيين بلغت خمسة وعشرين ألفاً عندما قدم الملك الفرنسي التاسع إلى بلاد الشام.

وبصفة عامة، من المرجح أن كافة الأرقام السابقة لاتعد أرقامًا مؤكدة نظرًا لعدم وجود الإحصاءات الدقيقة فى ذلك العصر ، ولذلك فإن طابع المبالغة لايمكن انكاره فى تلك الزاوية .

مهما يكن من أمر؛ قدم الموارنة العون الحربى للصليبيين فى معاركهم ضد المسلمين ، وصار ذلك بمثابة أمر تقليدى خلال مدة الاحتلال الصليبى فى بلاد الشام، وساهموا فى عناصر المشاه ، ورماة الأسهم المتطوعة ضمن فرق الجيش الصليبى، والذين عرفوا بالتركبولى وساعدهم على ذلك ما عرف عنهم من براعة فى رمى السهام، ثم أنهم اتصفوا- كما قرر وليم الصورى- بقوة الشكيمة ، والشجاعة ، ويلاحظ دعمهم للصليبيين فى الجوانب الصحية والإدارية حيث عملوا أطباء لعلاج الغزاة وكذلك صيادلة فى الجيوش والمعسكرات الصليبية ، أما فى الجانب الإدارى نجد أنهم عملوا كتراجمة الأمر الذى أدى إلى دعم الجهاز الإدارى الصليبى. أى أن دعمهم للغزاه كان حربيًا وطبيًا واداريًا مما عكس تعدده وشموليته .

ويتجه المؤرخون الموارنة المحدثون إلى إيراد العديد من الإشارات عن الدعم المارونى للصليبيين على مدى تاريخ وجودهم فى بلاد الشام ؛ غير أن المشكلة تتمثل فى أن المصادر التاريخية العربية خالية - إلا ماندر - من اشارات عن ذلك الجانب ولذلك ينبغى أخذ ما ورد لدى أولئك المؤرخين الموارنة بالحذر والحيطة.

زد على ذلك؛ اتجه المؤرخون الموارنة المحدثون إلى تدعيم الارتباط التاريخى بين الموارنة وفرنسا من خلال إبراز حجم العون الحربى المارونى للملك الفرنسى لويس التاسع فى بلاد الشام ، وذكروا أن خمسة وعشرين ألفًا من الفرسان الموارنة قدموا العون لذلك الملك على نحو كان له أطيب الأثر فى نفسه، ويلاحظ أن تلك الرواية أوردها الشدياق فى كتابه أخبار الأعيان ورددها من بعده عديد من المؤرخين سواءً من الموارنة المحدثين وغيرهم ، غير أن تلك الحادثة من الممكن تفنيدها على اعتبار عدة عوامل يمكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : أن المؤرخ الفرنسى جان دى جوانفيل وهو الذى ألف كتابًا شهيرًا عن حياة لويس التاسع لانجد فيه أدنى إشارة عن تلك الحادثة البارزة والتى فى حالة حدوثها فعلاً ما تردد ذلك المؤرخ عن إيرادها وهو الذى أورد أحداثًا أقل شأنًا منها بمراحل .

ثانيًا : إن الأرقام الواردة فى الرواية المذكورة يتضح منها بجلاء طابع المبالغة، وأغلب الاحتمال أن الموارنة عند منتصف القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى كان بإمكانهم تكوين عدة آلاف قليلة من المقاتلة وليس مثل تلك الأرقام المبالغ فيها.

ثالثًا : يبدو أن تلك الرواية السابقة شارك فى صنعها خيال المؤرخين الموارنة إلى حد كبير، وهدفوا من وراء ذلك إيجاد تأصيل تاريخى فى العصر الوسيط- لاسيما خلال مرحلة الحروب الصليبية - للعلاقات الوطيدة بين لبنان وفرنسا فى العصر الحديث.

مهما يكن من أمر ؛ من المقرر أن المماليك فى صورة الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون عملوا على شن هجمات حربية ضد مناطق الموارنة لتقليم أظافرهم ومن الجلى البين أن مثل تلك الهجمات كانت ضرورية من أجل إخضاع آخر الإمارات الصليبية فى بلاد الشام فى صورة إمارة طرابلس، ويقرر البعض أن هجمات السلطان الأخير على مناطق الموارنة أدت إلى هجرة العديد منهم إلى جزيرة قبرس Cyprus المواجهة للساحل اللبنانى وقدر البعض أعدادهم بعدة آلاف، مع ملاحظة أن الوجود المارونى فى تلك الجزيرة كان قائمًا بالفعل من قبل تلك الأحداث.

على أية حال ؛ أثر سقوط إمارة طرابلس فى قبضة المماليك عام ١٢٨٩م / ٦٨٨هـ تأثيرًا سلبيًا على وضع الموارنة فى بلاد الشام من الناحية السياسية ، واعتبر أحد الباحثين الأمر بالنسبة لهم على أنه «نكبة نادبة» ، فالتاريخ السياسى المارونى بعد المماليك والذى أكمل غزو الساحل الشامى عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ اختلف إلى حد كبير عن تاريخهم خلال المرحلة الصليبية، فبعد أن كان الموارنة أحد أكثر العناصر تميزًا وحصولاً على الامتيازات المتعددة من الصليبيين صاروا مجرد عناصر من سكان الجبال الهاربين مثلما كان عليه حالهم قبل مقدم الغزاة إلى المنطقة.

ويلاحظ أن الموارنة تعلقوا بالصليبيين وانتظروا ذلك اليوم الذى تعود فيه جيوشهم إلى المنطقة بعد طردهم منها ولدينا إشارة مهمة تدل على ذلك من جانب لويس دى روستشوارت الذى قام بالحج إلى بيت المقدس فى القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى أى بعد ما يقرب من قرنين من تاريخ طرد الصليبيين من المنطقة ، وقد قرر أن الموارنة كانوا قلقين للغاية بشأن قضية ما إذا كان الصليبيون عازمين على العودة إلى الأرض المقدسة أم لا.

على أية حال ؛ تأكد لنا من خلال السطور السابقة كيف أن الغزاة الصليبيين لعبوا بذكاء على وتر التركيبة الطائفية والعرقية التى كانت عليها بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى، وعملوا على دعم الكيانات المحلية المسيحية التى ارتمت فى أحضان المشروع الصليبى بحثًا عن مصالحها السياسية الخاصة ونكاية فى القيادات السياسية السنية الحاكمة.

لاحظ السندباد أن عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام / شهد ظهور هيئات دينية حربية صليبية جمعت بين فكرتى الرهبنة والحرب على الرغم من التناقض الظاهر- لأول وهلة- بين الفكرتين ، لكنه عصر له تركيبته التاريخية التى جمعت بين التناقضات والمتنافرات؛ من أجل خدمة المشروع الصليبى الكبير، وكان لتلك الهيئات دورها الفعال فى الجانب العلاجى ، وكذلك فى مواجهة المسلمين على الصعيد الحربى، ومن أمثلة تلك الهيئات الاسبتارية، والداوية، والتيوتون، وهيئة القديس لازاروس، والقديس توماس.

وجدير بالذكر ؛ أن تلك الهيئات الدينية الحربية وجد لها أصل أسبانى فى شبه الجزيرة الأيبيرية حيث كانت التجربة الأولى للحروب الصليبية ضد المسلمين هناك ، ومن أمثلة ذلك ؛ أن تنظميًا أسبانيًا دينيًا وحربيًا فى صورة تنظيم القديس سافيور الذى أسسه الملك الفونسو الرابع عام ١١١٨م / ٥١٢هـ ، على نحو يكشف لنا عن الأصول الأسبانية لتلك التنظيمات .

وفيما يتعلق بتلك الهيئات ، من الملاحظ أن أكبرها شأنًا وأكثرها ثقلاً على المستوى العلاجى كانت هيئة الاسبتارية؛ ومن الملاحظ أنها قامت من خلال تلك المستشفى التى أقامها الأمالفيون أهل مدينة أمالفى Amalfi الواقعة فى إقليم كامبانيا Campania فى مقاطعة سالرنو Salerno، وتم تسيسها فى القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى، وقامت بدورها فى علاج المرضى والفقراء فى الأرض المقدسة من قبل مقدم الصليبيين إليها فى أخريات القرن المذكور، وعند مقدم الأخيرين إلى المنطقة : كان يتولى أمر هيئة الاسبتارية رَجل يدعى جيرارد الذى يعد المقدم الأول لها ، غير أنه من الملاحظ ندرة المعلومات الخاصة بجيرار هذا كذلك يدور الجدل بين الباحثين حول أصله فيرى البعض أنه أمالفى الأصل Gerard ويرى البعض الآخر أنه بروفنسالى.

على أية حال؛ تولى أمر الهيئة من بعده رجل يدعى ريموند دى بويه Raymond de Puy وذلك فى عام ١١٢٠م / ٥١٤هـ وفى عهده تم تحويل الهيئة من مجرد هيئة علاجية خيرية إلى هيئة حربية تعمل من أجل مواجهة الخطر الإسلامى المحدق بالكيان الصليبى خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الصليبيين فى المنطقة.

وبصفة عامة ؛ من الملاحظ أن تلك الهيئة حظيت باهتمام حكام وملوك مملكة بيت المقدس الصليبية الذين عملوا على تقديم المنح والعطايا والهبات لها على نحو دعم مركزها المالى والسياسى من بعد ذلك، ومن أمثلة ذلك؛ أن جودفرى دى بويون الذى تولى حكم المملكة الصليبية بعد دخول الصليبيين بيت المقدس زار المستشفى ومنح الهيئة بعض المنح والهدايا كذلك أقر للهيئة ببعض الأملاك التى أوقفها لحساب المستشفى ، ونعرف أنه منح الهيئة المنطقة المعروفة باسم كاسل هيسيليا وبعض المناطق الأخرى، ومن بعده قدم الملك بلدوين الأول ثلث الغنائم التى غنمها من المصريين فى معركة الرملة عام ١١٠١م / ٤٩٥هـ - قدمها للهيئة ، غير أن الدفعة الكبيرة التى حظيت بها الهيئة حدثت عام ١١١٣م / ٥٠٧هـ عندما اعترف البابا باسكال الثانى بالهيئة ولذلك من الممكن الافتراض بأن التأسيس الرسمى لها حدث حوالى ذلك العام ، وشمل ذلك الاعتراف كافة الأملاك التى لها، وصارت من الآن فصاعداً تحت الحماية البابوية المباشرة ، وبالتالى لم تكن تخضع لسلطة ملوك الصليبيين على نحو كان له تأثيره السئ على مستقبل الوجود الصليبى فى بلاد الشام، حيث عملت الهيئة وفق مصالحها السياسية دون مراعاة - أحياناً- للصالح الصليبى العام، بل وعارضت القيادة السياسية الصليبية بصورة جعلها أشبه بدولة داخل الدولة الصليبية.

على أية حال: اتسع نفوذ مستشفى هيئة الاسبتارية وزارها عدد من الرحالة الأوربيين على مدى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى وأشادوا بنشاطها العلاجى، ومن أمثلتهم الرحالة الألمانى يوحنا أوف ورزبرج الذى أشار إلى أن تلك المستشفى بها الفان من المرضى الذين يعالجون وينالون الرعاية الطبية المناسبة ، ولاريب فى آن ذلك الرقم الكبير الذى أشار إليه ذلك الرحالة الذى اتصف بالدقة وقوة الملاحظة يكشف لنا عن تزايد حجم الدور العلاجى لتلك البيئة .

تجدر الإشارة : إلى أن المرحلة الحاسمة فى تاريخ هيئة الاسبتارية تمثلت فى تحولها من النشاط العلاجى فقط إلى الجانب الحربى، وقد حدث ذلك- على الأرجح - فى عهد مقدمها الثانى ريموند دى بوى الذى تولى منصبه على مدى أربعين عامًا من ١١٢٠ إلى ١١٦٠م / ٥١٤ - ٥٥٥هـ مما أتاح له دعم نشاط تلك البينة ، وهناك من الباحثين من تصور أن المملكة الصليبية عهدت للهيئة المذكورة أمر الدفاع عن قلعة بيت جبرين عام ١١٣٦م / ٥٣١هـ، وحصن الأكراد عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ وأن هذين التاريخين - لاسيما الأول- يؤكدان المرحلة الزمنية التى حدث فيها مثل ذلك التحول فى عهد المقدم المذكور.

ولاريب فى أن تزايد الخطر الإسلامى من ناحية ، ثم نقص العنصر البشرى الذى هدد الصليبيين على مدى تاريخهم فى بلاد الشام ؛ دفع المملكة الصليبية إلى الاستعانة بعناصر الاسبتارية من أجل الدفاع عن كيان الغزاه خلال تلك المرحلة.

وبصفة عامة؛ شاركت هيئة الاسبتارية فى كافة المعارك الحربية التى خاضها الصليبيون ضد المسلمين منذ ذلك الحين حتى معركة عكا الأخيرة عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ، على نحو عكس فعالية دورها التاريخى على مدى القرنين الثانى عشر، والثالث عشر الميلاديين / السادس، والسابع الهجريين، كذلك امتلكت الهيئة العديد من القلاع الحصينة على مدى طول المملكة الصليبية وعرضها على نحو أكد مكانتها الحربية ونفوذها السياسى المتعاظم.

أما الهيئة التالية؛ فهى هيئة الداوية أوفرسان المعبد والتى أسسها الفارسان الفرنسيان هيو دى باين وجودفرى دى سانت أومير وذلك فى عام ١١١٨م / ٥١٢هـ، لحماية الطريق البرى الوعر والخطر فيما بين يافا وبيت المقدس ، ويلاحظ هنا أن مملكة بيت المقدس الصليبية عضدت ودعمت الهيئة الجديدة التى بدأت بداية حربية خالصة مما ميزها على هيئة الاسبتارية السابقة عليها، وفى هذا الشأن قام الملك الصليبى بلدوين الثانى بتخصيص سكن خاص بها، وقد عمل الصليبيون من قبل على تحويل قبة الصخرة إلى كنيسة سميت معبد السيد Tem-plum Domini كما أنهم استخدموا المسجد الأقصى بحيث جعلوه ثلاثة أقسام الأول كنيسة، والثانى مسكنًا للداوية والثالث مستودعًا لذخائرهم وأطلقوا على المسجد المذكور تعبير معبد سليمان Templum Solomonis وكان منحهم ذلك الموقع سببًا فى تسميتهم فرسان المعبد.

من الملاحظ أن هيئة الداوية لقيت دعمًا سياسيًا له شأنه الكبير عندما حصلت على موافقة الأوساط الكنسية الغربية وذلك فى مجمع تروى Troy بمقاطعة شامبنى الفرنسية فى يناير ١١٢٨م / المحرم ٥٢٢هـ، وفى هذا المجمع قام القديس برنارد دى كليرفوه Bernard de Clairvaux بدور بارز فى سبيل دعم الهيئة الجديدة وألقى خطابًا امتاز بالفصاحة وقوة البيان تحت عنوان De Laude Novae Militae أو On The Praise of the New Knighthood أى «فى مدح الفروسية الجديدة» وقرر أن فى قيامها تأكيدًا لارتباط الفروسية والرهبنة .

جدير بالذكر ؛ أن هيئة الداوية عدت من أكثر الهيئات الدينية الحربية الصليبية عداءً للمسلمين وفتكًا بهم فى المعارك التى شهدت الصراع بين الجانبين ، وقد أدرك المؤرخون

المسلمون المعاصرون لمرحلة الحروب الصليبية فى بلاد الشام ذلك فابن الأثير على سبيل المثال وصفهم بأنهم «جمرة الافرنج» أما ابن العديم الحلبى فنجده قد ذكر أنهم «استطالوا على المسلمين والفرنج» .

وإلى جانب هيئتى الاسبتارية والداوية : هناك هيئة أخرى فى صورة التيوتون ، وفى هذا الصدد يلاحظ أن القوات الصليبية عندما كانت بصدد حصار مدينة عكا خلال الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٩١م / ٥٨٧هـ قام بعض التجار الألمان من مدينة لوبيك Lubeck وبرمن Bremen بانشاء مستشفى من أجل رعاية الحجاج الألمان، وكانت بالفعل نواة لمنظمة كبيرة هى منظمة التيوتون ، ويلاحظ أن البابا أنوسنت الثالث Innocent III أصدر الموافقة البابوية على الهيئة المذكورة وذلك عام ١١٩٨م / ٥٩٥هـ، وقد قرر ذلك البابا أن الهيئة الجديدة عليها اقتفاء آثر هيئة الداوية فى كل شئ روحانى وفروسى .

على أية حال ؛ توالت الهبات، والمنح، والعطايا على هيئة التيوتون كذلك سيطروا على قلعة عرفت بقلعة القرين وشاركوا فى العديد من المعارك الحربية ضد المسلمين فى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى.

وإلى جانب الهيئات الثلاث السابقة : وجدت هناك هيئة أخرى عرفت بهيئة القديس لازاروس St. Lazarus التى قامت أساسًا من أجل رعاية عناصر المبرصين أو الذين أصيبوا بمرض البرص. وقد كانت المؤسسة الأولى للهيئة فى صورة بيت المبرصين House of Lepers أو ما عرف باللاتينية Domus Leprosorum الذى وقع عند الحائط الشمالى من بيت المقدس قريبًا من الممر الجانبى الصغير الذى جعلوه يحمل اسمهم .

إما موقف مملكة بيت المقدس الصليبية من الهيئة الجديدة ، فقد أظهرت دعمً واضحًا وتطور الأمر بحيث صارت تمتلك الأملاك العديدة فى طبرية ، وعسقلان ، وعكا ، وربما فى قيسارية ، وبيروت . واتسعت تلك الأملاك حتى امتدت إلى مناطق فى أوربا ذاتها كما حدث بالنسبة لفرنسا ، وألمانيا ، وايطاليا ، ويقرر أحد الرحالة الألمان الذين زاروا فلسطين عام ١٣٥٠م / ٧٥١هـ أن تنظيم القديس لازاروس كانت له أملاكه فى جزيرة قبرص.

وجدير بالذكر؛ أن تنظيم القديس لازاروس قام بدوره الحربى جنبًا إلى جنب مع الهيئات الدينية الحربية الصليبية الأخرى. ونجد إشارة لذلك الدور فيما كتبه جان دى جوانفيل فى

ظروف وجـود الملك الفـرنسى لويس التـاسع فى بلاد الشـام عـام ١٢٥٢-١٢٥٣م / ٦٥٠-٦٥١هـ، ومع ذلك من الملاحظ أن الدور الحربى لذلك التنظيم جاء محدوداً إذا ما قورن بأدوار الاسبتارية ، والداوية ، والتيوتون .

وإلى جانب الهيئات والتنظميات السابقة؛ هناك هيئات وتنظيمات ثانوية من أمثلتها فرسان القديس توماس أوف كنتربرى St. Thomas of The Order of Canterbury ، وفرسان القديس لورنس St. Lawrence وهيئة مونتجوى The Order of Mont ، ويلاحظ أن تنظيم القديس توماس أوف كنتربرى ظهر إلى الوجود خلال الصليبية الثالثة، ويلاحظ أنه قام على أساس إنجليزى، كذلك نعرف أنه امتلك عدة أملاك خارج الأرض المقدسة فى يوركشير، وميدلسكس ، وإيرلنده ، وقدر له القيام بدور مدعم للكيان الصليبى وفيما بعد ذلك استمر حتى القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى.

أما فيما يتعلق بتنظيم القديس لورنس فنعرف أن دوره الحربى ظهر إلى الوجود - كما يرجح البعض- فى ظروف الحصار الأخير لعكا على أيدى المماليك عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ ، وهكذا فمن المفترض أن تأسيسه تم قبل ذلك ولم يظهر له دوره الحربى بوضوح إلا خلال تلك الأحداث.

وفيما يتعلق بتنظيم مونتجوى؛ نعرف أنه فى الأصل كان أسبانياً ، ووافق البابا الكسندر الثالث عليه عام١١٨٠م / ٥٧٦هـ، ويلاحظ أنه اتخذ اسمه من اسم جبل بالقرب من بيت المقدس ، وفيما بعد اندمج ذلك التنظيم فى تنظيم أو هيئة الداوية وقرر بعض الباحثين تاريخ ذلك فى عام ١٢٠٤م / ٦٠١هـ .

وجدير بالذكر ، أن تنظيم مونتجوى امتلك العديد من الأملاك فى مدن بيت المقدس، وعسقلان وعكا، وكذلك خارج فلسطين فى أوربا حيث قدم له ملك قشتالة الفونسو الثالث بعض العطايا عام ١١٨٢م / ٥٧٨هـ، وتكرر نفس الأمر من جانب الفونسو الثانى ملك أراجون عام ١١٨٨م / ٥٨٤هـ .

تلك كانت رحلة السندباد مع الهيئات الدينية الحربية الصليبية التى قامت أصلاً من أجل دعم الكيان الصليبى غير أنها تنافست وتناحرت فيما بعد على نحو أضعف ذلك الكيان من الداخل .

-١٦-

هناك حقيقة أدركها السندباد عن عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام؛ وهى أن الصراع بين الصليبيين الذين غزوا المنطقة فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى وبين المسلمين أصحاب البلاد الأصليين كان على شيئين أساسيين هما الأرض والمياه، ولأن الأخيرة عصب الحياة : فلقد كان الصراع عليها شرسًا إلى أبعد الحدود، وبدون فهم زاوية المياه والصراع الدولى عليها فى تلك المرحلة من القرون الوسطى فى تلك المنطقة الاستراتيجية من بين مناطق العالم القديم، يصعب على المرء إدراك الدوافع الحقيقية للحروب الصليبية.

والصليبيون- فى عبارة موجزة- هم خبراء فى استعمار الشعوب فى القرون الوسطى. وقد أدركوا منذ اللحظة الأولى لمقدمهم للمنطقة أهمية وضع أيديهم على الأنهار التى وجدت فى بلاد الشام خاصة المنابع والمصبات وأكبر قدر من مساراتها، من أجل جعل مقدرات المنطقة الاقتصادية فى أيديهم وحرمان أعدائهم المسلمين من مقومات الحياة الأساسية، ولكن ما هى «الصورة المائية» التى كانت عليها بلاد الشام عند مقدم الغزاة إليها؟

واقع الأمر : أن بلاد الشام احتوت على ثلاثة مناطق ذات أهمية كبرى فى مجال المياه ، أو لها النطاق اللبنانى ، وثانيها مرتفعات الجولان، وثالثها الضفة الغربية لنهر الأردن.

وفيما يتصل بأنهار لبنان يمكن إجمالها كما أورد سامر مخيمر وخالد حجازى فى كتابهما المهم عن أزمة المياه فى المنطقة العربية- كالآتى :

١- نهر أسطوان : وطول مجراه ٤٤ك م، ومساحة حوضه ١٦١ ك.م.

٢- نهر عرقة : وطول مجراه ٢٧ ك.م ، ومساحة حوضه ١٢١ ك.م.

٣- نهر البارد؛ وطوله ٢٤ ك.م ومساحة حوضه ٢٧٧ ك.م.

٤- نهر أبوعلى؛ وطوله ٤٤.٥ ك.م ، ومساحة حوضه ٢٧٧ ك.م.

٥- نهر الجوز: وطول مجراه ٣٨ ك.م ، ومساحة حوضه ١٨٩ ك.م.

٦- نهر ابراهيم؛ وطول مجراه ٣٠ ك.م ، ومساحة حوضه ٣٣٠ك.م.

٧- نهر الكلب؛ وطول مجراه ٣٨ ك.م ، ومساحة حوضه ٢٦٠ ك.م.

٨- نهر بيروت ؛ وطول مجراه ٤٢ ك.م ، ومساحة حوضه ٢٣١ ك.م.

٩- نهر الدامور، وطول مجراه ٣٧,٥ ك.م ، ومساحة حوضه ٢٨٨ ك.م.

١٠- نهر الزهرانى ؛ وطول مجراه ٢٥ ك.م ، ومساحة حوضه ٨٨٧ ك.م.

١١- نهر الأولى؛ وطول مجراه ٤٨ ك.م ، ومساحة حوضه ٣٠٢ ك.م.

١٢- نهر الليطانى؛ وطول مجراه ١٧٠ ك.م ، ومساحة حوضه ٢١٦٨ ك.م.

إن نظرة متأنية لتلك الأنهار تكشف لنا من فورنا كيف أن لبنان كان بالنسبة للصليبيين محط الأطماع الاستعمارية ومن الأمور ذات الدلالة أن الصراع على لبنان استمر بين الصليبيين والمسلمين . قرابة عشرة أعوام كاملة من عام ١٠٩٩ - ١١٠٩م / ٤٩٢-٥٠٣هـ ، على نحو يكشف بجلاء عن أهمية إخضاع تلك المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية خاصة من خلال وفرة المياه العذبة بها، ناهيك عن الساحل اللبنانى الممتد من خليج عكار شمالاً حتى صور جنوبًا، وهو حيوى من أجل تدعيم اتصال الغزاة بالغرب الأوربى نبع الصليبيات ، ومن الأمور ذات الدلالة أن شمال لبنان شهد إقامة إمارة صليبية ثرية بانتاجها الزراعى ونعنى بها إمارة طرابلس الصليبية .

وإلى جانب الأنهار السابقة؛ هناك نهر العاصى الذى كان ينبع من بعلبك بلبنان ثم يتجه يمينا ثم إلى الشمال ووقعت عليه حماه وحمص ، ثم يصب عند خليج الاسكندرونة ووقعت عليه أنطاكية حيث أقام الغزاة إمارة صليبية بها احتلت مفتاح شمال الشام الاستراتيجى.

أما مرتفعات الجولان؛ فاحتوت على جبل الشيخ الذى وصف بأنه «أبو الأنهار الفلسطينية»، ومن خلال تلك المرتفعات وجدت هناك بحيرة الحولة، ثم من بعدها بحيرة طبرية والأخيرة مثلت مصدرًا أساسيًا للمياه العذبة ، ثم هناك نهر الأردن، وهو يتكون بعد التقاء مياه نهر بانياس الذى ينبع من سوريا بنهرى الدان، والحاصبانى الذى ينبع من السفوح الجنوبية الغربية لجبل الشيخ فى لبنان.

ولاشك أن ذلك النطاق احتل أهمية كبيرة ضمن أطماع الصليبيين وحرصوا على أن تكون تلك المصادر المائية العذبة تحت مقدراتهم قدر المستطاع ،

وثالث المواقع الرئيسية فى هذه الناحية الضفة الغربية لنهر الأردن وفيها عدد وفير من

الينابيع ، والعيون ، والآبار، ولذلك حرصوا على إخضاعها لسيطرتهم وعدم وقوعها فى قبضة أعدائهم من المسلمين .

وواقع الأمر؛ أن الصليبيين اتجهوا إلى اتباع عدة وسائل من أجل محاولة حسم قضية المياه لصالحهم وحرمان المسلمين من الفوز بالنصيب الأوفر منها قدر المستطاع ، ويمكن إجمال تلك الوسائل فى الآتى:

أولاً. إخضاع تلك الأنهار وأحواضها بصورة كاملة أو جزئية - وفق مقتضى الحال- لسيطرتهم العسكرية والسياسية ويمكن القول- دونما مغالاة - أن توجهات الغزاة منذ اللحظة الأولى التى وضعوا فيها زقدامهم على أرض بلاد الشام اتجهت صوب الأنهار، وحيثما وجدت، وجدت تحركاتهم العسكرية، ولقد استمر ذلك المخطط من عام ١٠٩٨م / ٤٩١هـ، وهو عام إخضاع مدينة أنطاكية حاضرة نهر العاصى المزدهرة حتى عام ١١٠٩م / ٥٠٣هـ وهو عام إخضاع مدينة صيدا حاضرة جنوب لبنان حيث نهر الليطانى أكبر الأنهار اللبنانية على الإطلاق كما كشفت عن السطور السابقة.

لقد كان الغزاة أمام قضية حياة أو موت فإما أن يخضعوا تلك الأنهار بما يمثله لهم من أهمية بالغة أو أن يعجزوا عن ذلك ، ولذا : دخلوا فى عمليات حصار طويلة، ومعارك جزئية هنا وهناك من أجل تحقيق ذلك الهدف ، وقد تمكنوا خلال سنوات قلائل من حسم جانب كبير من قضية المياه لصالحهم فى وقت كانت فيه أوضاع المسلمين السياسية خلال الأعوام الأولى من مقدم الغزاة إلى المنطقة فى حالة من التشرذم والتفرق والتناحر مما مهّد للصليبيين تنفيذ مخططاتهم ، ومطامعهم حيال المياه العربية فى المنطقة.

ثانيًا تشييد القلاع والحصون المنيعة من أجل حماية السيادة الصليبية على الأنهار التى أخضعوها، ويوضح لنا الأستاذ يوشع براور كيف أن تلك القلاع شيدت - من ضمن أسباب تشييدها- من أجل حماية تلك الأنهار واستمرار بقائها فى قبضة الغزاة ، ونجد أمثلة دالة على ذلك ، فعند نهر الليطانى تم تشييد قلعة شقيف آرنون : من أجل ضمان السيطرة عليه ، ولعبت القلعة المذكورة دورًا كبيرًا من أجل إبعاد محاولات المسلمين إخضاع ذلك النهر لسيادتهم السياسية.

أما مرتفعات الجولان التى كانت تمكن من يخضعها لسيطرته من إخضاع منابع الأنهار

المتجهة جنوبًا إلى فلسطين ، وبامكان من يخضعها أن يكشف مدينه دمشق ويهدد ريفها فى ذلك العصر – وفى كل عصر بطبيعة الحال- فقد اتجه الصليبيون إلى تشييد قلعة الصبيبة أو نمرود الحصينة ؛ من أجل دعم السيادة الصليبية فى تلك المنطقة بالغة الحساسية بالنسبة للأمن المائى الصليبى. وما تلك الأمثلة إلا نماذج فقط وهناك العديد من القلاع التى تم تشييدها من أنطاكية شمالاً إلى رأس خليج العقبة جنوبًا ومن نهر الأردن شرقًا إلى البحر المتوسط غربًا من أجل تحقيق العديد من الأهداف الهجومية والدفاعية ومنها زاوية الأمن المائى الصليبى وحمايته فى مواجهة المسلمين .

ثالثًا : العمل على استقدام المستوطنين الغربيين واستقرارهم فى الضفة الغربية لنهر الأردن؛ من أجل استغلال المخزون المائي الكبير هناك، وبالفعل تم إقامة العديد من المستعمرات الصليبية فى ذلك النطاق الجغرافى مثل ما نجده فى كفر مالك، والقبيبة، والبيرة ، وغيرها .

وواقع الأمر؛ مثّل التوطين قضية بالغة الحساسية والأهمية شغلت الصليبيين من أجل مواجهة الكثافة السكانية الإسلامية الأكبر، وعملوا على جلب جموع الغربيين؛ من أجل إيجاد نوع من التوازن الديموغرافى أو السكانى مع المسلمين -إلى حد ما- بالإضافة إلى أن الأمن المائى لايتحقق دون مستوطنين يدافعون عن الأرض والمياه التى احتلوها فى مواجهة هجمات المسلمين الذين أرادوا استرداد بلادهم المحتلة بأى ثمن، ومنطقى ملاحظة أن خريطة توزيعات المياه فى الضفة الغربية هى ذاتها التى أعانت على توزيع المستوطنين الأوربيين.

رابعًا . إتباع الأسلوب الدبلوماسى من أجل أن تكون هناك مكاسب مائية فى المفاوضات بين الصليبيين والمسلمين ونجد مثالاً دالاً على ذلك فى الهدن التى تعقد بين مملكة بيت المقدس الصليبية وأتابكية دمشق بشأن منطقة الجولان وتم تجديدها نحو خمس مرات بل وتجددت خلال عهد الدولة النورية ، ومنطقى تصور أن الأمن المائى الصليبى لم يغب عن تلك الاتفاقات ، على نحو يثبت لنا- على الأرجح- أن عنصر المياه كان من ضمن الأهداف العليا للدبلوماسية الصليبية فى علاقاتها بالدبلوماسية الإسلامية فى ذلك العصر.

إن المطالع لتلك الوسائل يدرك أننا بالفعل أمام حرب مياه حقيقية الغلبة فيها لمن يسرع باستغلال الظروف السياسية لدى الخضم من أجل تحقيق مكاسب على حساب الطرف المعادى الآخر، وبالتالى يمكن أن نقول إن حرب المياه لم نبدأ فى المنطقة فى عصرنا الحالى من خلال

التحالف الإسرائيلي - التركي بل منذ القرون الوسطى ومقدم الصليبيين إلى المنطقة ومطامعهم السافرة في المياه العربية.

مهما يكن من أمر؛ استمر الكيان الصليبي متفوقًا على المسلمين في زاوية المياه الشامية باستثناء أنهار لم يتمكن من إخضاعها في صورة نهر الفرات الذي يمر قسم منه في بلاد الشام، ثم نهر العاصي الذي أخضع المسلمون قسمًا منه كما لدى حماه وحمص وغيرهما ، إلى آن حدثت معركة حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، ومن أهم نتائجها إخضاع غالبية الأنهار الشامية للسيادة الإسلامية وتوجيه ضربة للكيان الصليبي على كافة المستويات العسكرية، والسياسية، والاقتصادية وعصب الناحية الأخيرة هو المياه .

ومن المهم ملاحظة ، أن الصليبيين عملوا على أن تتجه أطماعهم صوب مصر ، وكان من ضمن أهدافهم إخضاع حوض نهر النيل لسيادتهم السياسية ، غير أنهم أخفقوا في ذلك إخفاقًا فاضحًا ، بل أن الأيوبيين- ومن ورائهم المصريين- استخدموا سلاح المياه كما حدث خلال الصليبية الخامسة كما أسلفت الإشارة من قبل.

مهما يكن من أمر؛ من الملاحظ أن المياه مثلت أهمية كبرى لاقتصاديات الصليبيين في بلاد الشام، على مستوى الزراعة وما ترتب عليها من قطاعات اقتصادية أخرى كالصناعة وبالتالي التجارة ، ثم هناك مستوى آخر في صورة السياحة الدينية والعلاجية فبالنسبة للأولى نجد أن هناك بحيرة طبرية التي أكل من سمكها السيد المسيح وقبل الحجاج الأوربيون على القدوم إليها وتناول السمك منها وشرب مياهها ، كذلك كان نهر الأردن من المزارات المهمة من خلال إدراكنا آن السيد المسيح عليه السلام غسل أقدام تلاميذه فيه تواضعًا ، فقدم إليه آلاف الحجاج للتبرك بمياهه .

آما السياحة العلاجية ؛ فالملاحظ أنه في منطقة طبرية وحدث عيون مائية ساخنة صيفًا وشتاءً أفادت في علاج حالات مرضية خاصة بالنسبة للأمراض الجلدية ، وأشار إليها الجغرافيون المسلمون المعاصرين لتلك المرحلة مثل القزويني وغيره. ولانغفل أن السياحة الدينية والعلاجية- وخاصة الأولى- وفرت لملكة الصليبيين سيولة نقدية لايستهان بها دعمت ميزانية ذلك الوجود الغازي.

ومن الزوايا المهمة في أمر المياه أن مناطق الصليبيين في بلاد الشام لم تكن متساوية في

وفرة مصادر المياه، فهناك مناطق كانت تعانى م

وهى العاصمة الدينية والسياسية للصليبيين حتى :

على تخزين مياه الأمطار- التى اعتمدت أصلاً عليها

الأوربيين الذين زاروا مملكة الصليبيين خلال ذلك العصر.

ذلك أمر المياه فى تاريخ الصليبيين فى بلاد الشام على نحو كشف للسندباد كيف أنها لعبت دوراً بالغ الأهمية والحيوية، حينذاك.

-١٧-

لم يستطع السندباد أن يكتب السطور تلو السطور عن عصر الحروب الصليبية، دون أن يتحدث مع قرائه عن الكتب والمكتبات فى ذلك العصر ، والتى وصل إلينا العديد منها على نحو مكننا من إلقاء الأضواء الكاشفة عن أحداث ذلك العصر.

وواقع الأمر؛ أن ذلك العصر شهد أحداثًا متباينة الإيجابيات والسلبيات فى أمر تأليف الكتب وتكوين المكتبات العامرة بعشرات الآلاف منها، وكذلك تبديدها أو إحراقها على نحو يكشف لنا عن أن الأخبار الطيبة والسيئة اجتمعت فى عصر واحد عن الكتب، والمكتبات وهى حصاد عقول المفكرين والمبدعين.

لاحظ السندباد أن القرنين الثانى عشر ، والثالث عشر الميلاديين / السادس ، والسابع الهجريين، شهدا فى بلاد الشام تأليف آلاف المؤلفات التى تراوحت بين الرسائل الصغيرة ذات الموضوع الواحد، والمؤلفات المفصلة المتعددة المجلدات ، واتجه النساخ إلى نسخ العديد من النسخ من المؤلف الواحد، على نحو يجعلنا نصف القرنين المذكورين- دون اعتساف - أنهما قرنا المعارك والتآليف فى آن واحد. ومثل أى عصر من عصور التاريخ، وجد هناك عشاق اقتناء الكتب ، ومن كان لديهم هوى خاص نحو اقتناء مكتبات احتوت على العديد من المؤلفات الثمينة التى تم اقتناؤها على مدى أعوام طويلة .

على أية حال؛ من أشهر المكتبات التى وجدت فى ذلك العصر ، مكتبة بنى عمار الذين كانوا يحكمون طرابلس عندما وصل إليها الغزو الصليبى، واحتوت على آلاف المؤلفات نجد أن الصراع بين حاضرة شمال لبنان والصليبيين ، انعكس عليها، فتم تدمير تلك المكتبة العامرة ، ويلاحظ أنها مثلت جزءًا من دار العلم التى كانت مركزًا من المراكز الشيعية ويقال إن خزائن الكتب فى تلك الدار ضمت ما يتجاوز المائة ألف مجلد ويقرر البعض أن الذى قام بجمعها القاضى أبو الحسن بن عمار طوال مدة حكمه لطرابلس، ويذكر مؤرخنا أ.د. السيد عبد العزيز سالم أنه كان يرسل بالرسل إلى الأقطار المختلفة من أجل البحث عن الكتب القيمة والنادرة ويحصل عليها مهما كلفه ذلك من إنفاق الأموال.

من الملاحظ أن التدمير الذى أصاب تلك المكتبة لم يكن بالأمر الاستثنائى فهناك ذات المصير أصاب مكتبات بغداد المزدهرة عندما دمرها المغول عندما دخلوا عاصمة الخلافة العباسية، ثم هناك مثال آخر من الأندلس فى صورة مكتبة الحكم المستنصر فى قرطبة التى احترق معظمها فى عهد ابن أبى عامر.

من زاوية أخرى؛ نعرف أن الأديب والفارس البارز أسامة بن منقذ ؛ فقدت منه مكتبته الثرية التى لاترتاب لحظة فى قيمة ما احتوته من كتب أنفق على اقتنائها الأموال الطائلة ، ويلاحظ أنه ظل يشعر بالمرارة والحسرة البالغة على ضياعها وعدم قدرته على تعويضها بأية صورة من الصور وقد أورد أمرها فى عبارات حزينة فى كتابه الممتع «الاعتبار» .

وهناك مثال آخر لفقد أحد العلماء لمكتبته فى صورة الرحالة السائح الهروى الذى ألف كتابه الإشارات إلى أماكن الزيارات ، وقد فقد مكتبته واعتمد على ذاكرته فى تدوين رحلاته إلى بقاع عديدة فى بلاد الشام.

ومثل كل عصر؛ شهد عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام من عشق الكتب عشقًا كبيراً ملك عليه فؤاده فعمل على اقتنائها ، ونسخها ، وقراءتها، وعلى هذا الأساس ؛ أشار البعض إلى أحد الأطباء المعاصرين وهو ابن المطران كان مشغوفًا بجمع المخطوطات ، حيث امتلك منها عدداً كبيراً قدره البعض بنحو عشرة آلاف كتاب ، ولم يكن الأمر لديه مجرد اقتناء بل وقراءة أيضًا ، بل وسعى نحو استنساخ المخطوطات النادرة وعمل لديه ثلاثة نساخ للقيام بتلك المهمة ، ولاريب فى أن المناخ العلمى بصفة عامة، شجعه على ذلك ولانغفل أيضًا رغبته الشخصية فى أن يقتنى الكتب التى - لاريب- شعر أنها الحياه بالنسبة له، فعمل على أن توجد معه بمثل تلك الصورة المكثفة التى أشار البعض إليها.

ومما يجد ذكره ؛ أن ذلك العصر شهد ازدهار المكتبات فى العديد من بقاع عالم الإسلام، ولم يكن الأمر مقصوراً على بلاد الشام، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال مدن المشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى/ القرن السابع الهجرى، ولدينا إشارات وضاحة عن ذلك الازدهار فى حجم المكتبات من جانب علم المعاجم / الجغرافية الإسلامية فى ذلك العصر وأعنى به ياقوت الحموى الذى عاش زمنًا فى مدينة مرو فاستحسن هواءها، وأهلها ومكتباتها، ولذلك استعار عدة مئات من خزائن كتبها لاتغادر بيته، واحتاجها من أجل تأليف كتابه الفريد بعنوان «معجم البلدان».

أما أشهر المكتبات التى وجدت خارج نطاق بلاد الشام خلال ذلك العصر ، فهى مكتبة الفاطميين بالقاهرة، وقد وصفت بأنها كانت من عجائب الدنيا، بل ذكر البعض أنه لم يكن فى كافة ديار الإسلام أعظم منها ، ووجدت فى القصر الفاطمى بالقاهرة، أما أعداد الكتب بها فقد قرر البعض أنها احتوت على ألف ألف وستمائة ألف كتاب (أى ما يزيد على المليون ونصف مليون كتاب) ، كذلك احتوت على ألف ومائتان وعشرين نسخة من تاريخ الطبرى.

مما يحزن؛ أن تلك المكتبة التى عدت من المفاخر العلمية بكافة المقاييس فى عصر لم يعرف أساليب الطباعة الحديثة وإنما نسخ المخطوطات ، ثم تبديدها وبيعت بأثمان زهيدة ، وحصل عدد من رجالات الدولة الأيوبية على العديد منها، ولاتعليل لما حل بتلك المكتبة الرائعة إلا من خلال العداء المذهبى بين السنة والشيعة ، ورغبة الأيوبيين فى التخلص من تراث الفواطم ، غير أن المرء يشعر بالألم والحسرة على ضياع ثمرات عقول آلاف المفكرين فى صورة تلك المؤلفات التى بددت من خلال الصراع السياسى والمذهبى، وذلك يؤكد لنا أن أهل السياسة والحرب فى ذلك العصر عجزوا عن الفصل بين صراعاتهم مع خصومهم وعالم الكتب وهكذا؛ دخل الكتاب- ذلك البائس الذى لاحول له ولا قوة- فى آتون المعارك فكان التبديد نصيبه على نحو كان خسارة فادحة لتراث الإنسانية.

على أية حال؛ من الملاحظ أن ذلك العصر لم تصل إلينا مؤلفات عديدة ألفت فيه ، منها على سبيل المثال أغلب ما ألفه المؤرخ الشيعى الحلبى ابن أبى طئ الذى ألف عدة كتب منها السيرة النبوية، والسيرة الصلاحية، وسلك النظام فى تاريخ الشام ، ومعادن الذهب فى تاريخ حلب، ومختار تاريخ المغرب ، وتهذيب الاستيعاب فى معرفة الأصحاب الذى يقال أنه جمع فيه ثلاثة آلاف وخمسمائة ترجمة.

ومن المؤلفات التى فقدت ، ولم تصل إلينا من ذلك العصر : كتاب القلاع والحصون الذى ألفه الأديب، والفارس أسامه بن منقذ الشيزرى، وفى حالة العثور عليه من الممكن أن يلقى الأضواء الكاشفة على العمائر الحربية التى شيدت فى ذلك العصر.

وفى أمر الكتب وتأليفها تملكت الدهشة نفس السندباد ، وذلك عندما عرف أن علماء وفقهاء ومؤرخو ذلك العصر - لاسيما من المسلمين- ألفوا مؤلفاتهم ومنها ما كان فى عدة أجزاء حتى بلغ الثمانمائة جزء وجمعوا فبلغوا ثمانين مجلد كما فى حالة ابن عساكر وكتابه الضخم تاريخ دمشق وتساءل كيف امتلك علماء ذلك العصر أن يؤلفوا ذلك الحكم الهائل من المؤلفات ، والتى

لم تكن مسألة عدد فقط، بل امتازت بجودة تآليفها فهى متميزة كمًا وكيفًا وكل ذلك فى عصر لم تتوافر فيه المصابيح الكهربائية ولا آلات الطباعة وغيرها من وسائل المدنية التى ينعم بها المؤرخون فى عصرنا الحالى، وكان التثبت من صحة المعلومات بالسفر بالدواب ، ولاريب فى أن أولئك الرجال الذين عشقوا العلم ، وأخلصوا فيه تحصيلاً وتأليفًا أدركوا عظم المسئولية العلمية، والأمانة الواقعة على كواهلهم ، ولذلك كان الصدق رفيقهم والإخلاص قائدهم، وزكاة العلم التى تمثلت فى نشره مرشدتهم الوفية، فلاعجب، إذا وجدنا عظم شأن ظاهرة التأليف وتعدد المؤلفات ، ووفرة الكتب والمكتبات التى وصلت الينا من ذلك العصر، أو بددت ووصلت إلينا أخبارها فقط للأسف الشديد.

لقد أدرك السندباد إدراكًا جليًا أن أولئك العلماء ، والفقهاء والمؤرخين ألفوا مؤلفاتهم وهم على يقين من أنهم لايكتبونها لعصرهم فقط بل لعصور تالية، وكان التحدى الصليبى بدمويته، وتعصبه واغتصابه للأرض قد شحذ الهمم وولد استجابة قوية نحو التأليف والإبداع لمواجهة ذلك الغزو الذى استهدف هوية المسلمين العقائدية ضمن ما استهدف ولذلك كان الرد عليهم بسلاحين لاثالث لهما فى صورة العلم والسيف، وكل منهما كان أنجع من الآخر فى ميدانه .

على أية حال؛ على الرغم من الإحراق ، والتبديد الذى صادف عدداً من مكتبات ذلك العصر، إلا أن العديد من الكتب فى كافة مجالات العلم والمعرفة وصلت إلينا من ذلك العصر؛ على نحو مكن المؤرخين من إلقاء الضوء على جوانب مختلفة من تاريخ تلك المرحلة الصاخبة الأحداث البالغة الثراء سياسيًا، واقتصاديًا، ودينيًا، واجتماعيًا .

مهما يكن من أمر ؛ انتشرت فى مدن بلاد الشام الخاضعة للسيادة الإسلامية وكذلك مصر دكاكين الوراقين التى تقوم ببيع النسخ المخطوطة من الكتب المختلفة ، وكذلك الأحبار ، والأقلام والأوراق ، ومثل كل عصر كان هناك من الأفراد من أحب الكتب حبًا جمًا ، واقتناها خاصة من أهل التأليف والإبداع، ولم لا؟ لقد كان ذلك العصر – وبحق– عصر فرسان، ومؤلفين، ومبدعين .

وجدير بالإشارة : أن مكتبات المؤلفين التى كانت عامرة بالمخطوطات بعد أن تدركهم المنية، كان الورثة الذين ليس لهم اهتمام بعالم الكتب والمكتبات – كانوا يتجهون إلى التخلص منها عن طريق البيع، وهكذا كانت المخطوطات المختلفة فى رحلة من مكتبة لأخرى خاصة بعد رحيل أصحابها الذين أفنوا عمرهم فى التعلق بها والقراءة لها.

ومن المهم هنا أن نلاحظ أن الكتاب المخطوط فى ذلك العصر قطع رحلة طويلة إلى أن وصل إلى أيدى القراء من طلاب العلم، فضاعة الورق أخذها العرب من الصينيين، ومن بعد ذلك كثرت مراكز صناعته فى الحواضر الإسلامية الكبرى مثل بغداد، ودمشق، والقاهرة، وقرطبة، وفى عصر الحروب الصليبية الذى نحن بصددددراسته . كانت دمشق حاضرة الشام الكبرى تتفاخر بأن بها أنواعه الراقية الصنعة العالية المستوى، وعرفت باسم الصحائف الدمشقية ، ويذكر مؤرخها الكبير ابن عساكر إشارة إلى سوق لبيعه وذلك فى كتابه الضخم تاريخ مدينة دمشق ، ولاترتاب لحظة فى أن ذلك السوق ازدهر ازدهاراً كبيراً من خلال إدراكنا للنهضة العلمية التى سادت ذلك العصر.

ومن زاوية أخرى؛ كان العلماء يملون على تلاميذهم الذين يكتبون ما يقوله·أساتذتهم ، ويتم نسخ المخطوط عدة مرات ، وتداوله من بعد ذلك وانتقاله من قطر إلى قطر حيث حرص طلاب العلم على الاطلاع على ما يستجد من مخطوطات وفقا لشهرة كبار علماء ذلك العصر وبالتالى تفوق مؤلفاتهم فى أسواق الكتب.

لايستطيع السندباد وهو فى رحلته عبر عصر الحروب الصليبية أن يغفل عناصر لعبت دوراً فعّالاً في ذلك العصر، وأثرت فى توجيه حشود بشرية نحو تحقيق آهداف سياسية ودينية عليا، ونعنى بها عناصر البابوات ، وعناصر القديسين ، ويلاحظ هنا أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الجانبين فكل منهما جاء إفرازًا للواقع الدينى المعاش فى ذلك الحين، كذلك وجد هناك بابوات صاروا قديسين ، وإن وجد ذلك فى حالات خاصة.

وهكذا؛ ليس فى الإمكان إدراك طبيعة العصر، وكيف كان الناس يفكرون وما هى العوامل التى أثرت على التفكير الجمعى فى ذلك العصر دون التعرض لأثر كل من البابوات والقديسين.

أما البابوات ، فقد توالى العديد منهم على كرسى القديس بطرس فى روما على مدى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين وفى هذا المجال نذكر أعلام عديدين فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى على سبيل المثال فى صورة أوربان الثانى .

(١٠٨٨-١٠٩٩م) وباسكال الثانى، (١٠٩٩-١١١٨م) وجلاسيوس الثانى (١١١٨-١١١٩م) وجلاسيوس الثانى (١١١٩-١١٢٤م) وهونوريوس الثانى (١١٢٤-١١٣٠م) وسلستين الثانى (١١٢٤-١١٢٥م) وانوسنت الثانى (١١٣٠-١١٤٣م) سلستين الثانى ١١٤٣-١١٤٤م) ولوكيوس الثانى (١١٤٤-١١٤٥م) وايوجين الثالث (١١٤٥-١١٥٣م) وأناستاسيوس الرابع (١١٥٣-١١٥٤م) وهادريان الرابع (١١٥٤-١١٥٩م) وباسكال الثالث (١١٦٤-١١٨٨م) ولوكيوس الثالث (١١٨١-١١٨٥م) واوربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧م) وجريجورى الثامن (اكتوبر - ديسمبر ١١٨٧م) وكليمنت الثالث (١١٨٧-١١٩١م) وجلستين الثالث (١١٩١-١١٩٨م).

وعلى آية حال؛ فلم يكن كافة أولئك البابوات على درجة واحدة من الأهمية والفعالية، وبصفة عامة: من الممكن القول أن أهمهم جميعًا أولئك الذين شنوا حملات صليبية على المسلمين فى الشرق مثل البابا أوربان الثانى- المؤسس الأول للصليبيات المتجهة لبلاد الشام- وكذلك الباب ايوجين الثالث الذى قاد الصليبية الثانية ، وكليمنت الثالث الذى فى عهده تم شن الصليبية

الثالثة، ولانغفل هنا الإشارة إلى بابا قام بدور فعال فى نهاية القرن الثانى عشر السادس الهجرى، والعقد والنصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى فى صورة البابا انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) الذى وجد الصليبية الرابعة لغزو مدينة قسطنطين ، كذلك قاد الحملة الاليجنسية على العناصر المعارضة للكنيسة الام فى جنوب فرنسا، ويعد دوره - وبحق - حلقة الاتصال بين القرنين المذكورين.

وجدير بالإشارة هنا؛ أن البابوات خلال مرحلة العصور الوسطى- وينطبق القول بالطبع على مرحلة الصليبيات-امتلكوا سلاحًا فعالاً فى صورة الحرمان الكنسىExommunication وهو بمثابة فرض العزل السياسى على الملك أو الإمبراطور الذى يعارض البابوية ولدينا حوادث واضحة الدلالة نجدها عندما تم فرض الحرمان الكنسى على الامبراطور هنرى الرابع قبل الصليبيات والامبراطور فردريك الثانى فيما بعد.

وذلك يعكس لنا حقيقة لها شأنها حينذاك وهى أن البابوية لعبت دوراً سياسيًا بعيد المدى وامتلكت القدرة على الردع السياسى فى حالة عدم الانصياع لأوامرها وتعليماتها ؛ على نحو يدل دلالة وضاحة لاريب فيها أن الملوك والأباطرة الذين شاركوا فى مشروع الصليبيات لم يكن جميعهم مشاركين من خلال رغبة حقيقية فى المشاركة بل أن شبح الرعب من الحرمان الكنسى كان كفيلاً بأن يجعلهم ينفذون تعليمات الجالس على كرسى القديس بطرس فى روما دونما أية معارضة لأن المعارضة ؛ قد تكلفه عرشه، بصورة تدل على أن المشروع صليبى ما هو إلا لعبة سياسية ذات أطماع اقتصادية وما الدين إلا الستار الوهمى الذى من خلاله يتم خداع الجماهيروتضليلها من أجل تحقيق المكاسب الكبرى للمؤسسة الدينية التى تجثم على صدر الغرب الأوربى.

أما القديسين ؛ ففى ذلك العصر راجت أسماء عدد منهم سواءً من عصر المسيحية المبكر أو من المرحلة التالية فى عصر الصليبيات، وهكذا لدينا فى المصادر التاريخية المعاصرة إشارات للقديس لوقا الذى ينسب إليه أحد الأناجيل الأربعة، والقديس لازاروس St. Lazarus الذى أعاد السيد المسيح -بإذن الله تعالى- الحياة إليه- والقديس كولبان الإيرلندى، والقديس ستيفن الهنغارى، ثم هناك القديس ساباس St. Sabbas الذى وجد هناك دير حمل اسمه بفلسطين وعرف بدير مارساباس ، ولانغفل كذلك أمر القديس يوحنا المتصدق St. John The Almsgiver الذى عاش فى القرن السادس الميلادى ووقع الاختيار عليه- فيما بعد- ليكون بطريركًا للإسكندرية وقام بدور خيرى من أجل إقامة المستشفيات للمرضى ورعاية المحتاجين ،

ويلاحظ أنه عندما قام الفرس بمهاجمة بيت المقدس عام ٦١٤م عمل يوحنا المتصدق على تقديم المال والغذاء لأهل المدينة المنكوبة .

ولانغفل ذكر القديس ثيودسيوس الكابادوكى St. Theodosius of Coppadocia الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى وعاصر القديس ساباس وقد توفى بالقرب من مدينة بيت لحم عام ٥٢٩هـ، ثم هناك القديس أيوثيميوس St. Euthomius الكبير الذى عاصر القرن المذكور وصار واحداً من أهم الرهبان الفلسطينيين فى ذلك العصر ، أما القديس جيراسيموس St. Gerasimus فقد أسس جماعة ديرانية أخذت على نفسها أن تحيا حياة الزهد، والتقشف ، واستقرت تلك الجماعة فى منطقة البحر الميت.

وجدير بالذكر أن كافة القديسين المشار إليهم فى السطور السابقة وجدت عدة أديرة وكنائس حملت أسماء العديدين منهم ولذلك وردت إشارات عنهم لدى كتابات الرحالة الأوربيين الذين زاروا مملكة بيت المقدس الصليبية خلال ذلك العصر.

ومن قديسات ذلك العصر : قديسة روسية أسمها أيوفروزين Euphrosinc ابنه أمير بولوتسك Polotsk وهى من المدن الروسية - جورج ڤيزيسلاڤيتش Gcorgc Vcscslavitch ، والتى يرجع نسبها إلى الأمير فلاديمير أمير كييف ، ويلاحظ أنها قامت برحلة إلى الأماكن المقدسة للمسيحيين فى فلسطين على الأرجح خلال المدة من ١١٦٢-١١٧٢م ودفنت فى بيت المقدس. وفيما بعد تم اعتبارها قديسة ، ويلاحظ أنه فى تاريخ المسيحية بصفة عامة فى القرون الوسطى نجد أن عدد القديسين يفوق بمراحل عدد القديسات وينطبق ذلك على عصر الحروب الصليبية.

ولاريب فى أن تلك القديسة- على نحو خاص- تعكس ارتبطا الروس بها، وتعلقهم بشخصها، إذ فى ذلك العصر لكل أمة قديسين ترتبط بها .

ومن القديسين النين ترددت أسماؤهم فى ذلك العصر: القديس فلاديمير الروسى St. Vladimir ابن القديسة أولجا St. Olga ، وهو الذى جعل المسيحية ديناً رسمياً بالنسبة للروس ، وقد عاش خلال القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى، وأوائل القرن الحادى عشر الميلادى الخامس الهجرى وتوفى عام ١٠١٥م ، وهناك أيضاً القديس جورج أو جورج الشهيد الذى عاش فيما بين القرنين الثالث والرابع الميلاديين ويعد أكبر الشهداء المسيحيين شهرة خلال عهد المسيحية المبكرة ، ويلاحظ ذلك القديس - على نحو خاص- راجت بشأنه أسطورة وقد ظهرت بصور وأشكال مختلفة، ونعرف أنه عد القديس الحامى لإنجلترا، ولذلك نجد أن

الجنود الإنجليز فى معركة أرسوف التى جرت بين جيش الملك الإنجليزى ريتشارد الأول وجيش السلطان صلاح الدين الأيوبى ردد أولئك الجنود صيحة خاصة باسم القديس جورج تيمنًا وتبركًا بالنصر.

من الملاحظ أن أولئك القديسين تفاوتوا فى الشهرة وذيوع الصيت، وفى تبرك المعاصرين بهم، بل أن منهم من كان حاميًا لإقليم معين ومنهم لم يكن بالقديس الحامى، وبصفة عامة نجد أن أشهر القديسين أولئك الذين ارتبطوا بالمرحلة الباكرة من تاريخ المسيحية، ومن أمثلتهم القديس بطرس الذى كان فى الأصل صيادًا للسمك فى بحر الجليل أو بحيرة طبرية وفى الأصل دعى سمعان بن يونا، وقد أطلق عليه السيد المسيح عليه السلام اللقب الآرامى -Kar pha الذى كان يعنى الصخرة Petrus أو بيتر Peter، واعتبرته كنيسة روما مؤسسها ، ومن ثم تميزت على غيرها من الكنائس.

ومن الملاحظ : أن كل قديس من القديسين كان له يوم محدد يعد عيدًا يتم الاحتفال بذكراه فيه، فالقديس ستيفن الهنغارى مثلاً تم الاحتفال بعيده يوم ٢ سبتمبر ، والقديس ساباس عيده يوم ٥ ديسمبر، والقديس يوحنا المتصدق عيده يوم ١١ نوفمبر، والقديسة أولجا عيدها يوم ١١ يوليو، هكذا.

وجدير بالذكر : أن المعاصرين اعتقدوا فى «كرامات» أولئك القديس وتبركوا بهم تبركًا كبيرًا ، وهكذا؛ نجد أن مملكة بيت المقدس الصليبية احتوت على مستوطنين أو تجار قدموا من أقطار عديدة من عالم المسيحية كل له قديسة الحامى له أو القديس الذى يتم التبرك به ، فالروسى تعلق بالقديس فلاديمير وكذلك القديسة أولجا، والإنجليزى ارتبط بالقديس جورج، وهكذا .

ومن الملاحظ : أن مواضع دفن أولئك القديسين صارت هدفًا للزيارة من جانب المعاصرين ، وإذا كان المسلمون قد زاروا قبور كبار صوفيتهم، فإن الصليبيين زاروا قديسيهم فى الأرض المقدسة بفلسطين أو فى بلدانهم الأصلية فى أوربا.

إن السطور السابقة تكشف لنا بجلاء أن عصر الحروب الصليبية شهد تزايد نفوذ القيادات المسيحية الرسمية الروحية فى الغرب الأوربى فى صورة البابوات ، وكذلك القيادات الروحية الشعبية فى صورة القديسين فى عصر شهد تزايد الظاهرة الدينية بصورة وضاحة.

-١٩-

ليس فى الإمكان التعرض لملامح عصر الحروب الصليبية ، دون أن نتناول جانبًا من المآسى الإنسانية التى تدمع لها العيون ، ويتألم لها الألم ذاته ، ومنها ما اتصل بقضية الأسرى، وهى تمثل جانبًا كاشفًا لذلك العصر بصورة قد لانجدها فى العديد من الجوانب الإنسانية الأخرى التى وصلت إلينا من أحداث قرنى مرحلة الصليبيات فى بلاد الشام.

جدير بالذكر ؛ أن قضية الأسرى بين المسلمين والصليبيين ، كانت قضية مأساوية بكل معانى الكلمة ، فقد كان لكل طرف أسرى من الجانب الآخر، ولاريب فى أن المعارك الحربية المحتدمة بين الجانبين أدت إلى تزايد أعداد الأسرى، كذلك قيام أحد الطرفين بعمليات سلب ونهب فى مناطق الخصم كان ينتج عنها بالضرورة تواجد العديد من الأسرى لديه. وقد عمل أولئك الأسرى، فى المنازل والحقول ، وكذلك فى الخدمات الشاقة مثل تقطيع الصخور للمشاركة فى بناء القلاع والحصون.

ويلاحظ أن الأسرى منهم الرجال، ومنهم النساء، ولدينا شهادة شاهد عيان معاصر للأسيرات المسلمات فى مدينة عكا الخاضعة للسيادة السياسية الصليبية، رسمها لنا ابن جبير فى سطور رحلته الشيقة، حيث رأى الأصفاد فى أرجلهن على نحو سبب له حزنًا بالغًا خاصة أنهن افتقدن حريتهن الشخصية بفعل الغزو الصليبى الغاشم لبلادهن.

على أية حال؛ حفظ لنا تاريخ تلك المرحلة الفعّالة من العلاقات بين الشرق والغرب فى القرون الوسطى ذكرى أشهر اسيرين صليبيين اولهما فى القرن ١٢م / ٦هـ ، والثانى فى القرن ١٣م / ٧هـ وهما رينو دى شاتيون أمير الكرك الذى وصف بالاندفاع والتهور ، ومن الملفت للانتباه أن الأسير عندما يمكث أعوامًا طويلة فى أسره تتغير شخصيته من خلال الظروف العصيبة التى عايشها ، بل قد يفتقد القدرة على مواصلة الصراع مع أعدائه مرة أخرى، أما فى حالة ذلك الفارس الصليبى العنيد الذى مكث ما يزيد على العقد والنصف من الأعوام فى سجون المسلمين، نجده خرج من أسره لكى يحارب أعداءه بضراوة مسبوقة ويتآمر

عليهم على نحو دفع معه حياته ثمنًا لذلك فى نهاية المطاف.

أما الأسير الصليبى الثانى؛ فهو الملك الفرنسى لويس التاسع، وهو أعظم شأنًا من رينو دى شاتيون بطبيعة الحال الذى كان مجرد أمير صليبى، وإن اتفق معه فى أن كلاً منهما من أصل فرنسى، وقد أسر ذلك الملك خلال معركة المنصورة عام ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ ، وموضع أسره تمثل فى بيت القاضى ابن لقمان ، ولانزاع فى أن أسره مَثَّل إهانة بالغة لفرنسا وشرفها العسكرى على ضفاف نهر النيل الخالد، وقد تم فك أسره بعد أن تم دفع فدية مالية كبيرة اقترضها ذلك الملك من فرسان الهيكل أو المعبد. وبصفة عامة : كان الملك لويس التاسع بمثابة الملك الأوربى الوحيد الذى تعرض لمثل تلك المهانة ، وأعنى بها تعرضه للأسر.

على آية حال: لدينا وثيقة من وثائق تلك المرحلة، عبارة عن رسالة أرسلها أسير مسلم فى سجون اللصيبيين إلى أهله فى مصر، أما اسمه فهو سمسم : وكان سجينًا فى نابلس كبرى مدن الضفة الغربية لنهر الأردن ومرسله إلى أهله فى مصر، وتحديداً بالقاهرة فى حى الباطلية (الآن الباطنية) وأود أن أنقل للقارئ بعضًا منها كما وردت لدى المؤرخ الفرنسى الشهير كلود كاهن Claude Cahen ، يقول ... لم تعد تصلنى أى أخبار منكم ... روحى قلعة لا أعرف من هو حى ومن هو ميت، ولم تصلنى أدنى رسالة تطلعنى على أخباركم، وما يتعلق بكم، ومع ذلك فإن قلبى معكم . عندما يصلكم هذا الخطاب أسرعوا بالرد على أول قادم حتى يهنأ قلبى ... سلموا على معز الدولة وأولاده ، ولكم منى جميعًا خالص، وأتم السلام، وسلامى إلى كل من تشملهم عنايتكم ، وأجيبوا بسرعة على خطابى بدون تعطيل...».

هذه الرسالة ، توضح بجلاء معاناة الأسير لدى أعدائه لقد كان أقسى ما يؤلمه ويؤرقه تأخر الرسائل التى تبعث فى عروقه الدماء بعد شهور الانتظار الطويلة المدمرة، وهكذا ، عاش ذلك الأسير المدعو «سمسم» بين انتظار خطاب ، وإرسال آخر من أجل معرفة أقل القليل من الأخبار عما جرى فى بلاده التى فارقها جسداً ولم تفارق روحه .

وعلى مدى عصر الصليبيات ، حدثت عدة عمليات تبادل للأسرى بين المسلمين والصليبيين من خلال اتفاقيات دبلوماسية بين الجانبين ، ولاريب فى آن تنفيذ مثل تلك الاتفاقيات كان من شأنه إدخال البهجة والسرور على قلوب أولئك الأسرى وآسرهم التى طالما انتظرتهم فى شوق متأجج، وحنين مستعر.

ومما يجدر ذكره هنا: أن من أخطر ما تعرض له الأسرى خلال مدة أسرهم، تعرضهم لمحاولات تغيير عقيدتهم كما حدث لدى عناصر من الأسرى المسلمين لدى الصليبيين خاصة أنهم عاشوا فى مجتمعات مختلفة تمام الاختلاف عن بيئة مجتمعاتهم الإسلامية التى ولدوا ونشأوا فيها . ومع ذلك ؛ وجد من استمر يقاوم ، وظل على دينه لم يبدله على الرغم من تعدد الضغوط النفسية، التى تعرض لها خلال مدة أسره .

من الملاحظ ؛ أن الصراع الإسلامى- الصليبى أدى فى مراحل متعددة إلى ظهور مسميات لمجموعات بشرية دفعت ضمن الصراع المسلح، وآثاره فهناك القتلى ، ثم الجرحى، والأسرى، والهجريين إلى آخر ذلك من الفئات ولاريب فى أن الأسرى كانوا أكثر تلك العناصر تعرضاً للألم النفسى المبرح كما كشفت عن ذلك رسالة الأسير السالفة الذكر.

ومرة أخرى: شعر السندباد كم هى قاسية كلمة «الحرب» أنها دائمًا وأبداً ترتبط بالدماء ويدفع ثمنها الشعوب ، وما الأسرى إلا أحد مظاهر تلك الحروب ، والتساؤل الآن ، هل سنوات ذلك الأسير السالف الذكر فى سجون الصليبيين، غيرت شيئًا من عدائه وكراهيته لهم، وحنينه الدائم لأرض الكنانه وأجاب بالنفى .

-٢٠-

تأمل السندباد تاريخ الصليبيين فى بلاد الشام بعد استقرارهم هناك. فوجد أن هناك مفاجأة تنتظرهم : لقد أتوا من أجل «أَوْرَبَة» الشرق أى تحويله إلى أن يكون جزءًا لايتجزأ من الغرب الأوربى لغة، وديانة ، وسياسية ، وحضارة : غير أن الطريف فى الأمر أنهم تمشرقوا ! وقلب تلك المنطقة العميقة جغرافيًا وتاريخيًا موازين الصليبيين رأسًا على عقب بصورة تجعل المرء تتملكه الدهشة والحيرة فى آن واحد.

قدم الغزاة إلى المنطقة؛ وخدعوا بانتصاراتهم العسكرية التى حققوها على المسلمين فى خلال أعوام قليلة، غير أن العبرة ليست بالانتصار العسكرى فهو أيسر الانتصارات !!! بل العبرة بالانتصار الحضارى وفى المواجهة بين الطرفين بعد انقشاع غبار المعارك الأولى التى زرعوا بها كياناتهم السياسية الدخيلة على المنطقة.

وفى تقديرى أن البابا أوربان الثانى نفسه وهو يعلن افتتاح مشروعه الصليبى، لم يكن يدر بخلده البتة أنه بعد عقود قليلة سيتمشرق أولئك الغزاة ، وينجبون من بعد ذلك على أرض الشام أجيال تم اختراقهم داخليًا من خلال ظاهرة التمشرق ، وهكذا : فإن المقولة القائلة بأن المغلوب مولع بتقليد الغالب، لاتصدق إلا فى حالة أن يكون ذلك المغلوب أقل حضارة من الغالب وهو أمر انتفى فى حالة الصراع الإسلامى - الصليبى.

ويلاحظ أن الصليبيين تأثروا بالمسلمين فى جوانب عدة ونقلوا ذلك التأثير للقارة الأوربية من بعد ذلك: ففى زاوية اللغة، دخلت كلمات عربية عديدة إلى لغات الصليبيين، ومما يذكر أن كلمة «جلاب» وهو شراب من بعض الأعشاب العطرية ، نجدها فى الإنجليزية Julep ، وفى الفرنسية Julep، وفى الأسبانية ، والبرتقالية Julepe ، كذلك كلمة «سمت» فى الإنجليزية Ze-nith، وفى الفرنسية Zennith ، وفى الأسبانية Azinut، كما أن كلمة «شراب» فى الإنجيزية Syrup، أما كلمة «جره» فنجدها فى الإنجليزية Jar، وفى الفرنسية Jarre، وفى الأسبانية Al-iara و Jarro، وفى الإيطالية Giarro، Giaro وغيرها كثير وفى زاوية الأدب ؛ نجد أن الصليبيين ومن بعدهم أوربا تأثروا بالمسلمين فى المجال القصصى، وقد ردد البعض أن جاك

دى ڤترى أسقف عكا كان يروى بعض المقتطفات من «ألف ليلة وليلة» لبعض الصليبيين الذين قدموا إلى بلاد الشام، ومن بعد عودتهم إلى بلادهم؛ قاموا بروايتها على أصدقائهم وقد تم نشر تلك الأقاصيص من خلال مجموعة قصصية بعنوان «أعمال الرومان» فى القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى ؛ وهو القرن التالى مباشرة لعصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام، ومن خلالها ظهرت قصص مشابهة مثل ديكاميرون أى قصص الأيام العشرة التى ألفها بوكاشيو Pocacio (١٣١٣-١٣٧٥م / ٧١٣-٧٧٧هـ) الإيطالى الذى أثر بدوره على تشوسر Chaucer الإنجليزى (١٣٤٢-١٤٠٠م / ٧٤٣-٨٠٣هـ) فى أشعاره .

أما فى نطاق الكتابة التاريخية، فإننا نجد وليم الصورى خير نموذج لتأثير الاتصال بالشرق على كتاباته كما أسلفت الإشارة من قبل.

أما فى المجال الدينى: فقد تغيرت أفكار الصليبيين ، إذ كانوا يعتقدون من قبل مجيئهم إلى المنطقة- أن الإسلام بدعة أحدثها محمد - عليه الصلاة والسلام- وأنه دين الفساد والانحلال والشهوات - والحقيقة التاريخية عكس ذلك بطبيعة الحال- ، غير أنهم بعد أن استقروا فى المنطقة وضح لهم فساد ذلك التصور ، ومن الأمور ذات الدلالة أن ذلك العصر شهد ظهور أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم وذلك فى طليطلة Tudela بإسبانيا عام ١١٤٣م / ٥٣٨هـ بناء على تكليف من جانب بطرس الموقر Peter The Venerable رئيس دير كلونى الذى تخرج منه أوربان الثانى نفسه من قبل، وأنجز تلك المهمة العالم الإنجليزى روبرت الراتينى، والراهب الألمانى المدعو هرمان، وشخص آخر يدعى بطرس التطيلى»، وهناك تصور أن الأخير قام بدور بارز فى هذا الأمر، ولاريب فى أن تلك الترجمة - على الرغم من المآخذ التى تؤخذ عليها- تعد أمرًا مهمًا من أجل اقتراب الأوربيين من الإسلام فى صورة كتابه المبين الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويلاحظ أن الترجمة المذكورة عُدت الأساس الذى قامت عليه الترجمات الأخرى إلى اللغات الأوربية الحديثة على عكس أهميتها الخاصة.

وبمرور الأعوام؛ زاد اقتراب الغزاة عن دين أعدائهم بل وجدنا منهم من يعتنق الإسلام، ولا أدل على ذلك من أنه خلال أحداث الصليبية الواقعة بين عامى ١١٤٧، ١١٤٩م، اعتنق ثلاث آلاف شخص الإسلام وتركوا المسيحية، وذلك فى مدينة أطاليا Atalia فى آسيا الصغرى واعترفت المصادر الصليبية بذلك كما ورد لدى المؤرخ الفرنسى أودو دى دول Odo de Deul ، كذلك اعتنق عدد من فرسان الداوية الإسلام خلال أحداث الصليبية الثالثة : وهو أمر سنجده لدى المغول أنفسهم بعد أن تهدأ حربهم الدموية المدمرة ضد أهله.

وبصفة عامة؛ تحسنت صورة الإسلام لدى الأوربيين فى تلك المرحلة من خلال الاتصال الذى حدث من خلال الحروب الصليبية.

وفى مجال الطب؛ ؛ نجد أن الصليبيين تأثروا بطب المسلمين، ويكفى للتدليل على ذلك أنهم قاموا بترجمة أحد الكتب الطبيه العربية الأساسية فى صورة كتاب على بن العباس المجوسى وعنوانه كامل الصناعة الطبية؛ إذ قام ستيڤن الأنطاكى بترجمته إلى اللاتينية عام ١١٢٧ م / ٥٢١هـ فى عهد بوهيمند الثانى أمير أنطاكية ١١٢٦-١١٣٠م / ٥٢٠-٥٢٤هـ ويلاحظ أنه فى ختام الترجمة قام ستيڤن الأنطاكى بوضع شرح لبعض المفردات التى وردت فى الكتاب كما لدى ديوسفوريدس كبير العشابين اليونانيين القدامى.

ومما يجدر ذكره ؛ أن ذلك المترجم لم يكن الوحيد من بين الصليبيين ممن عملوا فى ترجمة جانب من التراث العربى إلى اللاتينية؛ إذ أن هناك مترجم آخر هو برنارد سلفستر الذى عاصر عهد الملك عمورى الأول ١١٦٣-١١٧٤م / ٥٥٩-٥٧٠هـ على نحو عكس مدى الاهتمام الصليبى بترجمة علوم المسلمين ، والإفادة منها.

وإذا تركنا كافة الجوانب السابقة؛ اتجه السندباد ببصره صوب الفروسية ، فإذا بالحروب الصليبية بمثابة الميدان الرحب الذى التقت فيه الفروسية الأوربية نتاج عالم الإقطاع فى القرون الوسطى ، والفروسية الإسلامية ، ومما يذكر هنا أن ريتشارد الأول الملقب قلب الأسد كان يمثل الفروسية الأوربية ، بينما كان صلاح الدين الأيوبى يمثل الفروسية الإسلامية وقد وضح البون الشاسع ، فريتشارد سفَّاك للدماء ، فيه الكثير من الرعونة ، والاندفاع، والرغبة العارمة فى الثأر ، أما صلاح الدين – باعتراف المؤرخين الغربيين المنصفين أنفسهم– فقد اتسم بالتسامح وتجنب إراقة الدماء – قدر الإمكان– ونبل الصفات ويكفى أنه إتجه إلى إرساله أطبائه إلى عدوه الإنجليزى لعلاجه وهو أمر نادر تماماً فى ذلك العصر، بل لا أبالغ إذا ما قلت فى كل العصور !!! دون الاتهام بالوقوع فريسة كاريزما صلاح الدين الأيوبى.

أما إذا ما اتجهنا صوب مجال آخر فى صورة العمارة : نجد أن الصليبيين أفادوا من أشكال العمارة الحربية عند المسلمين، وقد نقلوا عنهم المدخل القائم الزاوية بالنسبة للقلاع ، وكذلك نظام السقاطات وهى عبارة عن أجسام بارزة عن السور تعتمد على كوابيل مفتوحة من أسفلها ويتم استخدامها من أجل إلقاء الزيوت المغلية والمقذوفات الحجرية على المهاجمين إذا أمكنهم تجنب السهام وهى عادة بنيت فوق الأبواب، وأحياناً فى أماكن أخرى من السور على

نحـو يعـوق المهـاجم عن تسلق السـور؛ أو إحـداث ثلمـة به، وهناك من أطلق خطأ على تلك السقاطات تعبير مشربيات لبروزها غير أن الأولى كانت لها وظيفة حربية ؛ بينما الثانية وظيفتها مدنية .

بعد ذلك الأمثلة ، والنماذج ؛ أدرك السندباد يقينًا أن أوربا فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى كانت أشبه شئ بصبى صغير أراد أن يشعل النيران فى منازل جيرانه فإذا به بعد قدومه إليهم يجالسهم ويتعلم منهم ليرقى، ويقتدم من بعد ذلك ، فبلاد الشام تعد وبحق واحدة من أهم مناطق عبور الحضارة الإسلامية أوربا، وهى . الأندلس، وصقلية ، وجنوب إيطاليا ، وبلاد الشام والدولة العثمانية واحتكاكها بشرق أوربا فيما بعد .

لقد كان المسلمون حملة مشعل الحضارة حينذاك ، وكانت حضارتهم ذات بعد إنسانى نبيل ولغتهم العربية لغة الجسر أو المعبر بين حضارات العالم القديم الهندية واليونانية والرومانية وحضارة أوربا القرون الوسطى وكانت الحروب الصليبية فرصة سانحة كى تتلمذ أوربا على أيدى أساتذة الحضارة بلا نزاع فى عالم العصور الوسطى، وليست هذه العبارات من جانب السندباد لتعكس نوعًا من التعصب للمسلمين ، بل أن المنصفين من المؤرخين الغربيين أقروا ذلك بجلاء ليس بعده جلاء، ويكفى أن نذكر هنا عدد من الأعلام مثل جوستاف لوبون وزيجريد هونكه، وأنا مارى شميل، وغيرهم، وقد أثبتوا جميعًا كم كانت تلك الحضارة الإسلامية عالمية المنبع، عالية المصب استفادت من حضارات العالم القديم ،وأفادت عالم العصور الوسطى بفضل تسامح الإسلام ذاته كدين سماوى يقبل الحوار مع الحضارات الأخرى، لا الصدام الدموى معها، وهنا سر تفرده التاريخى كدين، ومثل هذا القول هو إخفاق للتاريخ لا قولية أو اعتساف فيه .

وهكذا؛ يتضح للمرء أن أوربا – فى صورة الصليبيين- أفادت من المسلمين أكثر مما استفاد الأخيرون ، ولعل المظهر الواضح لتلك الاستفادة إلى جانب المكاسب المادية الكبرى فى عصر الثورة التجارية ، ما نعرفه من أن معارف أوربا «بالعالم الآسيوى» سواء مناطق المسلمين أو جيرانهم اتسعت بصورة غير مسبوقة .

وفى هذا الصدد من الممكن اعتبار المشروع الصليبى ذاته بأنه مشروع أوربى لاستكشاف قارة آسيا تم سلبها ونهبها لاسيما فى الجزء الغربى منها المتسم بالثراء والعمق التاريخى الدينى ومن بعد ذلك التغلغل إلى وسطها وشرقها.

وهكذا؛ كان وجود مملكة بيت المقدس الصليبية بمثابة موضع قدم أوربى من أجل معرفة واستكشاف تلك القارة البالغة الثراء اقتصاديًا ، وتاريخيًا ، وحضاريًا ، وتوالى الرحالة الأوربيون عليها من أجل تحقيق أهداف أوربا هناك ، بل دخلت فى دائرة المشروع التنصيرى الذى قادته البابوية ، ولا أدل على ذلك من محاولة تنصير المغول ، وإدخالهم دائرة عالم المسيحية الكاثوليكية.

وبصفة عامة؛ قدمت أوربا إلى آسيا فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى وهى لاتعرف منها إلا أقل القليل ، وخرجت منها وهى على مستوى عالٍ من الفهم والإدراك بها لتلك القارة ، إنها «المدرسة الآسيوية» التى تكونت فيها أوربا، وقلبت موازينها رأسًا على عقب من خلال حيويتها التاريخية وشارك المسلمون - كما أسلفت - بقسم وافر فى ذلك الانقلاب .

-٢١-

شغل السندباد بالتفكير فى أمر طالما ألح عليه زمنًا طويلاً ، وهو خاص بالدروس المستفادة من تلك التجربة التاريخية التى جرت على الأرض العربية على مدى قرنين كاملين من الزمان.

وواقع الأمر؛ أن من الدروس المستفادة من تلك التجربة المريرة ما يمكن وصفه بأن من هان يسهل الهوان عليه ، فمن خلال فرقة المسلمين، وتصارعهم- وأعنى على نحو خاص قياداتهم كان ذلك بمثابة التمهيد الحقيقى والفعلى لنجاح الغزاة فى زرع وتثبيت أقدامهم فى المنطقة، على نحو يؤكد لنا أن الحكام يخطئون وتدفع الشعوب الثمن، وما كان ذلك كله إلا من خلال غياب الوعى بالتاريخ إذ أن تاريخ المسلمين على مدى خمسة قرون كاملة مع أعدائهم السابقين على الصليبيين كان كفيلاً بتقديم العبرة والعظة التى لاتخطئها عين، غير أن الصراع على السلطة والثروة أدى بهم إلى مأزق حرج فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى عندما واجهوا الغزو الصليبى .

لم يكن فيما صنعه الصليبيون على الأرض العربية أمرًا عبقريًا البته ، ولم يكن أمرًا فريدًا لانظير له، لقد كانت المنطقة مهيئا - أكثر من أى وقت مضى- لاستقبال قوة عسكرية غازية تفرض نفسها على حساب قوى التشرذم والتناحر التى انتسبت للإسلام.

زد على ذلك؛ أن تجربة الحروب الصليبية تعكس لنا أن الحركات المتعصبة فى التاريخ الإنسانى عمومًا لاتبقى ، لأن التعصب بمثابة النار التى تأكل أصحابها، وحيث أن الحركة الصليبية حركة تعصبت ضد كل ما هو غير مسيحى كاثوليكى، لذلك لم تنجح فى التواصل مع أهل الحضارات الأخرى.

وتساءل السندباد لبرهة لماذا نجحت حركة التوسعات العربية الإسلامية فى القرنين السابع والثامن الميلاديين / الأول والثانى الهجريين، وأخفقت حركة التوسعات الصليبية فى شرق البحر المتوسط فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين ، وجاء الرد وضاحًا وضوح الشمس فى كبد السماء لاتداريه غيوم ولاتخفيه سحب، نجحت الأولى لأنها صوحبت برسالة الإسلام القرآن الكريم واللغة العربية، والتسامح والرغبة فى

التعايش مع كافة الأديان القائمة، وفشلت الثانية لأنها قامت على الحرب والتعصب ، وعدم القدرة على التحاور بل فرض القوة والبطش على السكان الأصليين والجيران، وبذلك نجحوا فى توريث الكراهية للأجيال جيلاً بعد آخر إلى أن تمكن المسلمون من طردهم من بلادهم.

وقد يقول قائل: إن الصليبيين بعد موجة المذابح التى اقترفوها خلال المرحلة من ١٠٩٨ إلى ١١١١م / ٤٩٢ -٥٠٥هـ، وبعد عدة عقود من الاقامة مع المسلمين تبنوا اتجاهات سلمية، وبالفعل ذلك حدث ، ولكن من خلال الرغبة فى الإفادة من جهد وكفاءة السكان المحليين: لقد اضطروا إلى مسالمتهم من أجل المصالح الاقتصادية و،السياسية غير أن المشروع الصليبى فى الأصل كان عاجزًا عن السلام، وكانت تلك الزاوية من عوامل إصابته فى مقتل .

من زاوية أخرى؛ أفادت تجربة الحروب الصليبية فى إثبات حقيقة لامناص من أقرارها ، ولا مفر من الاعتراف بها وهى أن الإسلام كان الملاذ الذى التف حوله أهله من أجل الحفاظ على هويتهم الدينية، وبدون ذلك الدين لنجح الغزو الصليبى وحل بالمسلمين ما حل بالهنود الحمر على أيدي الأسبان فى قارتى أمريكا الشمالية والجنوبية مع مطلع العصور الحديثة، ومن الانصاف التقرير بأن الإسلام- ولا شئ غيره كدين - حمى المسلمين عن الإبادة على أيدى أعدائهم، فلاننكر أهمية فكرة الجهادة - وهى ذروة سنامه- التى قدمت لأبنائه الحل الأكيد لمواجهة الغزوة الاستعمارية التى قدمن إلى المنطقة بكل الثقل الأوربى ماديًا وسياسيًا حينذاك.

وليس فى السطور السابقة أية محاولة مستترة للنيل من المسيحية كدين سماوى ممهد للإسلام : إذ أن أبناء المسيحية من الصليبيين هم الذين أساءوا إليها، وهى فى الأصل ديانة مسالمة وهى بالتأكيد بريئة منهم ومن سياساتهم الدموية ، إنه الإنسان الذى يسئ فهم دينه ويحمله ماليس فيه ثم يبرر سلوكياته بالتمسح بأهداب الدين.

من ناحية أخرى: كشفت تجربة الحروب الصليبية عن عجز القارة الأوربية عن القيام بدور قائد العالم القديم حينذاك وعجزت عن صبغ الآخرين بصبغتها الدينية والثقافية وبعد استمرارية ذلك المشروع الصليبى مدة قرنين من الزمان، عادت إلى قواعدها مرة أخرى، ومعها إخفاق التجربة ومعها كذلك الإفادة من خبرات الشرق الحضارية .

وفى تصورى ؛ أن الغرب الأوربى- كممثل لتلك القارة- لم يملك مواصفات القيام بمشروع

عالمى ناضج لأمر يسير وهو أنه لم يكن مؤهلاً فى الأصل للقيام بذلك الدور، بل كان الشرق هو المؤهل حضارياً وظل يقوم بذلك الدور قبل اندلاع الحروب الصليبية وأثناءها ومن بعدها إلى قفز الغرب قفزاته الحضارية مع بدايات العصور الحديثة والثورة الصناعية من بعد ذلك .

وهكذا؛ تأكد لنا أن التاريخ حوار لاصدام - كما توهم صمويل هتنجتون- وما أخفقت أوربا فى القرون الوسطى من خلال مشروعها الصليبى إلا لأنها تبنت فكرة الصدام والنهب الاستعمارى أساسًا لمشروعها .

زد على ذلك ؛ أن تجربة الحروب الصليبية تكشف لنا بجلاء عن آن الجهاد الإسلامى؛ أسقط دولاً وأقام أخرى. فالدولة الفاطمية بعد أن أوهنها الضعف ، وفتك بها التصارع السياسى بين الوزراء العظام ، ولم تعد تشارك بنصيب فى أمر جهاد الصليبيين ، لم يكن من الممكن إلا أن تسقط لتقوم من بعدها دولة مجاهدة فكانت دولة الأيوبيين، ومن بعدهم أتى المماليك بعد أن مرت الدولة الأيوبية بمرحلة الضعف هى الأخرى. ولانغفل هنا أن البعد الشعبى - جنبًا إلى جنب- مع فكرة الجهاد أعان على ذلك الإسقاط ، وذلك القيام، فالجماهير التفت حول القادة الذين حققوا لها آمالها، وفى نفس الحين انفضت عن الذين خذلوها ، ففى دور صلاح الدين الأيوبى المثال الأول، وفى الكامل الأيوبى المثال الثانى.

لم تكن الجماهير مختفية أو بعيدة عن الأحداث، بل كانت فى صلب التاريخ نفسه، مدعمه وشاخذة للهمم ومقدمة الأبناء والأموال والجبهة الداخلية كذلك من أجل مواجهة الغزاة. وهكذا لم يكن الصراع فى صورة قادة فقط بل من خلفهم القاعدة الشعبية المدعمة لهم.

ومن الدروس المستفادة من تجربة الحروب الصليبية المريرة أنه فى حالة غياب وحدة مصر وبلاد الشام يكون ذلك على حساب تاريخ كل من الإقليمين المتجاورين المتعانقين جغرافيًا وتاريخيًا ، لقد دفع أبناء مصر والشام ثمنًا باهظًا من جراء التفكك، والتشرذم، والتصارع على السلطة والنفوذ ، وكذلك التناصر السياسى، والمذهبى.

ولانغفل آن الغزاة الصليبيين عندما قدموا تعاملوا مع بلاد الشام كجزء منفصل جغرافيًا وتاريخيًا عن جيرانها سواءً فى شمال العراق ومصر- وخاصة الأخيرة- وشجعهم الوضع المتردى سياسيًا ومذهبيًا على تحقيق آهدافهم خلال الأعوام الأولى من تاريخ وجودهم فى المنطقة.

غير أن الملاحظ أن الشعور بالخطر يجعل المعاصرين - وخاصة القادة النابهين منهم- يدركون أهمية الوحدة، ومن هنا ندرك كم كانت المعادلة يسيرة على المستوى النظرى شاقة للغاية على المستوى العملى التطبيقي، غياب الوحدة يؤدى إلى الاحتلال الأجنبي، وظهورها يؤدى إلى التخلص من ذلك الاحتلال إلى غير رجعة ، وهكذا أفادت تجربة الصليبيات فى الكشف عن حقيقة محورية فى صورة المرابطة الجغرافية والتاريخية الأبدية بين بلاد الشام ومصر، لقد فشلت فرنسا- زعيمة المشروع الصليبي- وكافة القوى الأوربية الإنجليزية والألمانية والإيطالية- عجزت عن الفتك بوحدة الإقليمين، بل جاء المشروع الصليبى يؤكد أهمية وجود تلك الوحدة، وهو الأمر الذى حدث بالفعل لأنها نابعة وقائمة فعليًا منذ آلاف السنين وليست مجرد حادثة عرضية ، كذلك لم تكن وحدة على مستوى القيادات السياسية الحاكمة بل وحدة شعوب ومصير قائم .

وهكذا : يتأكد لنا أن مصير منطقة الشرق الأدنى يصنعه أبناؤها من المسلمين والمسيحيين الشرقيين المحليين الذين عاشوا معًا لقرون عديدة فى ظل تسامح الإسلام وليس للغرب الأوربى الحق أو القدرة أصلاً على تشكيل تاريخ تلك المنطقة الاستراتيجية على المستوى العالمى قديمًا، ووسطيًا وحديثًا .

ومن المؤكد أن تاريخ مصر لايمكن أن يكتب فى عصر الحروب الصليبية دون تاريخ بلاد الشام والعكس صحيح تمامًا على نحو يؤكد أن كلاً من الإقليمين كان بمثابة العمق الاستراتيجى الحيوى للآخر ، وإن كافة محاولات الانفصال والتجزئة على المستويين الداخلى والخارجى كان مصيره الإخفاق المبين لأن منطق الجغرافيا والتاريخ لايغيره مشروع استعمارى يهدف لسلب ثروات المنطقة على حساب أبنائها الأصليين .

من زاوية أخرى؛ كشفت تجربة الحروب الصليبية عن حقيقة محورية لامجال لتجاهلها أو انكارها ، وهى تتصل بفكرة الافتراق بين الشرق والغرب ، فكما قال الإنجليزى كبلنج «الشرق شرق والغرب غرب ولايلتقيان» ، فبالفعل رفض الشرق المسلم الخضوع لسيطرة حركة الاستعمار الأوربى فى العصور الوسطى، بل وعمل جاهداً على إفشالها، لقد قدمت لنا تجربة الصليبيات درسًا جليًا فى عدم جدوى إيجاد تاريخ مشترك متوازن بين الشرق والغرب، فلكل مساره وطريقه المختلف عن الآخر. الشرق تعرض للغزو، والغرب قاد مشروع الاستعمار بكل أطماعه التى لاتحد وهناك شرط واضح لارتباط الشرق بالغرب فى صورة أن يتخلى الأخير

عن أطماع التوسع وأحلام الهيمنة ، وهو أمر لم يوجد خلال مرحلة العصور الوسطى وفى مشروع الصليبيات على وجه التحديد.

ويلاحظ أن الفوارق حضارية كانت شاسعة بين الجانبين خلال ذلك العصر، وهو أمر لمسناه بجلاء فى الصفحات السابقة ، واتسعت الهوة من خلال مسلك الغزاة وتبريرهم كما اعترفت بذلك مصادرهم نفسها بوقائع محددة واضحة المعالم .

لقد لجأ بعض المؤرخين الغربيين - لاسيما من الفرنسيين- إلى تصوير بعض مراحل الصليبيات على أنها نجاح فرنسا فى العصور الوسطى فى إقامة جسر للحضارات بين الشرق والغرب وعلى الرغم من أن الغرب أفاد من حضارة الشرق على نحو أعانه على انطلاقه فى العصور الحديثة ، إلا أن تجربة الصليبيات ذاتها وميراثها التاريخى فى العقل الجمعى الإسلامى عامة والعربى خاصة يكشف لنا عن الافتراق بين الشرق والغرب، لقد تأكد لنا أن كيلنج كان محقًا تمامًا عندما قال : «الشرق شرق والغرب غرب ولايلتقيان.

ولانغفل أيضًا ؛ أن مما نستفيده من جراء تجربة الحروب الصليبية أن القوى المعادية للإسلام تتحالف معًا من أجل ضرب أبنائه بكل الصور والأساليب الممكنة ، والمثال الوضّاح الدال على ذلك نجده فى التحالف بين القوى الصليبية سواءً لدى الغرب الأوربى أو الكيان الصليبى فى بلاد الشام وبين المغول ، وسعت البابوية- فى هذا الصدد- سعيًا حثيثًا من أجل إرسال المبشرين والمندوبين لعقد أواصر الصداقة بين الطرفين بل من أجل التآمر على المسلمين وجعلهم فريسة مشتركة لتوسع الإعصار المغولى القادم من شرق آسيا والأطماع الصليبية القادمة من غربى أوربا.

وينبغى أن نلاحظ هنا؛ أن البابوية فى مسعاها نحو تنصير المغول وضمهم إلى المشروع الأوربى لغرب المسلمين لم تكن تحركها الدوافع الدينية فقط، بل الأطماع الاقتصادية والرغبة الملحة فى الهيمنة السياسية ولاريب فى أن القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى شهد ضغطًا غير مسبوق من القوى المعادية للإسلام وأهله ، غير أن الإخفاق كان مصير تلك القوى.

زد على ذلك؛ أثبتت لنا تجربة الحروب الصليبية ، كيف أن الحق- ولاشئ غيره - لابد وحتمًا من أن يعود لأصحابه مهما طال الزمن، فها هى مائتى عام من السلب والنهب، والاغتصاب ، والاحتلال تذهب إلى غير رجعة ، ويعود المسلمون للسيطرة على بلادهم التى

احتلها الغزاة ، ولم تستطع العقود الطويلة أو استمرار الزمن طوال تلك الأعوام الطويلة أن تغير منطق الأشياء ، كما لم تتمكن تلك المرحلة الزمنية التى صنعت بقوة السلاح المغتصب للأرض والحقوق أن تجعل هناك استمرارية «أبدية» للواقع الصليبى المفروض على المنطقة ، ولذلك تأكد للسندباد أن التاريخ له كلمته النهائية وليس فى مقدور الغزاة - فى كل عصر- فرض واقع نهائى لايتغير ، بل أن الأيام أثبتت بجلاء لايتطرق إليه ريب أن لغة القوة والبطش والاغتصاب هى ذاتها عنصر القضاء عليها، لأنها فى كلمات قليلة «ضد منطق الأشياء» .

زد على ذلك ؛ كشفت تجربة الحروب الصليبية زاوية محورية لاسبيل لإنكارها ، ولامجال لنفيها، ولامناص من الاعتراف بها فى صورة الدور التاريخى المحورى لمصر، وينبغى أن نقرر هنا أن ذلك الأمر ليس من قبيل الشيفونية الوطنية المجوجة بل إنه إخفاق الحق التاريخى، فتلك الدولة المحورية التى حافظت على حدود جغرافية واحدة لاتتغير وبإمكاناتها البشرية وشراسة شعبها عند مواجهة الأخطار، برز دورها فى مواجهة الحملات الصليبية الواحدة تلوا الأخرى، ويكفى أن نقرر أن محاولات فرنسا الكاثوليكية المتعصبة لاحتلالها باءت بالخسران الفاضح ، وصنعت مصر قبراً تاريخياً لأطماع فرنسا على أرضها، ومثلت عمقًا استراتيجياً لشقيقاتها فى الغرب الآسيوى ، فى مواجهة الخطر الصليبى، وهو أمر تكرر بجدارة كاملة مع الخطر المغولى أيضًا ، وذلك كله قدر مصر التاريخى الذى لاتحيد عنه، ويتذكر السندباد هنا بعض أبيات من نظم أديب مصر الكبير عباس محمود العقاد حيث قال.

كنانة الله كم أوفت على خطر
ثم استقرت وزال الخوف والخطر

وكم توالت على أبوابها أمم
ومصر باقية والشمس والقمر

كأن رمسيس حى فى مدينته
يرعى بنيه وهم من حوله زمر

وهكذا، لايكتب تاريخ الحروب الصليبية دون دور مصر، ولايكتب تاريخ مصر فى القرون الوسطى دون تناول مرحلة الحروب الصليبية ، فكل مرآة للآخر، وما مرحلة الضعف الذى صادف مصر فى العصر الفاطمى الثانى على نحو آدى إلى نجاح الغزاة فى زرع كيانهم ، إلا لحظة فى تاريخها بالغ الامتداد الزمنى لتكون حصنًا حصينًا لشقيقاتها العربيات، نقول ذلك

دون اغفال دور جاراتها العربيات والمسلمات لأن مصر ليس لها تاريخ منعزل عن جيرانها بل تاريخ قائد مكمل ومتعاون ومشارك.

ولانغفل زيادة على كل ما سبق إيراده ، قدمت لنا تجربة الحروب الصليبية قدرة الشعوب على توليد الأفكار بل والأساطير، وفى ذلك العصر الزاخر بالصراع وجد المرء نفسه أمام أسطورتين بارزتين ؛ أسطورة صلاح الدين الأيوبى الذى بهر حتى خصومه وأعدائه من الصليبيين الذين جعلوه فارسًا مسيحيًا كبيرًا ، ونموذجًا للفروسية، كذلك هناك أسطورة خاصة بالإمبراطور الألمانى فردريك بارباروسا الذى سبق وأن أشرت إلى أمر غرقه فى نهر سالف من أنهار كيليكيا بآسيا الصغرى خلال مقدمه لبلاد الشام مشاركًا فى الأحداث الواقعة بعد إسقاط مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١١٨٧م ٥٨٣هـ ، وقد اعتقد الألمان فى أمر ذلك الإمبراطور، وأنه سيعود مرة أخرى، وما ذلك إلا من خلال شدة تعلقهم به ورغبتهم فى البحث عن البطل حتى بعد غيابه واستحضاره دومًا ليكون نموذجًا وحافزًا لهم فى كافة مراحل حياتهم.

ومن زاوية أخرى؛ نلاحظ أن الفارق الجوهرى بين أسطورة صلاح الدين الأيوبى، وأسطورة فردريك بارباروسا أن الأول غزت أسطورته قلوب أعدائه الأمر الذى لم نجده لدى أسطورة خصمه الألمانى، وتكشف لنا تلك الزوايا الخاصة بالأساطير أن الجماهير أحيانًا- وفى عالم القرون الوسطى على نحو خاص- لم تكن لتقتنع بسهولة برحيل البطل التاريخى وما ذلك إلا من خلال شدة التعلق به خاصة إذا كان ذلك القائد من النوع الكارزمي الطابع أى امتلك القدرة على المحبوبية والتأثير فى معاصريه .

تلك سطور قليلة تناولت بعض الدروس المستفادة من تلك التجربة التاريخية الزاخرة بالأحداث والصراعات على مدى قرنين من الزمان، وتساءل السندباد فى نفسه هل هناك من يتعظ من أجل تجنب تكرار ذات الأسباب التى أدت إلى ذلك الصدام الكبير بين الشرق والغرب، أم أن الإنسان دومًا- يصنع التاريخ ولايستفيد منه كما قرر المؤرخ البريطانى ستانلى لين بول.

توهم البعض؛ أن الحروب الصليبية انتهت بسقوط عكا فى قبضة المماليك، وطرد الصليبيين منها، غير أن مثل ذلك التصور أبعد ما يكون عن حقائق التاريخ، فالملاحظ أن الغزاة بعد أن طردوا من بلاد الشام اتجهوا إلى تلك الجزر المتناثرة فى البحر المتوسط مثل قبرص ، ورودس ومالطة ، وصارت بالتالى مراكز لهم يشنون منها الهجمات على المسلمين بين الحين والحين، وتحركهم الأحلام القديمة من أجل العودة إلى بلاد الشام ومصر لمواصلة مشروع الاستعمار الأوربى الذى انقطع بفضل حركة الجهاد الإسلامى.

ويكفى للتدليل على استمرارية تلك الحروب بعد عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ ما حدث عام ١٣٦٥م / ٧٦٧ هـ عندما هاجم بطرس الأول Peter I لوزينيان حاكم قبرص مدينة الإسكندرية ، وأحدث فيها مذبحة مروعة وسلب ونهب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ثم فر منها فدخلها لصًا وخرج منها لصًا كما قرر البعض.

على أية حال ؛ طوال المرحلة التالية على القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى توالى الصراع بين المسلمين والقوى الصليبية فى الغرب الأوربى ، ولم يهدأ الصراع إلا ليعود مرة أخرى أشد وأقوى وفيما بعد ظهرت قوى أوربية جديدة فى عالم مواجهة الغرب للإسلام وأهله فى صورة الأسبان والبرتغاليين ، وظهرت فى الأفق قوة إسلامية جديدة فى صورة الدولة العثمانية التى تمكنت عن تحقيق حلم طالما راود المسلمين منذ القرن السابع الميلادى/ الأول الهجرى فى صورة الاستيلاء على القسطنطينية عام ١٤٥٣م / ٨٥٧هـ، والتوجه بالفتوحات إلى شرق أوربا ، وطرق العثمانيون أبواب فينيا غير أنهم لم يتمكنوا من فتحها .

وفيما بعد : نعرف أن الأسبان تمكنوا من إسقاط غرناطة آخر أملاك المسلمين فى أسبانيا : وذلك عام ١٤٩٢م/ ٨٩٦هـ، واشتد الصراع بين العثمانيين والقوى الصليبية فى الغرب الأوربى ، وعملت الدولة العثمانية على الحفاظ على البحر الأحمر، بحيرة إسلامية مغلقة لمواجهة محاولات البرتغاليين نبش قبر نبى الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام تمامًا مثلما حاول رينودى شاتيون (إرناط) من قبل، على نحو يكشف عن أوجه التشابه بين المشروع الصليبى فى القرون الوسطى، والحديثة.

ولانغفل هنا ؛ أن حركة الكشوف الجغرافية ومحاولة الغرب الأوربى اكتشاف طرق تجارية جديدة إلى الشرق، لاتمر بمصر، كل ذلك يندرج تحت دائرة الصليبيات، ومما يذكر هنا أن الملاح العمانى ابن ماجد الملقب بأسد البحار دل الملاح البرتغالى فاسكودى جاما على الطريق إلى جزر الهند الشرقية وهو لايدرى أنه بذلك يوجه لطمة فى الصميم إلى المسلمين وأملاكهم، وفيما بعد ضربت السفن البرتغالية بالمدافع الحواضر الإسلامية المزدهرة فى شرق أفريقيا.

تعاقبت الأعوام؛ وتوالت صفحات التاريخ ووجد السندباد نفسه أمام تنافس إنجليزى - فرنسى على السيادة والسيطرة الاقتصادية والسياسية ، ووجد فارسًا فرنسيًا هو نابليون بونابرت يغزو أرض الكنانة بجيوشه ، وبعلمائه ، وما كان إلا فارسًا صليبيًا ارتكب المذابح فى كل بقعة حل فيها، ودخلت خيوله الأزهر الشريف غير أن المصريين لم يقفوا مكتوفى الأيدى فاندلعت فى وجهه ثورة القاهرة الأولى فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م وثورة القاهرة الثانية فى ٢٠ مارس ١٨٠٠م وعند يافا ؛ أقام مذبحة للمسلمين وفتك فيها بالآلاف ، غير أنه أمام عكا تم إذلاله بفضل دور تاريخى بارز لأحمد باشا الجزار وأتباعه، وأنه من المؤسف وجود قطاع من المتغربين الذين ينظرون إلى تلك الحملة الصليبية من زاوية التنوير ويغفلون ما صاحبها من دماء وجماجم !!! .

وفيما بعد تم الاتفاق بين انجلترا وفرنسا على اقتسام العالم العربى من خلال اتفاقية سايكس بيكو السرية عام ١٩١٦م، وفيما بعد ؛ صارت انجلترا تسيطر على مصر، والسودان، والعراق، وجنوبى جزيرة العرب، وفلسطين أما فرنسا فسيطرت على تونس، والجزائر، والمغرب، وسوريا ، ولبنان ، ويلاحظ أن انجلترا عملت على إعطاء وعد لليهود بإقامة وطن قومى لهم فى فلسطين من خلال تصريح بلفور عام ١٩١٧م ، وبالتالى أعطى من لايملك وعداً لمن لايستحق .

اندلعت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٧ والثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ م ووقف العرب بجانب محتليهم طمعًا فى الاستقلال دون جدوى وقامت حركات التحرر الوطنى التى هلك فيها مئات الآلاف ، ويكفى أن الجزائر وحدها فقدت ما يزيد على المليون شهيد من الذين سقطوا فى مواجهة الاستعمار الفرنسى لها وهو استعمار هدف إلى القضاء على الإسلام واللغة العربية هناك غير أنه أخفق إخفاقًا مبينًا .

ونالت أغلب الدول العربية استقلالها بعد جهد جهيد ، غير أن بقايا الاستعمار لاتزال قائمة على رأسها فلسطين التى أقامت الحركة الصهيونية فيها دويلة إسرائيل التى أعلنت فى ١٥

مايو ١٩٤٨ ، ثم هناك الاستعمار الأسبانى لسبته ومليلة وجزر المرازيق بالمغرب اعادها الله تعالى لسيادة القطر المغربي الشقيق.

لاحظ السندباد أن إسرائيل ما هى إلا صنيعة الاستعمار البريطاني ثم من بعده الأمريكى بحكم التبعية التاريخية، وتم فرض عدة حروب فى صورة أعوام ١٩٤٨م، ١٩٥٦م، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣م، بسبب وجود ذلك الكيان الغازى الدخيل الذى اعتمد على الغرب اعتماداً كلياً .

وبحث السندباد عن تاريخ دولة محدودة الوزن جغرافياً وسياسياً عاشت نصف قرن من الزمان ، وخاضت أربعة حروب مع أعدائها ، وعمقت الكراهية لدى جيرانها، وتنفق على السلاح ميزانية ضخمة، وتقتل من العرب الأطفال، والنساء، والشيوخ العزل من السلاح وتدعى الديمقراطية ، وتستهين بقرارات الأمم المتحدة، فلم يجد سوى إسرائيل!!!

وهناك تطابق شبه كامل بين الغزو الصليبي والغزو الصهيونى فكلاهما قائم على فكرة أرض الميعاد ، وكذلك على التعصب ورفض الآخر ، وكل من مملكة بيت المقدس الصليبية وإسرائيل كيان عسكرى فى الأساس، ولايعيش بدون حرب ودماء. والقلاع الصليبية يقابلها لدى إسرائيل المستوطنات ووسائل الدفاع والهجوم بل وامتلاك المقدرة النووية (تردد من جانب موردخان فونونو الذى عمل فى مفاعل ديمونة بصحراء النقب أن اسرائيل تملك حوالى ٣٠٠ قنبلة ذرية) وهو ما لايملكه جيرانها .

ومما يذكر أن الغزو الصليبي أدى إلى تشريد المسلمين من أبناء فلسطين والمناطق الأخرى المنكوبة بالغزو إلى المناطق الآمنة الخاضعة للسيادة الإسلامية ، ونفس الأمر نجده بالنسبة لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين فى الأردن، وسوريا، ولبنان، ومصر، وفلسطين ، بل وفى مختلف أنحاء العالم. وقد ظهرت فى اسرائيل مؤخراً مجموعة من المؤرخين الذين وصفوا بالمرجعيين أو المؤرخين الإسرائيليين الجدد، الذين بحثوا عن جذور دولتهم وخرجوا بنتائج صدمت مواطنيهم ، ومن أمثلتهم ايفى شلايم، وبنى موريس، وغيرهما، وقد قرر المؤرخ الإسرائيلى الأخير فى أطروحته للدكتوراه عن جذور مشكلة اللاجئين عن أن الصهاينة قاموا بتدمير مئات القرى الفلسطينية (ويلاحظ أن عددها يزيد على الأربعمائة قرية) فى ظروف عام ١٩٤٨م : من أجل أن تقام على أنقاضها دولة جديدة لليهود فى صورة إسرائيل.

أدرك السندباد فكرة هى لديه اليقين الذى لايقين بعده فى صورة أن القوى الصليبية فى

أوربا والولايات المتحدة أقامت ودعمت قيام إسرائيل ، لكن هذه الدولة لن تستمر ، فكما ظل الصليبيون فى منطقتنا قرنين، وطردوا كذلك أمر تلك الدولة لأنها قامت على أنقاض الآخرين وطالما أنها جعلت من الحرب والدماء دستوراً لها. وإذا نظرنا إلى عمرها نجد أنه لايتجاوز ٥٤ عاماً، وهو طرفة عين وانتباهتها إذا ما قورنت بتاريخ بلاد الشام ومصر حيث أقدم الحضارات وأعرقها وأقواها، وإذا كانت قد استطاعت أن تعيش تلك الأعوام فإنها بالتأكيد لا ولن تضمن لنفسها أن تعيش نصف قرن آخر ، لأن حركة المقاومة ضدها ، فى داخل المناطق الفلسطينية، ومن جانب جيرانها تجعل مستقبل الدولة العبرية فى كهف مظلم ولن تستطيع قوة ما – مهما كان شأنها – أن تضمن لذلك الكيان المزعوم الاستمرار على الأرض العربية.

ردد السندباد عبارة أراد أن يذكر القارى بها دومًا مفادها أن الحروب الصليبية ظاهرة تاريخية مستمرة، ولن تموت طالما بقى الإسلام وأعدائه ، وما إسرائيل إلا ثمرة جهود القوى الصليبية الأوربية والأمريكية فى العصر الحديث.

مهما يكن من أمر: فالأمر الملاحظ أن الحروب الصليبية لازالت قائمة بالفعل ولا أدل على ذلك من أن المؤرخين الغربيين لايزال تحرك قطاعات منهم تلك الروح الصليبية لاسيما فى نظرتهم إلى الإسلام وتاريخه ، ولانغفل هنا: أن حركة الاستشراق خرجت من عباءة الحركة الاستعمارية الأوربية فى العصور الحديثة، ومما يذكر هنا ، أن الغرب أوروبيًا وأمريكيًا يعيش فى أحيان عديدة ظاهرة «الإسلاموفوبيا» أى الخوف من الإسلام وهو موقف يعكس أن ذلك للعرب إذا لم يجد عدواً صنع له عدواً وتحرص الدوائر الإعلامية مسموعة ، أو مرئية أو مقروءة على تشويه صورة الإسلام بكل السبل المتاحة ، بالإضافة إلى عناصر متطرفة من الإسلاميين أنفسهم شوهت صورة الإسلام بأعمال عنف لم تحسب عواقبها بدقة.

ويضاف إلى ما سبق ؛ ظهرت فى الأعوام الأخيرة مقولتان على جانب كبير من الأهمية والخطورة فى صورة «العولمة» و«الفرانكفونية» أما المصطلح الأول الذى هلل له واضعوه واعتبروا أن العالم سيكون قرية صغيرة بفضل ثورة الاتصالات ، فإن الجانب الحقيقى الكامن من ورائها يتمثل فى إذابة الهويات الثقافية والعقائدية ، كذلك التبعية الاقتصادية للغرب المتقدم تكنولوجيًا وجعل العالم الثالث – ويشكل العالم الإسلامى قسمًا كبيراً فيه– مجرد سوق استهلاكى لمنتجات ذلك الغرب ، كذلك يتحول إلى مركز لانتاج المواد الخام التى يبيعها بأرخص الأسعار، وتعود إليه مصنعة بأغلاها وهكذا يزداد الفقر غنً ، ويزداد الفقير فقرًا ،

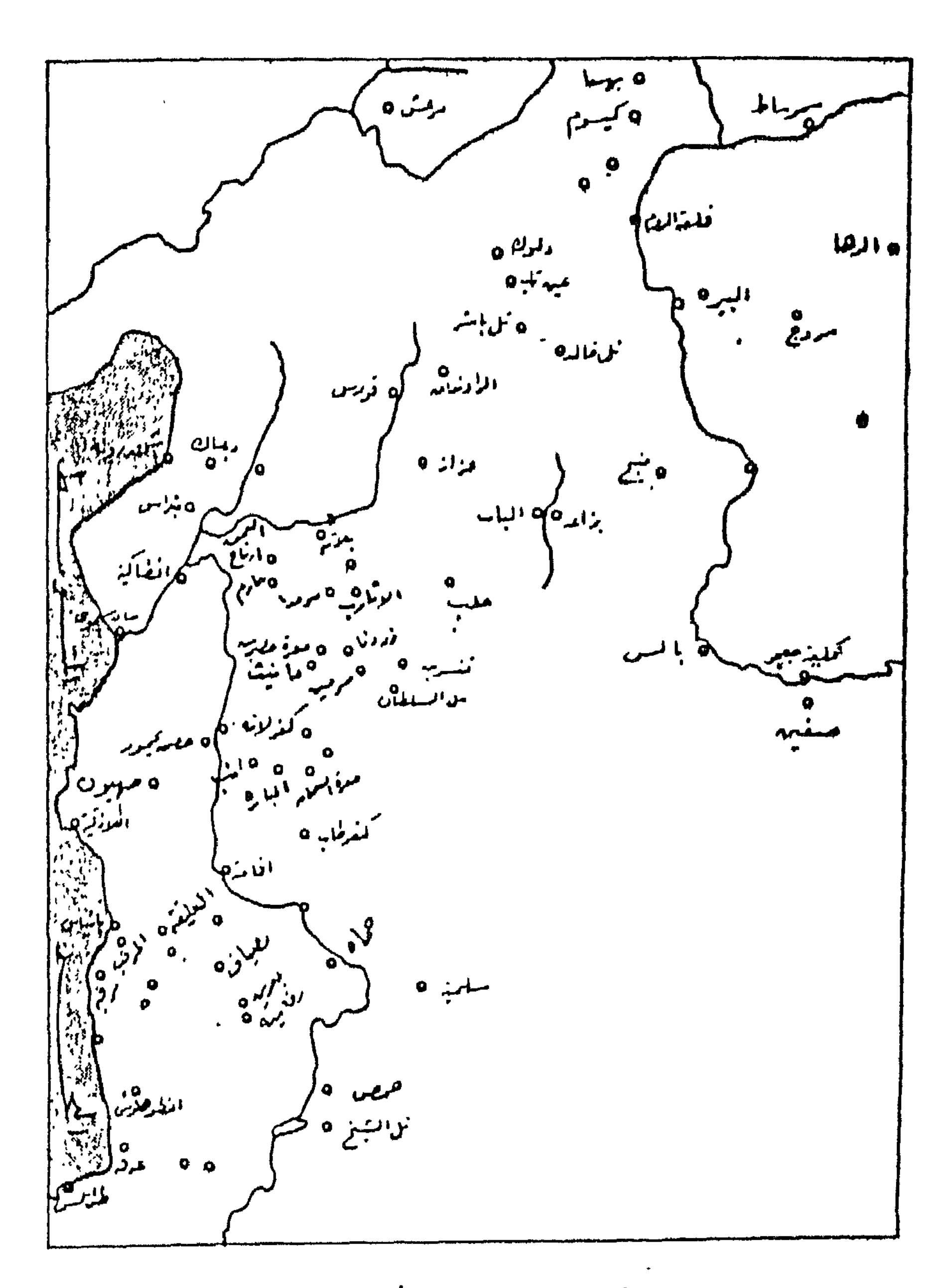
والأصح أن تسمى العولمة بعولمة الفقر ولاشئ غير ذلك ، ولانغفل هنا أن اتفاقية تحرير التجارة العالمية سيتم تنفيذها عمليًا عام ٢٠٠٥م أى بعد أعوام قليلة ، وعندئذ سيتأكد أن ثمن ما سمى بالعولمة فادح للشعوب الغير متقدمة تكنولوجيا .

أما «الفرانكفونية» ؛ فهى تعنى ربط الدول المتحدثة بالفرنسية والتى كانت من قبل خاضعة للاستعمار الفرنسى، ومن أمثلتها لبنان، ومصر، والجزائر، وتونس، والمغرب وغيرها- ربط تلك الدول برباط ثقافى مشترك ، وذلك على حساب اللغة الأم الأصلية وهى اللغة العربية، وهكذا فإن فرنسا تعود إلى المنطقة مرة أخرى ، من خلال الهوية اللغوية والثقافية ، وهى أخطر أشكال الغزو الثقافى، التى يتشدق البعض بعدم وجوده أصلاً !!!، ومما يجدر ذكره هنا أن الفرنسيين يتوقعون أن يصبح عدد المتكلمين بالفرنسية فى مصر - قلب العروبة والإسلام فى العالم العربى- خلال الأعوام القليلة القادمة نحو خمسة ملايين شخص .

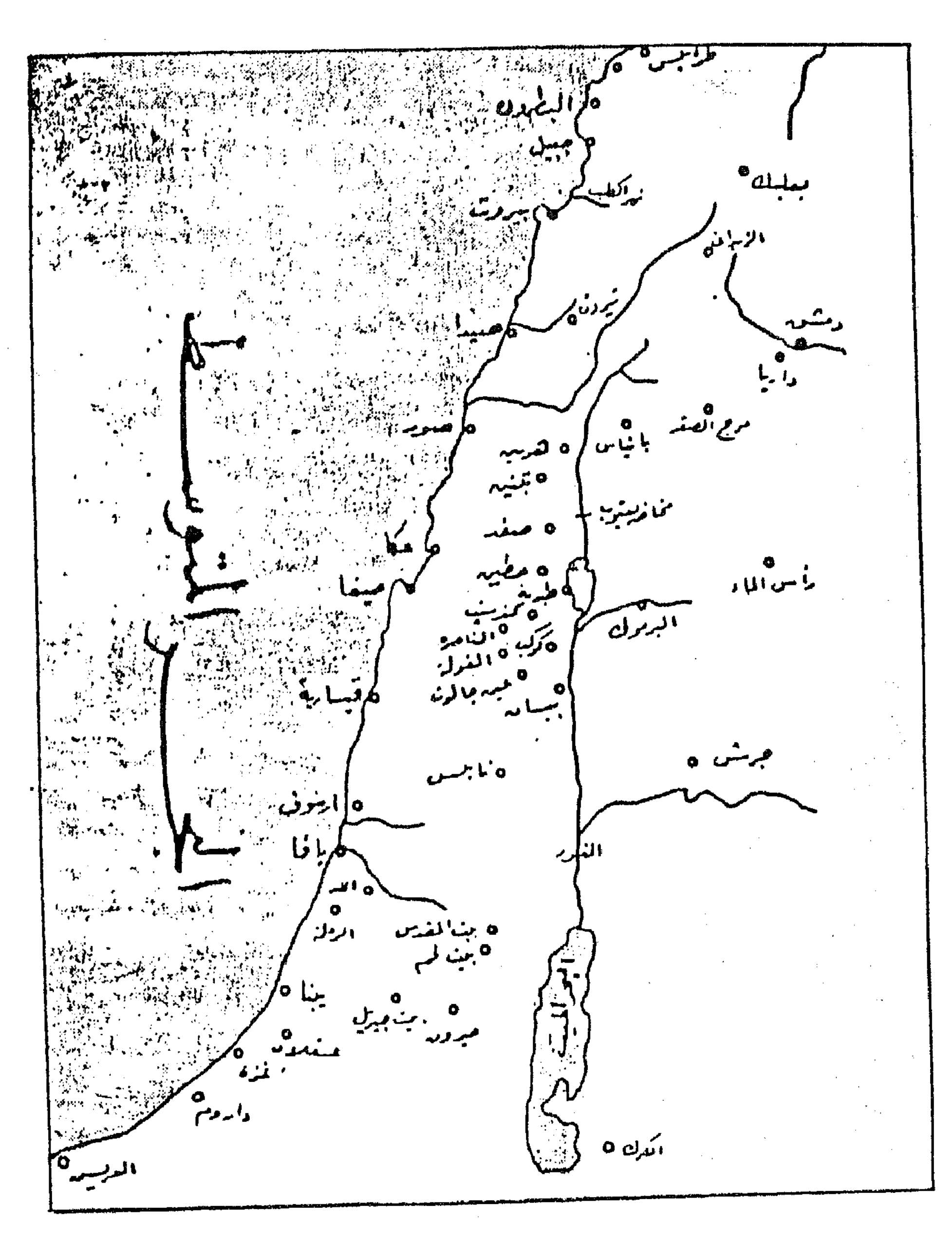
ومن المعروف أن القضية ليست قضية لغة حديث بل أن المسألة تتعداها إلى ما هو أبعد من ذلك ، من خلال إدراكنا إلى أن اللغة وعاء الفكر ، وهكذا فإن أولئك المتحدثين بالفرنسية يخشى أن يتحولوا إلى التفكير بالفرنسية ، ويتم غزوهم ثقافيًا، وإبعادهم عن هويتهم العربية الأصلية .

وقد يتوهم البعض أن كل ذلك ليس من وراءه أية أخطار ولابد من التعايش مع اللغات الأخرى ، غير أن «النموذج الجزائرى» وسياسة فرنسا الاستعمارية ورغبتها المحمومة فى القضاء على اللغة العربية هناك وفرنسة ذلك القطر العربى الشقيق ودعم اسرائيل فى صنع مفاعل ديمونه فى صحراء النقب ؛ يدل على أن *الغزو الفرنسى* قادم *للمنطقة* تحت عباءة «الفرانكفونية» !!! فالحذر الحذر!!!

خلص السندباد إلى حقيقة واضحة المعالم وهى أن الحروب الصليبية لاتزال قائمة ولم تنته وآنيا تتشكل بأشكال وصور جديدة وهى أخطر من الشكل والصورة العسكرية القديمة التى جرت خلال القرون الوسطى، فهل نحن مستعدون لمواجهة ذلك؟.



شمال الشام نقلاً عن العرينى، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.



فلسطين نقلاً عن العرينى، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.

ببليوجرافيا مختارة

عن مصادر تاريخ الحروب الصليبية ومراجعها انظر:

- ATiya, Crusade, Historiography and Bibliography , London, 1962 .

- Mayer, Bibliographie Zur Geschichte der Kruzzuges, Hannover .

– محمد مؤنس عوض، فصول ببليوغرافية فى تاريخ الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٦م.

– انظر أيضاً :

د. سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢م.

– قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ط. الكويت ١٩٩١م .

– محمد مؤنس عوض ، الرحلة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. القاهرة، ١٩٩٢م.

– الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ، ١٩٩٦م.

– فى الصراع الإسلامى الصليبى– السياسة الخارجية النورية ط. القاهرة ١٩٩٨م.

رقم الإيداع ٢٠٠٢/٢٥٣٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 079 - 6

دار روتابرينت للطباعة ت : ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

مهندس / يوسف عز

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق